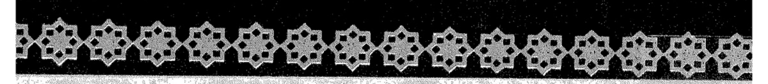
الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



الجزء السابع عشر

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٤)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٠ - ١٤١٦هـ

الجزء السابع عشر

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

لابي شامة

الجزء الأول

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمت الاشارة اكثر من مرة الى كتاب الروضتين وذيله لأبي شامة، شهاب الدين عبد الرحمن ابن اسماعيل المقدسي [٥٩٩ ـ ٦٦٥هـ / ١٢٠٢ـ ١٢٦٧م] على انه أوفى مصدر عربي تحدث باسهاب عن أحداث الحروب الصليبية ، فهو قد نهل مادة جزئية الآساسيين من مصادر الذين تقدموه، واحسن النهل والاختيار واستوفى الروايات ، وأبدى رأيه في ترجيح بعضها على بعض أحيانا ، أما في الذيل فهو المصدر ، وهو شاهد عيان معاصر لكل ما سجله، وهنا تجلت أصالته وتفوقه على غيره من المؤرخين، وبذلك بات مصدر الجميع الدين جاءوا من بعده. .

لقد أكثر أبو شامة من الاشارة الى نفسه واسرته واحواله في الذيل كما ترجم لنفسه، لهذا لن أعرف بهذه التوطئة به وبحياته.

لاشك أن أبا شامة مؤرخ عملاق، كان صاحب أحاسيس مرهفة، ولكم يتمنى المرء لو دفعه فضوله التاريخي وحبه للمعرفة نحو التوغل الى صفوف الفرنجة لوصف أصولهم ودوافعهم ونظمهم وما جبلوا عليه من عادات وتقاليد.

لعله لم يفعل ذلك لأنه كان يؤرخ لدولتين مسلمتين وليس لأعدائهما لكن أو ليس من شروط التغلب على العدو معرفته بالعمق من جميع الجوانب ؟ ومع صحة هذه المسلمة يبدو أن المسلمين جميعا حتى رجال السلطة منهم اهتموا برصد حركات العدو الصليبي عسكريا وسياسيا ،

ولم يـأبهوا بما رسا وراء ذلـك، كـان همهم تحريـر الأرض مـن هذا العـدو وردعه ، وكـف عاديته والخلاص منـه ،فقد ظـل الفرنجة طـوال قرنين في نظر المسلمين كفارا وأعداء، ومعرفة هذا كافيـة، ولئن اهتم الفرنج بتاريخ المسلمين وأحـوالهم ، فانهم فعلـوا ذلك لكـونهم غزاة أرادوا العيـش على الأرض التي انتزعوهـا ، وسعوا الى تدبر وسائل الحياة في أوسـاط عدوانية من كل جـانب ، كما استهدفوا حيـازة المزيد من الأرض ، فعدوانيـة وليم الصـوري جعلته أول المستعـربين إن لم نقـل المستشرقين ، لكن العـرب لم يكـونـوا عـدوانيين ،يضـاف الى هذا ان المؤرخ العـربي ظـل على قـاعـدة الأوائل يؤرخ للملوك والـدول ، ويكتب لا لنشر المعرفة بين النـاس ، بل تلبية لطلب أحـد رجال السلطة، وظل رجال السلطة جنـدا أحاسيسهم الحضاريـة فقيرة ، وفهمهم للثقـافة العربيـة سطحي جدا، فـزين الـدين صاحـب إربل وسواها عنـدما جاءه حيص بيـص ليمدحه ، قال لـه لن أفهم عليـك شيئا مما ستقـوله ، لكن أعـرف أنك تحتـاج عوني ، فأمـر له بمبلغ مـن المال، وصلاح الـدين أمر ببيـع خزانـة الكتب العظيمـة التي وجـدهـا في قصور الفـاطميين بـالقـاهـرة ، لكنـه احتفظ بـالمجـوهـرات والذخائر لنفسه ولآله.

الانتصارات في حطين وسواها جعلت من بعـض رجال الجند والمرتزقة والعبيـد أبطـالا ، لكن لا بـد مـن التمييـز بين البطل العسكـري وبطـل اشـادة الحضارة العـربية، والحفـاظ عليهـا، ولابد مـن التذكير أن رجـال الفكر سـايروا مشاعـر الحكام وماشـوا رغباتهم ، ودونـوا ماكان يـرضيهم ويفقهوه، فهم هنا كانوا على دين ملوكهم .

بفضل التفـوق الحضاري العـربي جاء النصر في حطين ، وحين بـدد خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ثمار حطين السياسية والعسكرية ، ظل التفوق الحضاري يهيء الفرصة لمتابعة التحرير وطرد الغزاة وهذا ما كان ، وعليه يتـوجب على الباحث في تـاريخ الحروب الصليبية وتاريـخ الاسلام

بشكل عام ألا تصمه قعقعة الحديد ، عن سماع أصوات بناة الحضارة ، وألا يعمي غبار المعارك ناظرية عن رؤية عمق المؤثرات الحضارية وألا تدفعه عاطفة النصر العسكري الى عدم التوازن في تقرير حقائق الأمور

هذه والحق اشكالية كبرى تحتاج الى البحث المعمق ، ولعله يكفي هنا اثارتها فالسؤال يشكل نصف المعرفة، والشك هو الطريق نحو اليقين والايمان.

أنا على دراية أن رجال السلطة الأيوبية بنوا المدارس ، لكن جل هذه المدارس جاءت بمثابة ترب لهم، وكانت دينية ضيقة المجالات ، تعتمد على دراسة نصوص مكررة لهذا جاء نتاج رجالها إما اختصارات أو شروح، وكادت جوانب الابداع أن تختفي ، ذلك أن الحضارة العربية جاءت وليدة لحلقات العلماء، ومقارعة الحجة بالحجة في أجواء من الحرية والالتزام الخلقي، لكن المدرسة لم توفر هذه الشروط ، بل جعلت من العمل العلمي عملا دينيا ضيقا متوارثا ، وتوافق هذا مع تنامي عقلية التصوف الطقوسية ، فالتصوف الان لم يعد اعمال زهد وتفكر ، بل حلقات ذكر وسماع وطعام ، وعيش رغيد داخل الزاوية بدون عمل منتج.

انها المرة الأولى التي يطبع بها كتاب الروضتين مع ذيله بشكل علمي محقق ، وقد اعتمدت في عملي على مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس ، وهي فيما اعلمه أفضل مخطوطات هذا الكتاب ، وكان أبو شامة قد قسم الروضتين الى جزئين ، لكن لكبر حجم كل جزء أعدت النظر بالتقسيم فجعلته ثلاثة أجزاء ، يغطي الأول منها أخبار الأحداث حتى وفاة أسد الدين شيركوه وتسلم صلاح الدين لوزارة القاهرة ، ويروى الثاني أخبار نشاطات صلاح الدين حتى تمكنه من الانفراد بالسلطة في الشام ومصر

وبعض أجزاء الجزيرة ، ويتحدث الثالث عـن بقية اللأحداث حتى بعيد وفاته.

ان بعض مصادر الروضتين قـد توفر لنا ، وما توفـر أقدمت على نشره داخل موسوعتنا ، لكن هناك مصادر كثيرة هـامة عاد اليها أبو شامة تعد بحكم المفقود لا سيما ما كتبه ابن أبي طي الحلبـي مع العديد من الوثائق الهامة.

من اللـه ارجو التوفيـق والعون وله خـالص الحمد والشكـر والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٥ / ٢ / ١٤١٦هـ - ٢٣ / ٧ / ١٩٩٥ م

سهيل زكار

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تأليف الشيخ الرحلة المحدث المفنن فريد عصره ووحيد دهره

شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي

الشافعي

تغمده الله برحمته وغفرانه

وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال،وبكرمه وجوده تدرك الآمال،وعلى وفق مشيئته تتصرف الأفعال،وبارادته تتغير الأحوال،وإليه المصير والمرجع والمآل،سبحانه هو الباقي بلازوال،المنزه عن الحلول والانتقال،(عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)[1]،ذو العرش والمعارج والطول والاكرام والجلال،نحمده على ماأسبغ من الانعام والافضال، ومن به من الاحسان والنوال، حمداً لاتوازيه الجبال،مل ء السموات والأرض وعلى كل حال،ونصلي على رسوله ونبيه،وخيرته من خلقه

وصفيه،وخليلـه ووليه،وحبيبه المفضـال،سيدناأبي القـاسم محمد بـن عبد اللـه ذي الشرف البـاذخ،والفضـل الشـامـخ،والعلـم الـراسـخ،والجمال والكمال،صلى الله عليه وعلى الملائكـة المقربين،والأنبياء المرسلين،وعترتهم الطيبين،ما أفل كـوكب وطلع هلال،وعلى آل محمـد وصحبه خير صحب وأكـرم آل،وعلى تـابعيهم بـاحسـان وجميـع الأوليـاء والأبدال،وعفـا عـن المقصريـن مـن أمتـه أولي الكسـل والملال،وحشرنـا في زمـرتـه،متمسكين بشريعتـه،مقتديـن بسنتـه،متعظين بما ضرب مـن الأمثال، مـزدحمين تحت لوائه، في جملة أوليائه(يوم لابيع فيه ولا خلال).[٢]

أما بعـد:فإنـه بعد أن صرفـت جل عمـري،ومعظم فكـري،في اقتباس الفـوائد الشرعيـة،واقتنـاص الفـرائد الادبيـة،عـنّ لي أن أصرف إلى علـم التـاريـخ بعضه،فـأحـوز بـذلك سنـة العلـم وفـرضه،اقتـداء بسيرة مـن مضـى،من كـل عالم مـرتضى،فقـل إمام مـن الأئمة إلّاويحكـي عنه مـن أخبار من سلف فـوائد جمة،منهم إمامنا أبو عبد اللـه الشافعي رضي الله عنـه ،قـال مصعـب الـزبيري:مـارأيت أحـداً أعلـم بـأيـام النـاس مـن الشـافعي،ويـروي عنه أنـه اقـام على تعلم أيـام الناس والأدب عشريـن سنة،وقال:ماأردت بذلك الاستعانة على الفقه.

قلت:وذلك عظيـم الفائدة،جليل العائدة،وفي كتاب الله وسنـة رسوله صلى الله عليـه وسلم من أخبـار الأمـم السالفـة،وأنباء القرون الخالفـة،ما فيـه عبر لذوي البصـائر،واستعداد لــ(يوم تبلى السرائر)[٣]،قـال الله عـز وجل وهو أصـدق القائلين:(وكلا نقص عليـك من أنباء الرسـل مانثبت بـه فـؤادك وجـاءك في هــذه الحق ومـوعظـة وذكـرى للمـؤمنين) [٤] وقال:سبحـانه وتعـالى:(ولقد جـاءهم من الأنبـاء ما فيـه مزدجـر٭ حكمة بالغة فما تغن النذر)[٥]،وحدث النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أم ذرع [٦]وغيره مما جـرى في الجاهلية، والأيام الاسرائيلية، وحكـى عجائب مـا رآه ليلـة أسري بـه وعـرج، وقـال: «حــدثـوا عـن بنـي اسرائيـل ولا

حرج»[٧]،وفي صحيح مسلم عن سماك بن حرب «قال:قلت لجابر بن سمرة أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم؟قال:نعم كثيرا،كان لايقوم من مصلاه الذي صلى فيه الصبح والغداة حتى تطلع الشمس،فإذا طلعت قام وكانوا يتحدثون،فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم»[٨]،وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:«كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بني اسرائيل حتى نصبح ما يقوم الا الى عظم صلاة»[٩]

قلت :ولم يزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى،ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى،ويستنشدون الاشعار،ويتطلبون الآثار والاخبار،وذلك بيّن من أفعالهم،لمن اطلع على أحوالهم،وهم السادة القدوة،فلنا بهم أسوة،فاعتنيت بذلك وتصفحته،وبحثت عنه مدة وتطلبته،فوقفت والحمد لله على جملة كبيرة من أحوال المتقدمين والمتأخرين،من الأنبياء والمرسلين،والصحابة والتابعين،والخلفاء والسلاطين،والفقهاء والمحدثين،والأولياء والصالحين، والشعراء والنحويين،وأصناف الخلق الباقين،ورأيت أن المطلع على أخبار المتقدمين،كأنه قد عاصرهم أجمعين،وأنه عندما يفكر في أحوالهم ويذكرهم،كأنه كان مشاهدهم ومحاضرهم،فهو قائم له مقام طول الحياة،وإن كان متعجل الوفاة٠

قال نعيم بن حماد:كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته،فقيل له:ألا تستوحش؟فقال:كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه،وفي رواية قال:قيل لابن المبارك:ياأبا عبد الرحمن تكثر القعود في البيت وحدك؟فقال:أنا وحدي،أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه،يعني النظر في الحديث٠وفي رواية أخرى:وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان٠

قلت:وقد أنشدت لبعض الفضلاء:

كتـــاب اطـــالعـــه مـــؤنـــس
أحـــب إلي مـــن الآنســـة
وأدرســـه فيرينـــي القـــرو
ن حضـــوراً وأعظمهـــم دارســـه

وقد اختار الله سبحـانه لنا أن نكون آخر الأمم،وأطلعنـا على أنباء من تقدم لنتعظ بما جرى على القرون الخاليـه،وتعيها أذن واعيه،(فهل ترى لهم من باقيه)[١٠]ولنقتدي بمن تقـدمنا من الأنبياء،والائمة الصلحـاء،ونرجو بتوفيـق اللّه عز وجـل أن نجتمع بمن يـدخل الجنـة منهم،ونذاكـرهم بما نقل إلينا عنهم،وذلك على رغم أنـف من عدم الادب،ولم يكن له في هذا العلم أرب،بل أقام على غيه وأكب،والمرء مع من أحب٠

هـذا وإن الجاهـل بعلم التـاريـخ راكـب ظهـر عميـاء،خابـط خبـط عشواء،ينسب إلى من تقـدم أخبار من تأخر،ويعكس ذلـك ولايتدبر،وإن رد عليـه وهمه لايتـأثر،وإن ذكـر فلجهلـه لايتـذكر،لايفـرق بين صحـابي وتـابعـي،وحنفـي ومـالكـي وشـافعـي،ولابين خليفـة وأمير،وسلطـان ووزيـر،ولايعرف مـن سيرة نبيه صلى اللّـه عليه وسلـم أكثر مـن أنه نبـي مرسـل،فكيف له بمعرفـة أصحابه وذلك الصـدر الأول ،الذين بذكـرهم ترتاح النفوس،ويذهب البؤس٠

ولقد رأيت مجلسا،جمع فيه ثلاثة عشر مدرساً،وفيهم قاضي قضاة ذلك الـزمان،وغيره مـن الأعيان،فجـرى بينهم وأنـا أسمع ذكـر من تحرم عليـه الصدقة،وهـم ذوو القربى المذكورون في القـرآن،فقال:جميعهم بنو هـاشم وبنـو عبـد المطلب،وعـدلـوا بـأجمعهـم في ذلك عما يجب،فتعجبـت مـن جهلهـم حيـث لم يفـرقـوا بين عبـد المطلـب والمطلـب،ولم يهتـدوا إلى أن المطلب هو عم عبـد المطلب،وأن عبد المطلب هو ابن هـاشم،فما أحقهم بلـوم كل لائم،إذ هـذا أصل مـن أصول الشريعـة قد أهملـوه،وباب مـن

أبواب العلم جهلوه،ولزم من قولهم إخراج بني المطلب من هذه الفضيلة،فابتغيت إلى اللّه تعالى الوسيلة،وأنفت لنفسي من ذلك المقام،فأخذتهابعلم أخبار الأنام،وتصحيح نسبتها،وايضاح محجتها،فإن كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفة نسبتها إلى أربابها،وإن نسبها خلط فيها وصرفها عن أصحابها،وهو باب واسع غزير الفوائد،صعب المصادر والموارد،زلت فيه قدم كثير من نقلة الأخبار،ورواة الآثار.

ثم أردت أن أجمع من هذا العلم كتابا يكون حاوياً لما حصلته،وأتقن فيه ما خبرته،فعمدت إلى أكبر كتاب وضع في هذا الفن على طريقة المحدثين،وهو تاريخ مدينة دمشق،حماها اللّه عز وجل، الذي صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن العساكري رحمه اللّه،وهو ثمانمائة جزء في ثمانين مجلدا فاختصرته وهذبته[١١]وزدته فوائد من كتب أخر جليلة وأتقنته،ووقف عليه العلماء،وسمعه الشيوخ والفضلاء.

ومرّبي فيه من الملوك المتأخرين،ترجمة الملك العادل نور الدين،فأطربني ما رأيت من آثاره،وسمعت من أخباره،مع تأخر زمانه،وتغير خلانه،ثم وقفت بعدذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين فوجدتهما في المتأخرين،كالعمرين رضي اللّه عنهما في المتقدمين،فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد،واجتهد في اعزاز دين الله أي اجتهاد،وهما ملكا بلدتنا،وسلطانا خطتنا،خصنا اللّه تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما،فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف،يتضمن التقريظ لهما والتعريف،فلعله يقف عليه من الملوك،من يسلك في ولايته ذلك السلوك،فلا يبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين،وذكرى منه سبحانه(فإن الذكرى تنفع المؤمنين)[١٢]فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين،ومن حذا حذوهم من

الأئمة السابقين،ويقولون:نحن في الزمن الأخير،وما لأولئك من نظير،فكان لما قدر اللّه سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم،من بعض ملوك دهرهم،فلن يعجز عن التشبيه بهما أحد،إن وفق اللّه الكريم وسدد،وأخذت ذلك من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائني رحمه اللّه،وكان أحد السادة الاكابر في الحفظ والدين،قال:إني لأحسب يجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من اللّه على هذا الخلق،يقال لهم إن لم تدركوا نبيكم فقد رأيتم سفيان ألا اقتديتم به،وهكذا أقول:هذان الملكان حجة على المتأخرين،من الملوك والسلاطين،فللّه درّهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة،وجميل السريرة،وهما حنفي وشافعي،شفى اللّه بهما كل عيّ،وظهرت بهما من خالقهما العناية،فتقاربا حتى في العمر ومدّة الولاية،وهذه نكتة قلّ من تفطن لهاونبه عليها،ولطيفة هداني اللّه بتوفيقه إليها،وذلك أن نور الدين رحمه اللّه ولد سنة احدى عشرة وخمسمائة،وتوفي سنة تسع وستين،وولد صلاح الدين رحمه اللّه سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتوفي سنة تسع وثمانين[١٣]،فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنة واحدة وبعض أخرى،وكلاهما لم يستكمل ستين سنة،فانظر كيف اتفق أن بين وفاتيهما عشرين سنة وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين،وملكها صلاح الدين سنة سبعين،فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة،وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة،تمحى فيها السيئة وتكتب الحسنة،وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدة الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين مع قرب الشبه بينهما في سيرتيهما،والفضل للمتقدم،فكانت زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله،والارشاد إلى عظم محله،فإنه أصل ذلك الخير كله،مهد الأمور بعدله وجهاده،وهيبته في جميع بلاده مع شدة الفتق،واتساع الخرق،وفتح من البلاد،ما استعين به على مداومة الجهاد،فهان على من بعده على الحقيقة،سلوك تلك الطريقة،لكن صلاح الدين أكثر

جهاداً،وأعم بلاداً،صبر وصابر،ورابط وثابر،وذخر الله له من الفتوح أنفسه،وهو فتح الأرض المقدسة،فرضي الله عنهما فما أحقهما بقول الشاعر:

كم ترك الأول للآخر
وألبس اللّه هاتيك العظام وإن
بلين الثرى عفواً وغفرانا
سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت
مثوى قبورهم روحاً وريحانا

وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء،والأكابر الفضلاء،فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي في تاريخه ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زنكي رحمه اللّه،ولأجله تمم ذلك الكتاب وذكر اسمه في خطبته،وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي في مذيل التاريخ الدمشقي قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة،وصنف الشيخ الفاضل عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري،عرف بابن الأثير مجلدة في الأيام الأتابكية،كلها وما جرى فيها وفيه شيء من أخبار الدولة الصلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى،لكونها متفرعة عنها،وصنف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي،عرف بابن شدّاد،قاضي حلب مجلدة في الأيام الصلاحية،وساق ماتيسر فيها من الفتوح،واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه اللّه تعالى،وصنف الإمام العالم عماد الدين الكاتب،أبو حامد محمد بن محمد ابن حامد الأصفهاني كتابين كلاهما مسجوع متقن بالألفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة،أحدهما الفتح القدسي اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين وسيرته،فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة،والثاني البرق الشامي ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق وهي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة إلى وفاة

صلاح الدين،وهي سنة تسع وثمانين،فاشتمل على قطعة كبيرة من أواخر أخبار الدولة النورية،إلا أن العماد في كتابه طويل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيه،ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه،فحذفت تلك الاسجاع إلا قليلا منها استحسنتها في مواضعها،ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ماستراه من أخبار فتح البيت المقدس شرفه الّله تعالى،وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال والاسجاع المفضية إلى الملال،وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام، واخترت من تلك الاشعار الكثيرة قليلا مما يتعلق بالقصص وشرح الحال،وما فيه من نكتة غريبة وفائدة لطيفة،ووقفت على مجلدات من الرسائل الفاضلية، وعلى جملة من الأشعار العمادية،مماذكره في ديوانه دون دقة من كتب أخرى من دواوين وغيرها،فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو بإحديهما،وما حدث في مدتيهما من وفاة خليفة أو وزير،أو أمير كبير،أو ذي قدر خطير،وغير ذلك،فجاء مجموعاً لطيفاً،وكتاباً ظريفاً،يصلح لمطالعة الملوك والأكابر،من ذوي المآثر والمفاخر،وسميته كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ولّله در حبيب بن أوس حيث يقول:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام(١٤)

فصل

أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود ابن عماد الدين أتابك،وهو أبو سعيد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي،ويلقب زنكي أيضا بلقب والده قسيم الدولة،ويقال لنور الدين ابن القسيم،وسنتكلم على أخبار اسلافه عند بسط أوصافه،وقدّمت من إجمال أحواله ما يستدل به على أفعاله،ذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة،وأن جدّه آق سنقر ولي حلب وغيرها

من بلاد الشام،ونشأ أبوه زنكي بالعراق ثم ولي ديار الموصل والبلاد الشامية، وظهرت كفايته في مقابلة العدو عند نزوله على شيزر،حتى رجع خائبا، وفتح الرها والمعرّة وكفر طاب وغيرهمامن الحصون الشامية،واستنقذها من أيدي الكفار،فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة،ثم قصد نور الدين حلب فملكها،وخرج غازيا في أعمال تل باشر،فافتتح حصونا كثيرة من جملتها قلعة عزاز ومرعش وتل خالد،وكسر ابرنس أنطاكية وقتله وثلاثة آلاف أفرنجي معه، وأظهر بحلب السنة وغير البدعة التي كانت لهم في التأذين،وقمع بها الرافضة وبنى بها المدارس ،ووقف الأوقاف،وأظهر العدل،وحاصر دمشق مرتين،وفتحها في الثالثة،فضبط أمورها،وحصن سورها،وبنى بها المدارس والمساجد وأصلح طرقها،ووسع أسواقها،ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها،وعاقب على شرب الخمر،واستنقذ من العدو ثغر بانياس،والمنيطرة وغيرها .

وكان في الحرب ثابت القدم وحسن الرمي،صليب الضرب يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل اللّه تعالى أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير ،ووقف رحمه الله وقوفا على المرضى ومعلمي الخط والقرآن،وساكني الحرمين،وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج،وأمر باكمال سور المدينة واستخراج العين التي بأحد ،وبنى الربط والجسور والخانات ،وجدّد كثيرا من قنى السبيل ،وكذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملكها،ووقف كتبا كثيرة،وحصل في أسره جماعة من أمراء الفرنج،وكسر الروم والفرنج على حارم ،وكان عدّتهم ثلاثين ألفا،ثم فتح حارم،وأخذ أكثر قرى أنطاكية،ثم فتح الديار المصرية،وكان العدو قد أشرف على أخذها،ثم أظهر بها السنة وانقمعت البدعة،وكان حسن الخط،كثير المطالعة للكتب الدينية،متبعا للآثار النبوية،مواظبا على الصلوات في الجماعات عاكفاً على تلاوة القرآن،

حريصا على فعل الخير،عفيف البطن والفرج،مقتصداً في الانفاق،متحريا في المطاعم والملابس،لم يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره،وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها،أو ارشاد إلى سنة يتبعها٠

وقال أبو الحسن بن الأثير :قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه إلى يومنا هذا،فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين،ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه،قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره،وجهاد يتجهز له،ومظلمة يزيلها،وعبادة يقوم بها،وإحسان يوليه،وإنعام يسديه،ونحن نذكر ما يعلم به محله في أمر دنياه وأخراه،فلو كان في أمة لافتخرت به،فكيف ببيت واحد٠

أما زهده وعبادته وعلمه،فإنه كان مع سعة ملكه،وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لايأكل ولايلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة،ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين،أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحله،ولم يتعده إلى غيره ألبتة،ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة،ومنع من شرب الخمر،وبيعها في جميع بلاده،ومن إدخالها إلى بلد ما،وكان يحد شاربها الحد الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء٠

حدثني صديق لنا في دمشق،كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين ووزيرها قال:كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته لاتقدم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال،أو في مطالعة كتاب أتاه،ويجيب عنها، وكان يصلي فيطيل الصلاة،وله أوراد في النهار فإذا جاء الليل وصلى العشاء

ونام يستيقظ نصف الليل،ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة فيظهر الركوب،ويشتغل بمهام الدولة.

قال:وإنها قلت عليها النفقة،ولم يكفها ما كان قرّره لها فأرسلتني إليه اطلب منه زيادة في وظيفتها،فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه،ثم قال:من أين أعطيها أما يكفيها مالها،والّله لاأخوض نار جهنم في هواها إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال لي،فبئس الظن،إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق إن كان من عدو الاسلام وأنا خازنهم عليها،فلا أخونهم فيها.

ثم قال:لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها إياها فلتأخذها،قال:وكان يحصل منها قدر قليل.

قال ابن الأثير:وكان رحمه الله لايفعل فعلا إلا بنية حسنة،كان بالجزيرة رجل من الرجال الصالحين كثير العبادة والورع شديد الانقطاع عن الناس،وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله،ويعتقد فيه اعتقادا حسناً فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة،فكتب إليه يقول:ماكنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية،فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول:والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر،وإنما نحن في ثغر،العدو قريب منا،وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب،ولايمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهاراً شتاء وصيفا إذ لابد من الراحة للجند،ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لاقدرة لها على ادمان السير في الطلب،ولامعرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب،فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة.

قال ابن الاثير:فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير،الذي يقل في

أصحـاب الزوايـا المنقطعين إلى العبـادة مثلـه،فإن مـن يجيء إلى اللعـب يفعله بنية صالحة،حتى يصير من أعظـم العبادات،وأكبر القربات يقل في العالم مثلـه،وفيه دليل على أنه لايفعـل شيئا إلا بنية صالحة،وهـذه أفعال العلماء الصالحين العالمين•

و حكـي لي عنه أنـه حمل إليه مـن مصر عمامـة من القصـب الرفيـع مذهبة،فلـم يحضرها عنده،فوصفت لـه،فلم يلتفت إليها،وبينـاهم معه في حديثها و إذا قد جاءه رجل صوفي،فـأمر بها له فقيل له:إنها لاتصلح لهذا الرجـل،ولو أعطـي غيرها كـان أنفع له،فقـال:أعطوهـا له فـإني أرجو أن أعوض عنهـا في الآخرة،فسلمت إليـه فسار بها إلى بغداد فبـاعها بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار•

قلت :قـرأت في حاشيـة هذا المكـان من كتـاب ابن الاثير بخـط ابن المعطى إياها قال:أعطاها لشيخ الصـوفية عماد الدين أبي الفتح بن حموية بغير طلب ولا رغبة،فبعثها إلى همذان فبيعت بألف دينار•

قـال ابن الاثير:وحكـى لنا الامير بهاء الـدين علي بـن السكري،وكـان خصيصا بخـدمة نـور الديـن، قد صحبه مـن الصبا وأنـس به،ولـه معه انبساط، قال:كنت معه يومـا في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا،فكلما سرنا تقدمنـا الظل، فلما عدنا صار ظلنـا وراء ظهورنا،فأجرى فـرسه،وهو يلتفـت وراءه وقـال لي:أتـدري لأي شيء أجـري فـرسي وألتفـت ورائي؟قلـت:لا،قـال:قـد شبهـت مـا نحـن فيـه بـالـدنيـا،تهرب ممـن يطلبها،وتطلب من يهرب منها•

قلـت:رضي الله عـن ملك يفكـر في مثل هـذا،وقد أنشـدت بيتين في هذا المعنى:

مثـــل الـــرزق الـــذي تطلبـــه
مثـــل الظـــل الـــذي يمشي معـــك

أنت لا تدركه متبعا
فإذا وليت عنه تبعك

قال ابن الاثير:وكان ـ يعني نور الدين رحمه الله ـ يصلي كثيراً من الليل، ويدعو ويستغفر،ويقرأ ولايزال كذلك إلى أن يركب

جمع الشجاعة والخشوع
ما أحسن المحراب في المحراب

قال: وكان عارفا بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه(١٥)،ليس عنده تعصب بل الانصاف سجيته في كل شيء ،وسمع الحديث وأسمعه طلبا للأجر،وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف،وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس، وغير ذلك فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية،همة أحدهم بطنه وفرجه لايعرف معروفاً،ولاينكر منكراً حتى جاء الله بدولته،فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه،وألزم بذلك اتباعه وذويه،فاقتدى به غيره منهم واستحبوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه،ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة٠

قال :فإن قال قائل: كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة،فليذكر نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام،مع ملكه،وهو سيد الزاهدين في زمانه،ونبينا صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضر موت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى العراق،وهو على الحقيقة سيد الزاهدين٠

قال:وإنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد عنها(١٦)

قال:وأما عدله فانه كان أحسن الملوك سيرة،وأعدلهم حكما،فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولامكسا ولاعشراً بل اطلقها رحمه الله

جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها،والموصل وأعمالها،وديار مصر وغيرها مما حكم عليه،وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً،وهذا لم تتسع له نفس غيره،وكان يتحرى العدل،وينصف المظلوم من الظالم،كائنا من كان،والقوي والضعيف عنده في الحق سواء،وكان يسمع شكوى المظلوم،ويتولى كشف حاله بنفسه،ولايكل ذلك إلى حاجب ولا أمير،فلا جرم سار ذكره في شرق الأرض وغربها٠

قال:ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول: نحن سخر لها نمضي أوامرها،فمن اتباعه أحكامها أنه كان يلعب بدمشق بالكرة،فرأى انساناً يحدث آخر ويومي بيده إليه،فأرسل إليه يسأله عن حاله،فقال: لي مع الملك العادل حكومة،وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني ،فعاد إليه ولم يتجاسر أن يعرفه ما قال ذلك الرجل،وعاد يكتمه،فلم يقبل منه غير الحق،فذكر له قوله فألقى الجوكان من يده،وخرج من الميدان وسار إلى القاضي وهو حينئذ كمال الدين بن الشهرزوري، وأرسل إلى القاضي يقول له:إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري،فلما حضر ساوى خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر:هل ثبت له عندي حق؟قالوا :لا،فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه،وهو له دوني وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي،وإنما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته،فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له٠

قال ابن الاثير:وهذا غاية العدل والانصاف،بل غاية الاحسان،وهي درجة وراء العدل،فرحم اللّه هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق الواقفة معه٠

قلت:وهذا مستكثر من ملك متأخر،بعد فساد الأزمنة،وتفرّق الكلمة،وإلاّ فقد انقاد إلى المضي إلى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر،وعلي رضي الله عنهما،ثم حكي نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور،وقد نقلنا ذلك كله في التاريخ الكبير،وفيه عن عبد الله بن طاهر قريب من هذا،لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمض إليه،وقد بلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى استدعي مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه،فدخل حاجبه عليه متعجباًوأعلمه أن رسول الحاكم بالباب،فأنكر عليه تعجبه، وقام رحمه الله مسرعا ووجد في أثناء طريقه ما منعه من العبور من حفر جب بعض الحشوس واستخراج ما فيه،فوكل من ثم وكيلاً وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل،ورجع .

قال ابن الاثير:ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الاعصار على الظنة والتهمة،بل يطلب الشهود على المتهم،فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ،فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته،مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة،والأخذ بالظنة، وأمنت بلاده مع سعتها،وقل المفسدون ببركة العدل،واتباع الشرع المطهر.

قال:وحكى لي من أثق به أنه دخل يوما إلى خزانة المال،فرأى فيها مالاً أنكره،فسأل عنه،فقيل:إن القاضي كمال الدين أرسله،وهو من جهة كذا،فقال:إن هذا المال ليس لنا،ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء،وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه،فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين،فرده إلى الخزانة،وقال:إذا سأل الملك العادل عنه،فقولوا له عني:إنه له،فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب،وقال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال إلى أصحابه؟فذكروا له قول كمال الدين :فرده إليه وقال للرسول :قل لكمال الدين :أنت تقدر على

حمل هذا المال،وأما أنـا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله،والمخـاصمة عليه بين يدي الله تعالى،يعاد قولاً واحداً.

قال:ومن عـدله أيضا بعد موتـه،وهو من أعجب ما يحكـى،أن انسانا كان بـدمشق غريبـاً استوطنها وأقام بها لما رأى مـن عدل نور الـدين رحمه الله،فلما تـوفي تعدى بعض الأجنـاد على هذا الـرجل فشكاه فلـم ينصف فنزل مـن القلعة وهو يستغيث ويبكـي،وقد شق ثـوبه،وهو يقول: يـانور الدين لـو رأيتنا وما نحن فيـه من الظلم لرحمتنـا أين عدلك،وقصـد تربة نور الـدين ومعـه من الخلـق مالا يحصـى،وكلهم يبكـي ويصيح،فـوصل الخبر إلى صـلاح الديـن فقيـل له:احفـظ البلد والـرعيـة وإلا خرج عـن يدك،فـأرسل إلى ذلـك الرجل وهـو عند تـربة نور الـدين يبكـي والناس معـه،وطيب قلبـه ووهبـه شيئا وأنصفـه،فبكى أشـد مـن الأول،فقال لـه صلاح الدين:لم تبكـي؟قال:أبكي على سلطان عدل فينا بعـد موته،فقال صلاح الدين :هذا هو الحق،وكلما ترى فينا من العدل فمنه تعلمناه.

قلت:ومـن عدلـه أنه بنى دار العـدل،قال ابن الأثير:كـان نور الـدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف وسماها دار العـدل،وكان سبب بنائها أنـه لما طـال مقـامــه بـدمشـق وأقـام بها أمـراؤه،وفيهـم أسـد الـديـن شيركوه،وهو أكبر أمير معه،وقـد عظم شأنه وعلا مكانه حتـى صار كأنه شريك في الملك،واقتنوا الاملاك فأكثروا،وتعـدّى كل واحد منهم على من يجاوره في قـريـة أو غيرها،فكثـرت الشكـاوى إلى كمال الـدين فـأنصـف بعضهم من بعض،ولم يقدم على الانصاف مـن أسد الدين شيركوه،فأنهى الحال إلى نور الدين فأمر حينئذ ببنـاء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نـوابه جميعهم وقال لهم: اعلمـوا إن نور الدين مـا أمر ببناء هـذه الـدار إلا بسببـي وحـدي،وإلا فمـن هـو الـذي يمتنـع على كمال الــديــن،ووالـلــه لئـــن أحضرت إلى دار العـــدل بسبـــب أحـــدكـــم لأصلبنه،فامضوا إلى كـل من بينكم وبينه منازعة في ملـك فافصلوا الحال معه،وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي، فقالوا له:

إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب،فقال:خروج أملاكي من يدي أسهل علي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم،أو يساوي بيني وبين أحاد العامة في الحكومة،فخرج أصحابه من عنده،وفعلوا ما أمرهم وأرضوا خصماءهم،وأشهدوا عليهم،فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات،وكان يجلس في الاسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء وبقي كذلك مدّة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين،فقال نور الدين لكمال الدين:ما أرى أحدا يشكو من شيركوه،فعرّفه الحال،فسجد شكراً لله تعالى، وقال الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

قال ابن الاثير:فانظر إلى المعدلة ما أحسنها،وإلى هذه الهيبة ما أعظمها،وإلى هذه السياسة ما أسدها.هذا مع أنه كان لايريق دما ولايبالغ في عقوبة،وإنما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحسن نيته.

قال: وأما شجاعته وحسن رأيه،فقد كانت النهاية إليه فيهما فإنه أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا،وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم،وبه كان يضرب المثل في ذلك.

سمعت جمعاً كثيراً من الناس،لاأحصيهم يقولون:إنهم لم يروا على ظهر فرس أحسن منه كأنما خلق عليه لايتحرك ولايتزلزل،وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها،لم ير جوكانه يعلو على رأسه،وكان ربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان،وكانت يده لاترى والجوكان فيها بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب،وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين وباشر القتال بنفسه،وكان يقول طالما تعرّضت للشهادة فلم أدركها،سمعه يوما الامام قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك:فقال له:بالله لاتخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فإنك

عمادهم،ولئن أصبت والعياذ بالله في معركة لايبقى من المسلمين أحد إلاّأخذه السيف،وأخذت البلاد،فقال:ياقطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا، قبلي من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذي لا اله الا هو.

قال:وكان رحمه الله يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج،خذلهم الله تعالى،وأكثر ما ملكه من بلادهم به،ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن،صاحب الدروب،فإنه مازال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراًوحضراً ،وكان يقاتل به الافرنج،وكان يقول:إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك،وقلاعه منيعة،وليس لنا إليها طريق،وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام،فإذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه،فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من الاقطاع على سبيل التأليف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا،وساعدنا على الفرنج.

قال:وحيث توفي نور الدين رحمه الله،وسلك غيره غير هذا الطريق،ملك المتولي الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد الاسلام وحصونهم،وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لايمكن رقعه.

قال:ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده،فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداًأقر الاقطاع عليه،فإن كان الولد كبيراًاستبدّبنفسه،وإن كان صغيراًرتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر،فكان الأجناد يقولون:هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد،فنحن نقاتل عليها،وكان سببا عظيما من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب،وكان أيضا يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه،وسلاحهم خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد،ويقول نحن كل وقت في

النفير فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد،دخل الوهن على الإسلام.

قال:ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال:وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ما خافه عيانا.

قال:وأما فعله في بلاد الاسلام من المصالح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم،من ذلك انه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها:حلب وحماه، وحمص،ودمشق،وبارين، وشيزر ومنبج،وغيرها من القلاع والحصون وحصنها وأحكم بناءها،وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس،وبنى أيضا المدارس بحلب وحماه ودمشق وغيرها للشافعية والحنفية،وبنى الجوامع في جميع البلاد،فجامعه في الموصل اليه النهاية في الحسن والاتقان،ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوّض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملاء رحمه الله،وهو رجل من الصالحين فقيل له:إن هذا لايصلح لمثل هذا العمل،فقال:إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم في بعض الاوقات ولايفي الجامع بظلم رجل مسلم،وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لايظلم،فإذا ظلم كان الاثم عليه لا علي.قال:وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم،وبنى أيضا بمدينة حماه جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها،وجدّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم إما بزلزلة أو غيرها،وبنى البيمارستانات في البلاد،ومن اعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق،فإنه عظيم كثير الخرج جدا،بلغني أنه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب بل على كافة المسلمين من غني وفقير.

قلت:وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعراًبذلك،وإنما هذا كلام مشاع على ألسنة العامة لنفع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء

للفقراء فيه،والله المستعان،وانما صرح بأن ما يعز وجوده من الأدوية الكبار وغيرها،لايمنع منه من احتاج إليه، من الأغنياء والفقراء ،فخص ذلك بذلك،فلا ينبغي أن يتعدّى إلى غيره،لاسيما وقد صرح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين،وقال بعد ذلك:من جاء إليه مستوصفا لمرضه أعطي،والله أعلم.

وبلغني في أصل بنائه نادرة وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكابر ملوك الفرنج،خذلهم الله تعالى فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيماً،فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم اطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين،ومال نور الدين إلى الفداء بعد ما استخار الله تعالى،فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه، وتسلم المال ،فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات،وبلغ نور الدين خبره،فأعلم أصحابه،فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع لهم الحسنتين وهما الفداء وموت ذلك اللعين،فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان،ومنع المال الأمراء ،لأنه لم يكن عن ارادتهم كان.

قال ابن الاثير:وبنى أيضا الخانات في الطرق،فأمن الناس، وحفظت أموالهم وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر،وبنى أيضا الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج،وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي،فإذا رأوا من العدو أحدا أرسلو ا الطيور فأخذ الناس حذرهم،واحتاطوا لأنفسهم،فلم يبلغ العدو منهم غرضا،وكان هذا من ألطف الفكر،وأكثرها نفعا.

قال:وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية،ووقف عليها الوقوف الكثيرة،وأدرّ عليهم الإدرارات الصالحة،وكان يحضر مشايخهم عنده ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم،فإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه،ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته،ويقبل عليه

بحديثه،وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام،ويجمعهم عند البحث والنظر،فقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه،وكان أمراءه يحسدونهم على ذلك وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم،وإذا نقلوا عن إنسان عيبا يقول: ومن المعصوم،وإنما الكامل من تعد ذنوبه.

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي،وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان إليه،فحسده ذلك الأمير فنال منه يوماً عند نور الدين،فقال له:ياهذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها،وهي العلم والدين،وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ماذكرت،وليست لكم حسنة تغفرها،ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك،وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم،أفلا أحمل سيئة هذا إن صحت مع وجود حسنته،على أنني والله لاأصدقك فيما تقول ،وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدّبنك فكف عنه.

قال ابن الاثير:هذا والله هو الاحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب.

وبنى بدمشق أيضا دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة فهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه.وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة،وبنى أيضا مساجد كثيرة،ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن .قال:وهذا فعل لم يسبق إليه،بلغني من عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا،وهو سنة ثمان وستمائة،كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها غير ملك صحيح

شرعي ظاهراً وباطناً،فإنه وقف ما انتقل إليه ووزن ثمنه،أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه .

قال:وأما هيبته ووقاره فإليه النهاية فيهما،ولقد كان كما قيل شديداً في غير عنف،رقيقاً في غير ضعف،واجتمع له ما لم يجتمع لغيره،فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده إلى غاية لامزيد عليها،وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير،ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف،وأما من عداه كأسد الدين شيركوه،ومجد الدين بن الدايةوغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالقعود،وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه،ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه،وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: إن هؤلاء لهم في بيت المال حق فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا،وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجلس حلم وحياء لاتؤبن فيه الحرم[١٧]، وهكذا كان مجلسه لايذكر فيه إلاّ العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو لايتعدى هذا، بلغني أن الحافظ ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللغط وسوء الادب من الجلوس فيه مالاحد عليه، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الإختلاف من المتحدثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مدّة لايحضر المجلس الصلاحي، وتكرر من صلاح الدين الطلب له، فحضر فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال:نزهت نفسي عن مجلسك فإنني رأيته كبعض مجالس السوقة، لايستمع فيه إلى قائل ولايرد جواب متكلم، وقد كنا بالامس نحضر مجلس نور الدين ، فكنا كما قيل كأنما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة

والوقار،فإذا تكلم أنصتنـا، وإذا تكلمنا استمع لنا،فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنـه لايكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قـال ابـن الاثير:فهكـذا كـانـت أحوالـه جميعهـا رحمه اللـه مضبـوطـة محفـوظـة،وأمـا حفـظ أصـول الـديـانـات فـإنـه كـان مـراعيـا لها لايهملهـا،ولايمكن أحـداً من النـاس مـن اظهار مـا يخالف الحق،ومتـى أقـدم مقـدم على ذلك أدبـه بما ينـاسـب بـدعتـه،وكان يبـالـغ في ذلـك ويقول:نحن نحفـظ الطرق من لص وقاطع طـريق والأذى الحاصل منهما قريب،أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل.

قال:وحكي أن إنسانا بدمشق يعرف بيـوسف بن آدم،كان يظهر الزهد والنسك،وقـد كثر اتبـاعه أظهر شيئـا من التشبيه،فبلـغ خبره نور الـدين فـأحضره وأركبـه حماراً وأمر بصفعـه،فطيـف بـه في البلد جميعهـا،ونـودي عليه:هذا جزاء من أظهر في الدين البدع،ثم نفاه من دمشق،فقصد حرّان وأقام بها إلى أن مات.قال:ويسوق الله القصار الاعمار إلى البلاد الوخمة.

قلت:وذكر العماد الكـاتب في أوّل كتابه البرق الشامي أنـه قدم دمشق في شعبان سنـة اثنتين وستين وخمسمائة في دولة الملك العـادل نور الـدين محمود بـن زنكي،وأخذ في وصفـه بكلامه المسجـوع فقال:كان ملـك بلاد الشام ومالكها،والذي بيده ممالكها،الملـك العادل نور الدين،أعف الملوك وأتقاهم،وأثقبهم رأيا وانقاهم،وأعـدلهم.وأعبدهم . وأزهدهـم. وأجهدهـم. وأظهـرهـم. وأطهـرهـم. وأقـواهم .وأقـدرهـم.وأصلحهـم عملا. وأنجعهـم أملا. وأرجحهـم رأيا. وأوضحهـم رأيا[١٨]. وأصدقهـم قولا. وأقصـدهم طولا. وكـان عصره فاضلاً ونصره واصلاً. وحكمـه عادلاً. وفضله شـاملاً. وزمانـه طيباً. وإحسانـه صيبا. والقلوب بمهـابته ومحبته ممتلئـة. والنفوس بعاطفته وعارفته ممتلية وأوامره ممتثلـه. وجدّه منزه عن الهزل. ونوّابه في أمن العزل. ودولته مأمـولة مأمونة. ورو‌ضته مصـوبة مصونة. والرياسـة كاملة. والسياسـة شاملـة. والزيـادة زائدة. والسعادة مسـاعدة. والعيشـة ناضرة.

والشيعة ناصرة. والانصاف صاف. والاسعاف عاف. وأزر الدين قوي. وظمأ الاسلام روي، وزند النجح وري. والشرع مشروع. والحكم مسموع. والعدل مولى. والظلم معزول. والتوحيد منصور. والشرك مخذول. وللتقى شروق. وما للفسوق سوق. وهو الذي أعاد رونق الاسلام إلى بلاد الشام. وقد غلب الكفر، وبلغ الضر. فاستفتح معاقلها. واستخلص عقائلها وأشاع بها شعار الشرع في جميع الحل والعقد. والابرام والنقض. والبسط والقبض. والوضع والرفع. وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الاسلام بالشام قطائع. فقطعها وعفى رسومها ومنعها. ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم. وبدّد سلوكهم. وصان الثغور منهم. وحماها عنهم. وأحيا معالم الدين الدوارس. وبنى للأئمة المدارس. وأنشأ الخانقاهات للصوفية. وكثرها في كل بلد وكثر وقوفها. وقرّر معروفها. وأدنى للوافدين من جني جنانه قطوفها .وأجدّ الأسوار والخنادق. وأنمى المرافق. وحمى الحقائق. وأمر في الطرقات ببناء الربط والخانات. فضافت ضيوف الفضائل. وفاضت فيوض الأفاضل. وهو الذي فتح مصر وأعمالها. وأنشأ دولتها ورجالها[١٩].

• ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسع وستين وهي السنة التي توفي فيها نور الدين قال:

وفي هذه السنة أكثر نور الدين من الأوقاف والصدقات،وعمارة المساجد المهجورة،وتعفية آثار الآثام، واسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام،فما أبقى سوى الجزية والخراج، وما يحصل من قسمه الغلات على قويم المنهاج•

قال: وأمرني بكتب مناشير لجميع أهل البلاد،فكتب أكثر من ألف منشور وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر، فزاد على ثلاثين ألف دينار،وكانت عادته في الصدقةأنه يحضر جماعة من أماثل

البلـد من كـل محلـة ويسألهم عمـن يعـرفون في جـوارهـم من أهـل الحاجـة، ثـم يصرف إليهـم صدقاتهم، وكان له برسم نفقة الخاص في كـل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس يصرفها في كسوتـه ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطـة وجامكية طبـاخه، ويستفضل منه مـا يتصدق به في آخـر الشهر، وأما مـا كان يهدى إليه مـن هدايا الملـوك وغيرهم فإنـه كان لايتصرف في شيء منـه لاقليـل ولا كثير، بـل إذا اجتمـع يخرجـه إلى مجلـس القـاضي ويحصل ثمنه، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة ، وتقدم باحصاء مافي محال دمشق فـأناف على مـائة مسجد، فـأمر بعمارة ذلـك كله، وعين لـه وقـوفاً. قـال: ولـو اشتغلت بـذكـر وقوفـه وصـدقاتـه في كـل بلد لطـال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمـد، ومشاهدة أبنيته الدالة على خلـوص نيته يغني عـن خبرهـا بـالعيـان، ويكفـي أسـوار البلـدان عـن الـربـط والمدارس علىاختـلاف المذاهب، واختلاف المواهـب وفي شرح طوله طـول، وعمله لله مبرور مقبول.

وواظـب على عقد مجالـس الـوعـاظ،ونصب الكـراسي لهم في القلعـة لـلانـذار والاتعـاظ، وأكبرهـم الفقيـه قطب الـديـن النيسـابـوري، وهـو مشغوف ببركـة أنفاسـه، واغتنام كـلامه واقتبـاسه، ووفـد من بغـداد ابن الشيـخ أبي النجيب الأكبر، فبسـط له في كـل أسبوع منبر وشـاقه وعظـه، وراقه معناه ولفظه، وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شورووه (٢٠) وما أيمن تلك الايام وأبرك تلك الشتوه.

وقال: ولما اسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذورة، عزل الشحن، وصرف عـن الرعية بصرفهم المحـن، وقال للقاضي كمال الـدين ابن الشهر زوري: انظر أنت ذلـك واحمل أمور الناس فيها على الشريعة، قال: ولم يكن لمال المواريـث الحشرية حاصل، ولا لديوانـه طائل، فجعل نور الديـن ثلث ما يحصل فيه لكمال الـدين الحاكم، فوفره نـوّابه وكثروه، وما كان نور الدين يحاسب القـاضي على شيء من الوقوف، ويقول أنا قد

قلدتـه على ان يتصرف بالمعروف، وما فضـل من مصارفهـا وشروط واقفها يأمـره بصرفه في بناء الأسـوار، وحفظ الثغور. وكانـت دولته نافـذة الأوامر، منتظمة الأمور.

قلت : وحكى الشيـخ أبو البركات الحسن بـن محمد بن هبة اللـه أنه حضر مع عمـه الحافظ أبي القـاسم، رحمه الله، مجلـس نور الـدين لسماع شيء من الحديث. فمـرّ في أثناء الحديث أن النبي صلى اللـه عليه وسلم خرج متقلـداً سيفاً فـاستفاد نـور الدين أمـراً لم يكن يعـرفه، وقـال: كان رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم يتقلـد السيف، يشير إلى التعجـب من عادة الجنـد، إذ هم على خلاف ذلـك لأنهم ير بطونـه بأوساطهـم، قال: فلما كان مـن الغد مـررنا تحت القلعـة والناس مجتمعـون ينتظرون ركـوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه معهم ، فخـرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلـد للسيف، وجميـع عسكره كـذلك، فـرحمة الله على هـذا الملك الذي لم يفرط في الاقتـداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بمثـل هذه الحالة، لما بلغته رجـع بنفسه، ورد جنـده عن عوائدهـم اتباعـا لما بلغه عـن نبيه صلى الله عليـه وسلم، فما الظن بغير ذلـك من السنن، ولقد بلغنـي أنه أمر باسقـاط ألقابه في الدعاء له على المنـابر، ورأى له وزيره موفـق الدين خالـد بن القيسراني الشاعر في منـامه أنه يغسـل ثيابه، وقص ذلـك عليه ففكر ساعـة ثم أمره بكتابـة اسقاط المكوس، وقال: هـذا تفسير منامك، وكـان في تهجـده يقـول: ارحـم العشار المكـاس، وبعـد أن أبطـل ذلـك استجعل من الناس في حـل، وقال: والله ماأخرجناهـا إلاّ في جهاد عدوّ الاسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم.

وعلى الجملـة كان نـور الديـن رحمه الله فـرداً في زمانـه من بين سـائر الملوك، ولـو لم يكن إلا استماعه للمـوعظة وانقيـاده لها وان اشتملت على ألفاظ، قد أغلظ له فيها.

قرأت في تاريخ إربل لشرف الدين بن المستوفي رحمه الله، قال: المنتجب الواعظ، هو أبو عثمان المنتجب بن أبي محمد بن البحتري الواسطي ورد إربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم، وسافر إلى نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر إلى الشام لسبب الغزاة، وأنفذ له نور الدين جملة من مال فلم يقبلها، ثم ردها عليه، أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدة عملها في نور الدين وحلف أنه سمعها من لفظه:

مثل وقوفك أيها المغرور
يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلما
فاحذر بأن تبقى وما لك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت من
كأس المظالم طافح مخمور
عطلت كاسات المدام تعففا
وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى
فردا وجاءك منكر ونكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في
يوم الحساب مسحب مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في
ضيق اللحود موسد مقبور
ووددت أنك ما وليت ولاية
يوماً ولا قال الانام أمير
وبقيت بعد العز رهن حفيرة
في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عريانا حزينا باكيا
قلقا وما لك في الانام مجير

أرضيـــــــت أن تحيـــــــــى وقلبـــــــك دارس
عـــــا في الخراب وجسمـــــــك المعمــــــــور
أرضيــــــت أن يحظـــــى ســـــواك بقــــربـــــه
أبـــــــداً وأنـــــــت مبعــــــــد مهجــــــور
مهــــــد لنفســــــك حجـــــة تنجـــــو بها
يـــــوم المعــــاد لعلــــك المعــــذور (٢١)

قلت: ولعل هذه الابيات من أقوى الأسباب المحركة للسلطان في إبطال المظالم، والخلاص من تلك المآثم رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه،ووفق من رام الاقتداء به.

ونقلت من خط الصاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد ابن هبة الله بن أبي جرادة في كتاب تاريخ حلب الذي صنفه، وسمعت من لفظه أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب، فلما حاصر أبوه قلعة جعبر وقتل عليها قصد حلب وصعد قلعتها وملكها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وأحسن إلى الرعية وثبت العدل ورفع الجور، وأبطل البدع واشتغل بالغزو وفتح قلاعا كثيرة من عمل حلب، كانت بيد الفرنج، وحدّث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له منهم : أبو عبد الله بن رفاعة بن عزيز السعدي المصري.

روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد، وأبي البركات الحسن، وأبي المنصور عبد الرحمن بني أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي.

قال: ووقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر بن صغير القيسراني كتبها إلى نور الدين وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور،فنقلت جميع ما فيهما من خطيهما، قال: وكان رحمه الله كتب رقعة يطلب من ابن القيسراني أن يكتب له صورة ما يدعى له به

على المنابر حتى لايقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب، وعن ما هو مخالف لحاله ونسخة الورقة بخط خالد:

أعلى الله قدر المولى في الدارين،وبلغه أمـاله في نفسه وذريته،وختم له بالخير في العاجلـة والآجلة بمنه وجوده وفضلـه وحمده،وقف المملوك على الرقعـة وتضاعـف دعاؤه وابتهـاله إلى اللـه تعالى بـأن يرضـى عنه، وعـن والديـه وأن يسهل لـه السلوك إلى رضـاه، والقرب منـه والفوز عنـده، إنه على كـل شيء قديـر ،وقد رأى المملـوك ما يعـرضه على العلـم الاشرف، زاده اللـه شرفـاً، وهـو أن يـذكـر الخطيـب على المنبر إذا أراد الـدعـاء للمولى:«اللهم اصلـح عبدك الفقير إلى رحمتك،الخاضع لهيبتـك،المعتصم بقوتك، المجاهـد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القـاسم محمود بن زنكي بـن آق سنقر، ناصر أمير المؤمنين» فان هـذا جميعه لايدخلـه كذب ولازيادة،والـرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعـالى. فكتب نور الـدين على رأس الرقعـة بخطه ما هذا صـورته:مقصودي أن لايكـذب على المنبر أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بما لاأعمل قلـة عقل عظيم. الذي كتب جيد أكتب به نسـخ حتى نسيره إلى جميع البلاد،وكتـب في آخر الرقعة ثـم يبدأ بالـدعاء: اللهم أره الحق، اللهم أسعـده، اللهم أنصره، اللهم وفقـه، من هذا الجنس

قال: وحدثني والدي قـال: استدعانا نور الدين أنا وعمـك أبو غانـم، وشرف الـدين بـن أبي عصرون إلى الميـدان الأول،وأشهدنـا عليـه بوقـف حوانيت على سور حمص،فلما شهـدنا عليه التفت إلينا وقال:بـالّله انظروا أي شيء عملتموه من أبواب البر والخير دلونـا عليه، وأشركونا في الثواب، فقال شرف الـدين بـن أبي عصرون: والله ما تـرك المولى شيئا مـن أبواب البر إلاّ وقد فعله،ولم يترك لأحد من بعده فعل خير إلاّ وقد سبقه إليه.

وقال:قـال لي والدي:دخل في أيـام نور الديـن إلى حلب تاجـر موسر

فمات بها وخلف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً، فكتب بعض من بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات ها هنا رجل تاجر موسر وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين، وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغير يرضى منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة، فكتب على رقعته: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعنه الله(٢٢).

قال: وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضا، وحدثني الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذبخت النوري قال: سمعت الطواشي شاذبخت الخادم يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسنقرجا واقفين على رأس نور الدين، وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً، وجعل ينكت بأصبعه في الأرض،فتعجبنا من فكره وقلنا: ترى في أي شيء يفكر في عائلته أو في وفاء دينه، فكأنه فطن بنا، فرفع رأسه وقال: ما تقولان؟ فقلنا:ما قلنا شيئا، فقال: بحياتي قولا لي، فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا يفكر في عائلته أو في نفسه، فقال: واللّه إنني أفكر في وال وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك فبالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام لاتريان قصة ترفع إليّ أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وأرفعاها إليّ.

وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال: كان نور الدين ينفذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئا يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه، وكان إذا قدم الموصل لايأكل إلاّ من طعام الشيخ عمر الملاء.

قال: وكان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة

الموصل أن لايعمل شيئا إلاّ بالشرع إذا أمره القاضي به، وأن لايعمل القاضي والنواب كلهم شيئا إلاّ بأمر الشيخ عمر الملاء.

قال: فكان لايعمل بالسياسة، وبطلت الشحنكية في أكابر الدولة، وقالوا لكمشتكين: قد كثر الذعار وأرباب الفساد، ولايجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصلب، فلو كتبت إلى نور الدين وقلت له في ذلك، فقال لهم: أنا لاأكتب إليه في هذا المعنى ولا أجسر على ذلك فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه، فحضروا عنده وذكروا له ذلك، فكتب إلى نور الدين وقال له: إن الذعار والمفسدين وقطاع الطرق قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سياسة فمثل هذا لايجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال انسان في البرية من يجيء يشهد له؟ قال : فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره:إن اللّه تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى. قال: فجمع الشيخ عمر الملاء أهل الموصل وأقرأهم الكتاب، وقال انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وسمعت صقر بن يحيى بن صقر المعدّل يقول: سمعت مقلداً-يعني الدولعي يقول: لما مات الحافظ المرادي وكنا جماعة الفقهاء قسمين : العرب والأكراد، فمنا من مال إلى المذهب، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان بالموصل، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف وأراد أن يستدعي قطب النيسابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدّس ثم عاد إلى بلاد العجم، فوقع بيننا كلام بسبب ذلك، ووقعت فتنة بين الفقهاء، فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجد الدين، يعني ابن الداية عن لسانه، وقال لهم: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من

هذه البلـدة، واظهار الدين، وهـذا الذي جرى بينكم لا يحسـن ولايليق، وقد قال المولى نور الدين: نحن نـرضي الطائفتين، ونستدعي شرف الدين ابـن أبي عصرون، وقطب الـدين النيسـابـوري فاستـدعاهما جميعـا، وولى مدرسة ابن أبي عصرون لشرف الدين، ومدرسة النفري(٢٣) لقطب الدين.

قال: وعلقـت أيضا من خط فقيـه كان معيدا بـالنظامية يقال لـه أبو الفتـح بنجة بـن أبي الحسـن بن بنجـة الاشتري، وكـان ممن ورد دمشـق، وجمع لنـور الديـن سيرة مختصرة قال: كـان نـور الديـن يقعد في الأسبـوع أربعة أيـام أو خمسة أيـام في دار العدل للنظـر في أمور الـرعية، وكشـف الظلامة لايطلب بذلك درهما ولا دينـاراأو زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلـك ابتغاء مرضـاة الله، وطلبا للثواب والـزلفى في الآخرة، ويـأمر بحضور العلماء والفقهاء ويـأمر بازالة الحاجب والبواب حتـى يصل إليه الضعيف والقـوي والفقير والغني، ويكلمهم بـأحسن الكـلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لايطمـع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال، ويحضر في مجلسة العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصـول إلى خصمها، ولا المكـالمة معه فيأمـر بمساواتـه لها، فتغلب خصمها طمعـاً في عدلـه، ويعجز الخصـم عن دفعهـا خوفـا من عـدله، فيظهر الحق عنـده فيجري الله تعـالى على لسانه مـا هو موافـق الشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكـل عليه من الأمور الغـامضة، فلا يجري في مجلسه الا محض الشريعة.

قال: وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالـح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهـم، وأما فكره ففـي اظهار شعار الإسـلام، وتأسيس قـاعدة الديـن من بنـاء المدارس والربـط والمساجـد حتى أن بـلاد الشام كـانت خـاليـة مـن العلـم وأهلـه، وفي زمـانـه صـارت مقـرّا للعلماء والفقهـاء والصوفية، لصرف همته إلى بناء المدارس والربـط، وترتيب أمورهم والناس آمنون على أمـوالهم وأنفسهم، ولـو لم يكن من هـذه الخصال إلاّ مـا علم

منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، وإذا تحدّث بشيء وقف عليه، ولايخالف قوله ولايرجع عن لفظه ومنطقه لكفى، ولايجري في مجلسه الفسق والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجري في مجالس سائر الملوك، ولايطمع في أخذ أموال الناس ولايرضى بأن يأخذ أحد من أموال الشريعة شيئا بغير حق.

قال:وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها،بتمام شرائطها، وأركانها وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة، حكاية عن الكفار أنهم يقولون : ابن القسيم له مع الله سر ، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه، ويعطيه سؤله، وما يردّ يده خائبة، فيظفر علينا ،قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدّسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وخمسين، فقام رجل وادّعى على الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالب بذلك، فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أرد إليك ما يخصني فإني ماورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة، فقلت في نفسي: هذا هو العدل.

قال: وحضر رجل زاهد فيه سمة الخير معروف بالصلاح والسداد، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان، وكان قد أودع عند أخيه أبي

البيان وديعة، وقد توفي فادعى المودع على هـذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبـه بالـردّ عليه، فـانكر هـذا الرجـل علمه بـالوديعـة، فأوجـب عليه القاضي كمال الـدين حكم الشرع أن يحلف أنـه لاعلم له بهذه الـوديعة، فحلـف على ذلك فجعـل المودع يشنـع عايه ويقـول انـه حلـف كاذبـا، ويتكلم في عرضه، ويقول في حقـه من التنمس وغيره، فحضر عند الملك العادل شـاكياً منه وذاكـراً سيرته وطريقتـه، ومن الذي يقـدر أن يقول في حقي هذا، ويتعرّض بالتماسه من الملك العادل التقدّم باحضاره والانكار عليه فيما يقول في حقه، فلما فرغ من الكـلام، ورمى ما كان في جعبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الانكار عليه، فقال الملك العادل: أليـس إن الله تعـالى يقول في كتـابه:(وإذا خـاطبهم الجاهلـون قالوا سـلاما [٢٤])فاذا كـان يجهل عليك ويقـول في حقك بالجهـل مالا يجوز، فيجب عليـك أن لاتعمل معه مثـل معاملتـه فتكون مثله، فكـأنك قابلت الاساءة بـالاساءة، ومن حقك أن تقابل الاسـاءة بالاحسان، فقلت في نفسي: الحق ما قال الملك العادل إما قـرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه أو أجراه الله على لسانه وأنطقه به.

قال: وحضر جماعـة من التجار وشكوا أن القـراطيس كان ستـون منها بدينار فصار سبعة وستون بدينـار، وتزيد وتنقص فيخسرون، فسأل الملك العـادل عن كيفيـة الحال فـذكـروا أن عقد المعـاملـة على اسـم الدينـار، ولايرى الـدينار في الـوسط، وإنما يعـدون القراطيـس بالسعـر تارة ستين بدينـار، وتارة سبعة وستين بـدينار، وأشـار كل واحد مـن الحاضرين على نور الـدين أن يضرب الدينار بـاسمه، وتكون المعـاملة بالدنـانير الملكية، وتبطـل القراطيـس بالكليـة، فسكت سـاعـة وقال: إذا ضربـت الدينـار وابطلت المعاملـة بالقراطيس فكأني خـربت بيوت الرعية، فـإن كل واحد من السوقـة عنده عشرة آلاف، وعشرون ألف قرطـاس أي شيء يعمل به، فيكون سبباً لخراب بيته.

◉

قال: فأي شفقة تكون أعظم وأكثر من هذا على الرعية.

قال: وحضر صبي وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف، فسأل عن حاله فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مائة وخمسون قرطاسا، وذكروا سيرته وطريقته وفقره، فرقّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك وباخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح، حتى كأن الانعام كان في حقه.

أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب الهاشمي قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردري قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعى سويداً يحضر الخصوم إلى مجلس الحكم، فحضر بعض التجار وادّعى أن له على نور الدين دعوى، فقال الكردري لسويد المذكور: امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرّفه أنه حضر شخص يطلب حضوره، وكان نور الدين في الميدان فجاء سويد إلى باب الميدان فخرج اسماعيل الخزندار فوجده، فتقدّم سويد إليه وقال: سيرني تاج الدين، يعني القاضي، وذكر أنه حضر تاجروذكر أن له دعوى على المولى نور الدين، وقد أنفذني تاج الدين وقال لي: كذا وكذا، فضحك اسماعيل الخزندار، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئا: يقوم المولى، فقال: إلى أين؟ فقال: حضر سويد غلام تاج الدين الكردري، وقال إن تاج الدين أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على اسماعيل استهزاءه، وقال: تستهزىء بطلبي إلى مجلس الحكم، وقال نور الدين: يحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة، قال اللّه تعالى: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى اللّه ورسوله

ليحكم بينهم أن يقولـوا سمعنا وأطعنا)[٢٥] ثم نهض وركب حتـى دخل باب المدينـة، فاستدعى سـويداً وقال لـه: امض إلى القاضي تاج الـدين وسلم عليه وقـل له: إني جئت إلى ها هنا امتثـالا لأمر الشرع، واحتاج في الحضور إلى مجلسة إلى سلوك هذه الأزقـة وفيها الاطيان وهذا وكيلي يسمع الدعوى، وإن توجهت عليّ يمين أحضر إن شـاء اللّه تعالى، قال: فحضر الوكيـل وسمع الدعـوى، وتوجهت اليمين فقـال الكردري: قد تـوجهت اليمين فليحضر، فلما بلـغ نـور الديـن ذلـك وعلـم أنـه لامندوحـة عـن حضـور مجلسه لليمين، استدعى ذلك التـاجر وأصلـح الأمر فيما بينـه ، وأرضاه.

وسمعت قـاضي القضاة بهاء الـدين يقـول: حكى لي السلطـان الملك الناصر صـلاح الديـن قال: أرسلني الملـك العادل نـور الديـن إلى عمي أسد الدين شيركـوه ، وكان لايفعل شيئا إلاّ بمشورته، فقـال: امض وقل لأسد الـدين: قـد خطر في بـالي أن أبطل هـذه الضمانات بـأسرها والمؤن والمكوس، وخذ رأيه في ذلك، قال:فجئـت إليه وأنهيت ما قال لي، فقال: امض وقل له: يامولانا إذا فعلت ذلـك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات مـن أين تعطيهم، وتحتـاج إليهم للغـزاة، وخروج العساكـر؟ قال السلطـان صلاح الـدين: فقلـت لعمي : هـذا أمـر قد ألهمـه اللّه إيـاه، فساعده عليه فصاح فيّ وقال: امض إليه، وقل له ما أقول لك.

قال: فعدت إلى نور الدين فأنهيت إليـه ما قال عمي، فقال امض إليه وقـل له إذا كنـا نغـزو من هـذه الجهات نتركهـا ونقعـد ولانخرج، قـال: فعدت إلى عمي وقلت مـا قال، فقال : قل له إن تركـوك نقعد فجيد هو، فراجعته في أن لايثبطه عـن ذلك، فصاح فيّ وقال: امض إليه وقـل له ما أقول لـك، فجئت إليـه وقلت له ذلـك، فتركَ ذلك مـدة، ثم أمضـى ما كان عزم عليه.

قال لي صقر بن يحيى: بلغني أن موفق الدين خالداً رأى في النوم كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين فتمعر وجه نور الدين، فخجل موفق الدين وبقي أياما على غاية من الخجل، فاستدعاه يوما نور الدين، وقال: قد آن لك أن تغسل ثيابي أقعد وأكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين إني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، واثبت عليكم ما أثبته الله عليكم، قال: فكتب موفق الدين توقيعا.

سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه يقول: سمعت أبي يقول لما كسر نور الدين، يعني كسرة البقيعة، تكلم البرهان البلخي فقال: اتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور، كلا، وكلاماً مع هذا ، فلما سمعه نور الدين قام ونزع عنه ثيابه تلك وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الأفرنج.

سمعت صديقنا شمس الدين اسماعيل بن سود كين بن عبد الله النوري، وكان أبوه أحد مماليك نور الدين، فاعتقه، يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحا ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل، قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع، ويقول: ارحم العشار المكاس.

قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سير نور الدين إلى بغداد كتابا يعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ أن يستجعلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل مما كان قد وصل إليه، يعني من أموالهم، فتقدم بذلك، وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك.

حدّثني رضي الديـن أبو سالم عبد المنعم بن منـذر أن نور الدين حين خرج لأخـذ شيزر ، خرج أبـو غانم بـن منذر صحبته، فـأمره نور الـدين بكتـابـة منشـور بـاطـلاق المظـالم بحلـب . ودمشـق. وحمص. وحـران. وسنجار. والـرحبة. وعزاز. وتـلّ باشر ، وعداد العـرب، فكتب عنه تـوقيعا نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقـرّب به إلى الّله سبحانـه وتعالى صافحا، وأطلقـه مسامحا لمن علم ضعفه من الـرعايا رعاهم الّله ،لضعفهم عن عمارة مـاأخربته أيدي الكفار أبادهم الّله عند إستيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغـرين، ولطفاً بالضعفاء المرابطين الذيـن خصهم الّله سبحـانـه بفضيلـة الجهـاد، واستمحنهم بمجـاورة أهـل العنـاد اختبـاراً لصبرهـم وإعظـامـا لأجـرهم،فصبروا احتسـابـا، وأجـزل الّلـه لهم أجـرا وثـوابا،(إنما يـوفى الصابـرون أجـرهم بغير حسـاب)[٢٦]وأعاد عليهـم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفـاء الّله عليهم بها من الفتوح العمرية، وأقرّهـا في الدولـة الاسلاميـة، بعد مـا طرأ عليهـا من الظلمـة المتقدّمين، واسترجعه بسيفـه من الكفرة الملاعين، فطمـس عنهم بذلـك معالم الجور، وهدم أركان التعدّي، وأقـرّ الحق مقرة لقوله تعالى:(من جـاء بالحسنة فله عشر أمثالها)[٢٧](والّله يضاعـف لمن يشاء[٢٨]) ثم لما أعـانه الّله بعـونه وأيده بنصره وقمـع به عاديـة الكفر وأظهـر بهمته شعائر الاسـلام وأظفره بالفئة الطاغيـة، وأمكنه من ملوكها الباغيـة، فجعلهم بين قتيل غير مقاد، وهارب ممنـوع الرقـاد ، وآخرين مقـرنين في الاصفاد، هذا عطـاؤنا فـامنن أوأمسك بغير حساب، (وان لـه عندنا لزلفـى وحسن مآب[٢٩]) علم أن الدنيا فانية، فـاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكـه الزائل بأن قدّمه أمامه وجعله ذخراً للمعاد، فـالتقوى مادّة دارة إذا انقطعت المواد، وجادّة واضحة حين يلتبـس الجواد (يوم لاتملك نفس لنفـس شيئا والامر يـومئذ

لله(٣٠)فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه، وحرّمها على متطاول إليها ومتهافت عليها، تجنبا لإثمها،واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه إتباعا لكتاب اللّه، وسنة نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار، جهة ذلك : حلب خمسون ألف دينار، عزاز عن مكس جدّدته الفرنج خذلهم اللّه على المسافرين عشرة آلاف دينار. تلّ باشر أحد وعشرين ألف دينار. المعرّة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة لما استنجد به أهلها واستصرخ من فيها خوفا على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدّو، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمونه الفيئة عشرون ألف دينار، حمص ستة وعشرين ألف دينار. حرّان خمسة آلاف دينار. سنجار ألف . الرحبة عشرة آلاف دينار. عداد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدّق به وأجراه في سبل الخيرات، ووجوه البرّ والصدقات تقدير ثمنه مائتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار، من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرّسيها وفقهائها، وما وقفه على دور الصوفية والربط والجسور، والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار، وما وقفه على السبل في طريق الحجاز، وما وقفه على فكاك الأسرى وتعليم الأيتام ومقرّ الغرباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين، هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرسها اللّه تعالى من أملاكهم التي تقدم ذكرها، فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه، جعل ذلك ذريعة عند اللّه وتقرّباً إليه، مضافا إلى ما أنفقه في الغزاة والجهاد ، واستئصال شأفة أهل الكفر والعناد، من خزائنه المعمورة، وأمواله الموروثة المذخورةطلبا لما عند اللّه (واللّه عنده حسن الثواب)(٣١) فالواجب على كل إمام عدل وسلطان قادر أن يمدّه ويودّه، ويشدّ عضده، ويقوّي عزمه، وينفذ حكمه، وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار.

كتبه خادم دولته، وغـذيّ نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعـم بن رضوان ابن عبـد الواحد بـن محمد بن المنـذر الحلبي، غفر اللّـه له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه مـن أئمة الدين، وفقهاء المسلمين، وأصحاب الزوايا المتعبـدين وكافة التجار والمسـافرين، أحسن اللّه تـوفيقهم، وسدّد إلى أغـراض الخير تـوفيقهم ، ليشعـروا بذلـك مـن حضرهـم من التجـار والمتردّدين إليهـم من السفار، ليعـرفوا قدر ما أنعـم اللّه به عليـهوعليهم ، ولينـذروا قومهـم إذا رجعوا إليهـم، ويمـدّوه بأدعيتهـم، ويبرئوا ذمّته ممـا سبق من أخذ مـؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلاّ في خدمـة وجه برّ، وتجهيز جيش، ومعونة مجاهد، وردع كافر ومعاند، فهم شركاؤه في الثواب.

قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنـذر: فلما وقف نور الدين على قوله: ويبرىء ذمّتـه مما سبـق، استحسـن ذلك كثيراً، ووعـده بـاقطاع حسـن، واتفق موته بعد ذلك(٣٢).

قلـت: ونقلت مـن خـط الشيخ الأمين أبي القـاسـم عبـد الرحمن بـن الحسين بن الخضر بـن الحسين بن عبدان الأزدي الدمشقـي: وقف المولى نـور الديـن بستـان الميـدان سوى الغيضـة التـي مـن قبليه بعـد عمارتـه واصـلاح ما يحتـاج إليه على تطييـب المساجـد التي يـأتى ذكـرها وهـي: جامع دمشق المحروسة، جامع قلعـة دمشق، مدرسة الحنفية التي جدّدها نـور الديـن، مسجـد ابن عطيـة داخـل باب الجابيـة، مسجـد ابن لبيـد بالفسقار، مسجد سوق الرماحين، المسجـد المعلق بسوق الصاغة، مسجد دار البطيـخ المعلق، مسجـد العباسي بسـوق الأحـد، مسجد نـور الديـن بجوار بيعـة اليهود، جـامع الصالحيين بجبـل قاسيون، يبتـاع بذلـك عود وطيب، ويفـرّق على هذه الأماكـن: النصف للجـامع بدمشـق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً: جزآن للمـدرسة، وتسعة أجزاء للتسعة المساجد الباقية لكل مسجد جزءاً واحداً،تطيب هذه الأماكن في الأوقات

الشريفة، ومواسـم الاجتماعات وليالي شهر رمضان والأعيـاد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

ونقلـت من خطـه أيضا أن نـور الـدين رحمه اللّـه حضر عنده بقلعـة دمشـق يـوم الخميـس تـاسـع عشر صفـر سنـة أربـع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بـن محمد بن يحيى القرشي والفقهاء : الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عـز الدين أبو البركات بن عبد، والإمـام عز الديـن أبو القاسـم علي بن الماسح الشـافعيون، وشرف الدين أبو القـاسـم عبد الوهاب بن عيسـى المالكي، وشرف الإسلام نجم الدين عبد الوهاب الحنبلي، ورضي الدين أبـو غالـب عبد المنعم بن محمد ابن أسد التميمي، رئيس دمشق، ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء متولي الوزارة بدمشق، والأعيان مـن شهود العدالة بدمشق، وهـم : عبد الصمـد بن تميـم، وعبد الـواحد بـن هلال، والصـائن أبو الحسـن، وغيرهـم فسـألهم نور الـديـن عـن المضـاف إلى أوقاف المسجـد الجامـع بدمشق مـن المصالح التي ليسـت وقفاً عليه، وأن يظهر كّـل واحد منهم ما يعلمـه من ذلك ليعمل بـه،ويقع الاعتماد عليه، وقـال لهم: ليس يجوز لأحد منكـم أن يعلم من ذلـك شيئا إلا ويذكره، ولاينكـر شيئا مما يقـوله غيره إلا وينكره، والساكـت منكم مصدّق للناطق، ومصوّب لقـوله،وليس العمل إلاّ على مـا تتفقون عليـه، وتشهدون به، وعلى هـذا كان الصحـابة رضوان الله عليهـم يجتمعون ويتشاورون في مصالـح المسلمين، فكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعـا له بالبقاء، ثم أمر نور الديـن متولي أوقـاف الجامع والمسـاجد والبيمارستـان وقني السبيـل، وما يجري مـع ذلك أن يقـرأ عليـه بمحضر من المذكـوريـن ضريبة الأوقـاف مـوضعا مـوضعاً ليفـرد ما يعلمـون أنـه للمصالـح دون الوقـف، فافتتـح بالسـوق المستجدّ تحت المأذنـة الغربية بجـوار البيمارستان، فقـال الصائن وابن تميـم وابن هلال: هـذا السوق بكمالـه لمصالح المسلمين، وليـس من

وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامع من أجوره أو في مما غرم على عمارته من وقفه، فصدّقهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة، ثم عين للمصالح أيضا ما في زيادة الجامع القبلية، وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشامي من العضائد والحوانيت والحجر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع، والفرن المستجدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت الخواصين في الصف الغربي، واثنا عشر حانوتا متلاصقات في الصف الشرقي تعرف بالمعتصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدّة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي،وعدتها ثلاثة عشر حانوتا ومصطبة، وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي ملصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفقاعي، وحوانيت اللبادين والتي بحضرة الفوارة وتحت اللبادين، وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين، وحانوت بقنطرة الشماعين في الصف الشامي بحضرة البياطرة، وقطعة بجوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد، وهي خمس عشرة عضادة وستة أسهم من طاحونة السقيفة، وذلك كله بعضه ميراث عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشتري بمال الوقف والمصالح، وبعضه أخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم، ولم يكن له مال، وبعضه أحدث في الطريق.

قال: فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر، وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح، قال نور الدين: إن أهم المصالح سدّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق، والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم، فصوّبوا ما أشار اليه وشكروه، ثم سألهم عن فواضل الاوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين،

فأفتى شرف الدين عبد الوهاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روّى في مهلة النظر، وقال الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون الشافعي: لايجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين لجهة إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدّ من ذلك فليس طريقة إلا أن يقترضه من إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح، ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الائمة الحاضرون معه على ذلك، ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق، وعلى بناء الكلاسة من شام الجامع ، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع ، وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجامع وسائر العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا، وهل كان إلاّ مبلغا للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولاشيء منه إلا باذني وأنا أمرت به وبفتح المشهدين من غربي الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين، وكتب مبلغا عني ومؤديا أمري.

قلت:وقد رأيت المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس وهو مشتمل على فوائد حسنة، وتأكيد لما نقل من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشرع، وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين، وصورة ما كتبه المالكي المفتي:«حضرت المجلس المذكور، عمره الله وزينه بالعدل أبداً ما عاش صاحبه، وشهدت على ماتضمنه من المشورة المباركة، ومانسب إلى الجماعة من الشهادة بالمواضع المشهورة كما نسب إليهم وقد أخل بذكر دار الحجارة، وقد ذكروها في المصالح المشهورة، ومانسب إليّ من الفتوى، فقد كنت قيدته بالحاجة وفراغ بيت المال أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهماتهم الدينية. كتبه عبد الوهاب بن عيسى بن محمد المالكي».

فصل

وقد مدح نور الدين رحمه الله تعالى بأشعار كثيرة، وأوصافه فوق ما مدح به، وكان في أوّل دولته شاعرا زمانهما أبو عبد اللّه محمد بن نصر بن صغير، وأبو الحسن أحمد بن منير، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملة منها في مواضعها وقد رأيت أن أقدم منها شيئا هنا.

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني: كتبت إلى نور الدين سلام اللّه وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وريحانه، على من عصم بعزه العواصم، وخصم بحجته الدهر المخاصم، وألجم بهيبته العائب والواصم، الذي انتضى في سبيل اللّه سيوف الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد، واهتدى إلى طاعة اللّه وليس غير اللّه من هاد، ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطاً لمملكته، ومعاقل الكفار في عقال ملكته، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصر، وممالك الإسلام متوجة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأزمة القهر، ومن رأى الحكم دارسة ، فبنى مدارسها، والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها، ومن عمر ربع السنن بعدما عفا، وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا، ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيام العدل، ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ الناس به من الزمان توقيع الأمان:

ذو الجهاد من عدوّ ونفس ... فهو طول الحياة في هيجاء

فهو المالك الذي ألزم الناس ... سلوك المحجة البيضاء

قد فضحت الملوك بالعدل لما ... سرت في الناس سيرة الخلفاء

قاسما ما ملكت في الناس حتى ... لقسمت التقى على الاتقياء

شيم الصالحين في جتر الترك
وكم من سكينة في قباء
أنت حيناً تقاس بالاسد الورد
وحيناً تعد من الأولياء
صاغك الله من صميم المعالي
حيث لانسبة سوى الالاء
وكان القباء منك لما ضمّ
من الطهر مسجد بقباء
أنت إلا تكن نبياً فما فاتك
إلاّ خلائق الأنبياء
رأفة في شهامة وعفاف
في اقتدار وسطوة في حياء
وجمال ممنطق بجلال
وكمال متوّج ببهاء
وإذا ما الملوك خافت سهام الذ
ذم زرّت عليك درع الثناء
اعجب الناس منك إنك في الحر
ب شهاب الكتيبة الشهباء
وكان السيوف من عزمك الما
ضي أفادت ما عندها من مضاء
ولعمري لو استطاع فداك ال
قوم بالامهات والآباء (٣٣)

وله فيه شعر
للّه عزمك أي سيف وغى
طبعت مضاربه على القهر
ما زفت الحرب العوان به
الا انجلت عن معقل بكر

هل وجه نور الدين غير سنى
صدع الدجى عن خجلة البدر

ملك مهابته طليعته
أبداً أمام جيوشه تسري

كم فل كيدهم بصاعقة
شغلت قلوبهم عن الكفر

تركت حصونهم سجونهم
فالقوم قبل الأسر في أسر

عصم العواصم فهي ضاحكة
تجلو الظبى ثغراً على ثغر

فإذا سرايا خيله قفلت
نهضت سرايا الخوف والذعر

ورمى القلاع بمثل جندلها
حتى استكان الصخر بالصخر

يا سائلي عن نهج سيرته
هل غير مفرق هامه الفجر

عال حقيق من تأمله
أن يحيي العمرين بالذكر

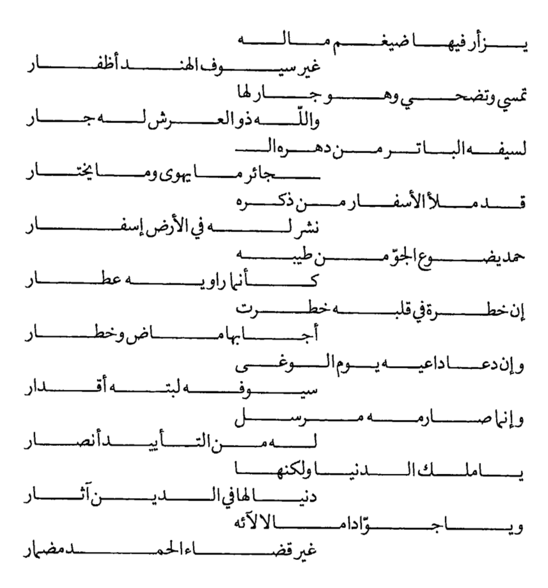
وشهامة في الله خالصة
عقدت عليه تمائم الأجر

وندى يد ما ضرّ واردها
أن لا يبيت مجاور البحر

هذا المخيم في ذرى حلب
وثناؤه أبداً على ظهر

وله فيه وقد وصف داره:

دار تغار الشمس في أفق
من حسنها والشمس مغيار



يزأر فيها ضيغم ماله
غير سيوف الهند أظفار

تمسي وتضحي وهو جار لها
واللّه ذو العرش له جار

لسيفه الباتر من دهره الـ
ـجائر ما يهوى وما يختار

قد ملأ الأسفار من ذكره
نشر له في الأرض إسفار

حمد يضوع الجوّ من طيبه
كأنما راويه عطار

إن خطرة في قلبه خطرت
أجابها ماض وخطار

وإن دعا داعيه يوم الوغى
سيوفه لبته أقدار

وإنما صارمه مرسل
له من التأييد أنصار

يا ملك الدنيا ولكنها
دنيا لها في الدين آثار

ويا جوّادا ما الالآئه
غير قضاء الحمد مضمار

وله فيه أيضا:

تدارك ملة العربي ذبا
إلى أن عده منه معدّ

وحل ذرى العواصم وهي نهبى
فأجلى الشرك حتى ليس ضد

ثنى يده عن الدنيا عفافا
ومال بها عن الأموال زهد

رأى حط المكوس عن الرعايا
فأهدر قبل ما أنشاه بعد
ومد لها رواق العدل شرعا
وقد طوى الرواق ومن يمد
وبات وعند باب العرش منها
لدولته دعاء لا يردّ

وله فيه:

ملك أشبه الملايك فضلا
وشبيه بها الملك الأمر جنده .

عم إحسانه فأصبح يتلى
شكره في الورى ويدرس حمده
فسقى اللّه ذكره أينما حل
ولا فاته من النصر رفده

وله فيه:

ضحكت تباشير الصباح كأنها
قسمات نور الدين خير الناس
المشتري العقبى بأنفس قيمة
والبائع الدنيا بغير مكاس
وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه
إن الدعاء يعد في الحرّاس
راض الخطوب الصم بعد جماحها
وألان من قلب الزمان القاسي
وأعاد نور الحق في مشكاته
وأقام وزن الحق بالقسطاس

واختار مجد الدين سائس ملكه
فحمى السياسة منه طود راسي

فهو الخبير بكل داء معضل
يأسو جراح زماننا ويواسي

وأذل سلطان النفاق بعزة
خضعت لها الأساد في الأخياس

وعرته أقران الخطوب فصدها
ألوى يمارسها أشد مراس

ولو أن فيض النيل فائض نيله
لم تفتقر مصر إلى مقياس

سكنت شعب الدهر بعد تخمط (٣٤)
وألنت من عطفيه بعد شماس

وفتحت باب الحظ بعد رتاجه
وأذنت للأطماع بعد اليأس

حتى منحت الخلق كل مسرّة
فالناس في عرس من الأعراس

وله فيه:

سام الشآم ويا لها من صفقة
لولاه ما عنت على يد سائم

ولشمرت عنها الثغور وأصبحت
فيها العواصم وهي غير عواصم

تلك التي جمحت على من راضها
ودعوت فانقادت بغير شكائم

وإذا سعادتك اجتبت في دولة
قام الزمان لها مقام الخادم

حصن بلادك هيبة لا رهبة
فالدرع من عدد الشجاع الحازم

هيهات يطمع في محلك طامع
طال البناء على يمين الهادم

كلفت همتك السموّ فحلقت
فكأنها هي دعوة في ظالم

وأظن أنّ الناس لما لم يروا
عدلا كعدلك ارجفوا بالقائم

وله فيه:

قلت بقول اللّه لاخائفا
مع حكم القرآن حكم القران

لاراقب النجم ولا سائلا
ما فعل السعدان والنيران

بل غرت للاسلام حتى لقد
دان له من بالطواغيت دان

رعت نواميس نواقيسها
بحلبة الآذان وقت الأذان

تمحو تصاوير الدمى عن يد
تبني المحاريب خلال المجان

هذا وكم أنشأت من منبر
فارسه فارس سحر البيان

من نال بالاخلاص ما نلته
كان من اللّه مكين المكان

ياشائها بالشام صوب الحيا
ودانيا من كل قاص ودان

هذي سجوف الملك مرفوعة
عن ملك أخباره كالعيان

أوضح سبل العدل مفتنة
فللبرايا بالدعاء افتتان

ألغى حقوقاً كلها باطل
إلى مآل حط مال الضمان
عطفاً ورفقاً بالرعايا وإن
أصبح تأديب ملوك الزمان
كم بين من نام على نشوة
وساهر في صهوة من حصان
في كل يوم يبتني سيفه
ببلدة بكر وأخرى عوان

وقرأت في ديوان أحمد بن منير الطرابلسي من قصائد يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى:

يا محيي العدل ويا منشره
من بين أطباق البلى وقد همد
وركن الاسلام الذي وطده
طال وأرسى العز فيه ووطد
وشارع المعروف إذ لا سفه
يجنح للقول ولا تسمح يد
محوت ما أثبته الجور مضى
عليه إخلاد الليال مخلد
من كل مكاس يظل قاعدا
لما يسوء المسلمين بالرصد
كانت لأرجاس اليهود دولة
أزالها منك الهصور ذو اللبد
الملك العادل لفظ طابق الـ
ـمعنى وفي الوصف معار مسترد
خير النعوت ما جرى الوصف على
صفحته جري النسيم في الومد

عــــدل جنيــــت اليــــوم حلــــو ريعــــه
وســــوف يجنــــى لــــك أحلى منــــه غــــد

لازال لــــلاســــلام منــــك عــــدة
تقيــــم منــــه كــــل زيــــغ وأود

النــــاس أنــــت والملــــوك، شرط
تعــــدّليثــــا ويعــــدّون نقــــد

مثلــــك لايسخــــو بــــه زمــــانــــه
ومثــــل مــــا أوتيــــت لم يــــؤت أحــــد

وله فيه

أيــــا نــــور ديــــن خبــــا نــــوره
ومــــذ شــــاع عــــدلــــك فيــــه اتقــــد

رآك الصليــــب صليــــب القنــــاة
أمين العثــــار متين العمــــد

تهمّ فتسلبــــه مــــا اقتنــــى
وتــــدنى(٣٥) فتثكلــــه مــــا احتشــــد

زبنتهــــم أمــــس عــــن صرخــــد
ففضــــوا كــــأن نعــــامــــا شرد

ويــــوم العــــريمــــة أقبلتهــــم
عــــرامــــا يثعلــــب منــــه الأســــد

جنبــــت مليكهــــم في الصفــــاد
وعفــــوك عنــــه أعــــم الصفــــد

وقبــــل أزرتهم في الــــرهــــا
مــــوازق مــــزقــــن جــــرد الجرد

بقيــــت تــــرقــــع خــــرق الــــزمــــا
ن قيــــامــــا لابنــــائه إن قعــــد

تثقــــف مــــن زيغــــه مــــا التــــوى
وتصلــــح مــــن طبعــــه مــــا فســــد

وله فيه:

أيـــا ملـــك الـــدنيـــا الحلاحـــل والـــذي
لـــــه الأرض دار والبريــــــة أعبـــــــد
وليســـــت بـــدعـــوى لا يقـــوم دليلهـــا
ولكنــــه الحق الــــذي ليـــس يجحـــد
أخـــو الغـــزوات كـــالعقـــود تنـــاسقـــت
تحل بــــأجيـــــاد الجيـــــاد وتعقـــــد
لســـان بـــذكـــر اللّـــه يكســـو نهاره
بهاء وجفـــن في الـــدجـــى ليـــس يـــرقـــد
وبـــذل وعـــدل أغـــرقـــا وتـــألقـــا
فـــلا الـــورد مثمـــود ولا البـــاب مـــوصـــد
مـــرام سمائي وحـــــزم مســـدّد
ورأي شهـــابيّ وعــــزم مـــؤيـــد

وله فيه:

أبـــدا تنكـــب عـــن ضـــلال ســـادرا
بثقـــوب زنـــدك أو تـــدل على هـــدى
ســـدت الكهـــول مـــن الملـــوك مـــراهقـــا
وشـــأوت شيبهـــم البـــوازل أمـــرد
إن شيـــدوا صرحـــا أنـــاف منـــاره
أو يسجـــدوا للكـــاس جـــدّد مسجـــدا
وإذا استهـــزتهم فـــلا يـــد معبـــد
هـــزتـــه مـــوعظـــة فعـــرّف معبـــدا
قسما بشـــام الشـــام منـــك مهنـــدا
أرضـــاه مشهـــورا وراع مقلـــدا
وتمســـك الاســـلام منـــك بعـــروة
اللّـــه أبـــرم حبلهـــا فـــاستحصـــدا

أشفـــى فكنــت شفــاءه مــن حــادث
غــاداه عــارضــه مــردى بــالــردا
كنــت الصبــاح لليلــه لما دجـــى
والغــوث كــف لظــاه حين تــوقــدا
للــــه يــــوم أطلعتــك بـــه النــوى
يجتــاب مــن مهــج الأصــافــر مجسـدا
نشـــوان غنتــك الظبــى مفلـــولــة
وأمـــال عطفــك الــوشيــج مقصـــدا
في معـــرك مــا قــام بــأســك دونــه
إلا أقـــــام المشركين وأقعـــــد
ولكــــم مكـــرّ قمــــت فيـــه معلما
أرضـــــى إلهك وا لمسيـــــح وأحمدا
يـــوم العـــريمــة والخطيــم وحــارم وشــ
ــعاب بــاســوطــاوهــاب وصرخـــدا
لا يعـــــدم الاشراك جــــدّك أنــــه
مـــا ســلّ فيهــم حــاكما إلا اعتــدى
أهمدتهم مـــن بعـــد مــــا مـــلأوا الملا
زجــلا فهــل كــانــت سيــوفــك مــرقــدا

طلعـــت نجـــوم الحق مـــن آفـــاقهـــا
وأعـــادهـــا كـــرّ العصـــور كما بـــدا
وهــــوى الصليـــب وحــــربـــه وتبختر الا
ســـلام مـــن بعـــد التـــأفــف أغيـــدا
سبـــــق المجلي للخطــــي فـــرفعـــه
نســـق فتــم وقـــد رفعــت بــالابتـــدا

وله فيه:

محمـــــودا المربـــــى على اســـــلافـــه
إن زاد في حســـب الحسيــــب نجـــار

تقفو طريق الصالحين مسابقا
لهم وتطلع خلفك الأبرار

نفس السيادة زهد مثلك في الذي
فيه تفانت يعرب ونزار

ومتى ادّعى ما تدعيه محكم
أوهى معاقد دينه دينار

للّه ما ظفرت به منك المنى
وتكنفت من ركنك الاستار

وسقى الغمام ثرى أبيك فانه
أزكى ثرى قطرت عليه قطار

شهدت نضارة عودك الغض الجنى
أن الذي استخلصت منه نضار

أما نهارك فهو ليل مجاهد
والليل من طول القيام نهار

فلذلك النصر العزيز أدلة
أنى اتجهت وللفتوح أمار

وله أيضا فيه رحمه الله تعالى:

رأينا الملوك وقد ساجلو
ك تمنوا منونا وغرّوا غرورا

أبى لك أن يدركوه أب
يزير فينسي الأسود الزئيرا

وجد إذا جدّ يوم الرها
ن أبقى لتاليه جدّاً عثورا

تصب عصاك على من عصاك
يوما عبوسا بها قمطريرا

لقد ألبس الشام هذا الإباء
لبوسا من الامن لينا وثيرا

تـــــدارکـــــت أرمـــــاقـــــه والقلـــــو
ب نـــــوافـــــر أن يستجـــــنّ الصـــــدورا
أقمـــت جثـــاثـــا (٣٧) وكـــانـــت جثـــا
وشـــدّت قصـــورا وكـــانـــت قبـــورا
وكـــم لـــك مـــن غضبـــة للهـــدى
تميـــت الهوى وتجب الـــذكـــورا
إذا قطـــب اليـــأس كـــانـــت ردى
وإن ضحـــك العفـــو عـــادت نشـــورا
كملـــت فـــوقيـــت عين الكمال
تبيـــد السنين وتفنـــي العصـــورا
وجـــاد لنـــا بـــك رب بـــرا
ك للكفـــر نـــارا وللـــديـــن نـــورا
إذا مـــا خـــدمـــت فمـــولى كـــريما
وأمـــا عبـــدت فعبـــداً شكـــورا
امـــام المحـــاريـــب بـــرّا حصـــورا
وتحت الحروب هـــزبـــرا هصـــورا
تبـــارك مـــن شـــاد هـــذي الخلال
في ظلـــه الملـــك طـــودا وقـــورا
وألـــف في معقـــد التـــاج منـــ
ـــك سطـــواً سعيراً وعفـــوا نميرا

وله فيه:
عقـــل الحق ألســـن المدعينـــا
أنـــت خير الملـــوك دنيـــا ودينـــا
وأســـد الانـــام قـــولا وأفعـــا
لاً ونفســـاً ونيـــة ويقينـــا
أنـــت أسنـــاهـــم أبـــا وإبـــاء
وأمـــرأحيـــا وأمـــرع حينـــا

بسط الرزق في البسيطة كفاك
فكلتا يديك تلفى يمينا

فيد تحسم النوائب عنا
ويد تقسم الرغائب فينا

أيها البحر لو تساجلك الأبحر
عامت في ساحليك سفينا

ولكان المحيط منها محاطا
مثل نون الهجاء أو خيل نونا

مشرعا مترعا ومنا مهنا
ورباعا فيحا وكفا البونا

ومحيا طلقا ومالا طليقا
وابتهاجا قصداً وحبلا متينا

بين ذب يميت عادية الشر
ك وهب يحيى به المسلمونا

تتسنى من الفتوح ألوفا
أنت أعلى من أن تعدّ المئينا

كلما اجتبت ثوب نصر عزيز
من مرام أقبلت فتحا مبينا

صرف اللّه عنك صرف الزمان
أنت علمت صرفه أن يهونا

يابن من طبق البسيطة آثا
راً وعلّ لمنا بذيه الاجونا(٣٨)

وغدت حصنه على شرح هذا الـد
ين من شكة الأعادي حصونا

كم تعالى صهيلها في ربى الشا
م فأعلى خلف الخليج الرنينا

كان صنو الرشيد أبقاك للحكـ
ـمة والبأس بعده المأمونا

سمـــع اللـــه فيـــك دعـــوة سكـــن
أوطنـــوا مـــن حماك حصنـــا حصينـــا
غـــرّقتهـــم مـــدى الخطـــوب فـــأحييـــ
ـــت رفـــاتـــا مـــن التراب دفينـــا
البســـوا عـــدلـــك المديـــح فـــاختـــا
لـــوا بنـــات في وشيـــه وبنينـــا
سهـــرت عينـــك الكلـــؤ ونـــامـــوا
تحت أكنـــاف رعيهـــا آمنينـــا

قلت:فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه مع أنهما ماتا في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة قبل أن يفتح نـور الدين دمشق، وبقي نـور الدين حياً بعدهما إحـدى وعشرين سنـة يترقى كـل عام في إزديـاد من جهـاد واجتهاد، ولو كـانا أدركا ذلك لأتيا في وصفه بعجـائب المدائح ، مع أنه قد تولى ذلـك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما. ولأبى المجـد المسلم بن الخضر ابن قسيم الحموي من قصيدة فيه:

تبـــدو الشجـــاعـــة مـــن طـــلاقـــة وجهـــه
كـــالـــرمـــح دل على القســـاوة لينـــه
ووراء يقظتـــــــه أنـــــــاة مجرّب
للّـــه سطـــوة بـــأســـه وسكـــونـــه
هـــذا الـــذي في اللـــه صـــح جهـــاده
هـــذا الـــذي بـــاللّـــه صـــح يقينـــه
هـــذا الـــذي بخـــل الـــزمـــان بمثلـــه
وا لمشمخـــر إلى العلى عـــرنينـــه
ملـــك الـــورى ملـــك أغـــرّ متـــوّج
لا غـــدره يخشـــى ولا تلـــوينـــه
إن حـــلّ فـــالشرف التليـــد أنيســـه
أو ســـار فـــالظفـــر الطـــريـــف قـــرينـــه
فـــالـــدهـــر خـــاذل مـــن أراد عنـــاده
أبـــدا وجبـــار السماء معينـــه

ملـــك إذا تليــت مــآثــــر قــومــــه
كســـــد اللطيـــم وهجـــن النـــــوار

مــــلأ الفـــرنجــة جـــور سيفـــك فيهـــم
فلهـــم على سيـــف المحيـــط جـــوار

يـــومـــا يـــزيـــرك جـــوف عـــرقـــة معلما
جـــوف لـــه خلـــف الـــدروب أوار

وتجر في الأردن فضلــــــــــة ذيلــــــــه
نقـــع بـــأكنـــاف الأرنـــط مثـــار

إمـــاتبيـــح حـــريـــم أنطـــاكيـــة
أو يفجـــأ الـــداروم منـــك دمـــار

عفـــى جهـــادك رســـم كـــل مخوفـــة
وصفـــت بصفـــوة عـــدلـــك الاكـــدار

ومحا المظـــالم منـــك نظـــرة راحـــم
للّـــــه في خطـــــراتـــــه أسرار

غضبـــان لـــلاســـلام مـــال عمـــوده
فلنـــوره ممـــا عـــراه نـــوار

وجـــذمـــت كـــل يـــد تســـور على يـــد
فـــاحلـــت ذاك الســـور وهـــو ســـوار

لم يبـــق مـــاكـــس مسلـــم شلقـــا[٣٦] ولا
ســـاع لمظلمـــــة ولا عشـــــار

همدوا كما همدت ثمـــود وقـــادهـــم
بخســـارهـــم ممـــا أتـــوه قـــذار

العـــار في الـــدنيـــا شقـــوا بلبـــاســـه
ولبـــاسهـــم يـــوم الحســـاب النـــار

كـــم سيرة أحييتهـــا عمـــريـــة
رفعـــت لها في الخافقين منـــار

ونـــوافـــل صيرتهنّ لـــوازمـــا
بـــأقلهـــا تستعبـــد الأحـــرار

والـــــديـــــن يشهـــــد أنـــــه لمعـــزه
والشرك يعلـــــم أنـــــه لمهينـــــه
مـــازال يقســـم أن يبـــدّد شملـــه
واللّـــه يكـــره أن تمين يمينـــه
فتـــح الـــرهـــا بـــالأمـــس فـــانفتحـــت لـــه
أبـــواب ملـــك لا يـــزال مصـــونـــه

وممادح نور الـدين رحمه الله كثيرة، وذكر الحافـظ أبو القاسم أنـه كان قليـل الابتهـاج بـالشعـر، ومات حـادي عشر شـوّال سنـة تسـع وستين وخمسمائة، ودفـن بقلعـة دمشــق، ثـم نقـل إلى قبتـه بمــدرستـه بجـوار الخواصين.

قلـت :وقد جـرّب استجابـة الدعـاء عنـد قبره، وهذا ذكـر طرف مـن مناقبـه جملة ، ونحن بعد ذلـك نأتي بأخبـاره وأخبار سلفه مفصلة مـرتبة وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار إن شاء اللّه تعالى

فصل

أصل البيـت الأتابكـي هو قسيـم الدولـة آق سنقر جـدّ نور الـدين، فنذكره وما تـم في أيامه، ثم نذكر ولـده زنكي وما تم في أيامه، ثـم نذكر ولده محمود بن زنكي، ثم نذكر ما بعـده، وهي الدولةالصلاحية الايوبية، وما تم في أيامها فنقول:

كان آق سنقـر تركيا مـن أصحاب السلطان ركـن الدين ملكشـاه بن ألـب أرسلان ، وهـو عـم دقاق بـن تتـش بن ألـب أرسـلان الذي كـان سلطـان دمشق، وقبره بقبـة الطواويـس بها، بنتـه والمشهد والـدته، وكـان السلطان ملكشاه من جملة الملوك السلجوقية المتغلبين على البلاد بعد بني بويـه بالعراق، فكان قسيـم الدولة من أصحـابه وأترابه وممـن ربي معه في

صغره، واستمرّ في صحبته إلى حين كبره،فلما أفضت السلطنة بعد أبيه إليه جعله من أعيان أمرائه، وأخص أوليائه، واعتمد عليه في مهماته، وزاد قدره علوّاً إلى أن صار يتقيه مثل نظام الملك الوزير، مع تحكمه على السلطان، وتمكنه من المملكة، فأشار نظام الملك على السلطان أن يولي آق سنقر مدينة حلب وأعمالها، وأراد بذلك أن يبعده عن خدمة السلطان، ويتخذ عنده يداً بذلك.

قال ابن الاثير: ومن الدليل على علوّ مرتبته، تلقبه قسيم الدولة، وكانت الألقاب حينئذ مصونة لاتعطى إلا لمستحقيها. وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة سير السلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة بن جهير، وكان زوج ابنة نظام الملك إلى الموصل، وسير معه جيشاً عظيماً، وجعل المقدّم على الجيش قسيم الدولة آق سنقر فسار نحو الموصل، ولقيهم في الطريق الأمير أرتق التركماني جدّ ملوك الحصن وماردين فإستصحبوه معهم، فحصروا الموصل ، وحاربوا من بها وتسلموها، وسار صاحبها إلى السلطان فردّها عليه وكانت يومئذ لأحد أمراء بني عقيل، وهو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي، وكان ملكه من السندية بالعراق على نهر عيسى إلى منبج وما بينهما من البلاد الفراتية: كهيت والأنبار وغيرها، وملك الموصل وديار بكر والجزيرة بأسرها، وملك مدينة حلب، وكان عادلاً حسن السيرة، عظيم السياسة واتفق ان وقع بينه وبين صاحب أنطاكية خلاف، وذلك أن أنطاكية كان الروم قد استولوا عليها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ولم يزالوا بها إلى هذه السنة، ففتحها سليمان بن قتلمش، وهو جدّ الملك غياث الدين كيخسرو، صاحب قونية وغيرها، وكان لشرف الدولة صاحب حلب على صاحب أنطاكية الرومي جزية يأخذها كل سنة، فانقطعت عنه بسبب أخذ سليمان البلاد، فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم وتهدّده، فقال: أنا في طاعتك وهذا الفتح بسعادتك، والخطبة والسكة لك ، ولست بكافر حتى أعطيك ما كنت تأخذه من الروم ،فلج شرف الدولة

في طلب المال، فالتقيا فقتل شرف الدولة وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصرها، وسار إليها من دمشق تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان أخو السلطان ملكشاه، فالتقى عسكر تتش وسليمان، فقتل سليمان وانهزم عسكره، وملك تتش مدينة حلب دون القلعة، فأرسل أهل القلعة إلى ملكشاه ليسلموها إليه، وهو يومئذ بالرها، وكان سبب مسيره إليها أن ابن عطير النميري قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار، وسلمها اليهم فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها، فسار ملكشاه إليها في هذه السنة، فحصرها وفتحها وأقطعها الأمير بزان، فلما أتاه رسل أهل القلعة بحلب بالتسليم، سار إليهم فلما بلغ مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلب إلى دمشق، ووصل السلطان إلى حلب وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلي وهو ابن عم شرف الدولة ، فسلمها إلى السلطان بعد قتال وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جعبر، وكان قد ملكها في هذه السفرة، من صاحبها جعبر القشيري، وكان شيخاً كبيراً أعمى، فبقيت بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتي، فلما ملك السلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكناني صاحب شيزر، ودخل في طاعته وسلم إليه اللاذقية وفامية وكفر طاب.

ثم إن نظام الملك أشار على السلطان بتسليم قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سنقر، فأقطعه الجميع، وبقيت بيده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة، كما سيأتي، وأقطع السلطان مدينة أنطاكية الأميرياغي سغان، ولما استقر قسيم الدولة في الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده، ثم إن السلطان استدعاه إلى العراق، فقدم إليه في تجمل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعظم محله عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب ، فعاد إليها، فلما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشاً إلى تكريت، فملكها وفي سنة احدى وثمانين قصد قسيم

الـدولة شيـزر فنهبهـا، وعاد إلى حلـب، وفي سنـة ثلاث وثمانين اجتمـع قسيم الدولة وبـزان وحصروا مدينة حمص فملكوها، ومضى ابـن ملاعب إلى مصر، وفي سنـة أربع وثمانين ملـك قسيـم الدولـة حصـن فـامية مـن الشام، وملك الرحبة.

فصل

وفي عاشر رمضان سنـة خمس وثمانين قتل الوزير نظام الـدين أبو علي الحسن بـن علي بن اسحـاق، قتله صبـي ديلمي بعـد الافطار وقـد تفرّق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس، وحمل في محفة لنقرس كان به إلى خيمة الحرم، فلقيه صبـي ديلمي مستغيثاً به فقرّبه منه ليسمـع شكواه فقتلـه، وقتل الصبـي أيضا فعـدمت الـدنيا واحـدها الذي لم تر مثله، وكان تلك الليلة قـد حكى له بعض الصالحين أنه رأى النبـي صلى الّله وسلـم في المنـام ، كـأنه أتـاه وأخـذه مـن محفته فتبعـه، فاستبشر نظـام الديـن بذلك وأظهـر السرور به، وقـال: هذا أبغـي وإياه أطلب ، وكـان قد بلـغ من الـدنيا مبلغـا عظيما لم ينله غيره، وكـان عالما فقيهـا دينـا خيراً متواضعـا عـادلا، يحب أهـل الـدين ويكـرمهـم ويجزل صلاتهم، وكان أقـرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان ينـاظرهم في المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مدّة، وأما صدقـاته ووقوفه فلا حد عليها، ومـدارسه في العالم مشهورة، لم تخل بلد مـن شيء منها حتـى جزيـرة ابن عمـر التي هـي في زاوية مـن الأرض لايؤبـه لها بنى فيهـا مدرسة كبيرة حسنـة، وهي التـي تعرف الآن بمـدرسـة رضي الديـن، وأعمالـه الحسنـة وصنـائعـه الجميلة مـذكـورة في التواريخ لم يسبقه مـن كان قبله ولا أدركه من كان بعـده، وكان من جملة عبـاداته أنـه لم يحدث إلا تـوضأ ولاتـوضـأ إلا صلى ، وكـان يقرأ القـرآن حفظاً ، ويحافـظ على أوقات الصلـوات محافظة لايتقدمـه فيها المتفـرّغون للعبـادة حتى أنـه كـان إذا غفـل المؤذن أمره بـالأذان، واذا سمـع الأذان

أمسك عن كل مـا هو فيه، واشتغل باجابته، ثم بـالصلاة، وكان قد وزر للسلطان عضد الدولة ألب أرسـلان، والدملكشاه قبل أن يلي السلطنة في حياة عمـه السلطان طغـر لبك أوّل الملوك السلجـوقية ببغـداد، فلما توفى طغر لبك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه ألب أرسلان، وقام المقام الذي تعجـز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرّت السلطنة لـه وبقي معه إلى أن توفي، ثم وزر بعـده لولده السلطان ملكشاه إلى أن قتـل، وكان قد تحكـم عليه،إلى حـد لايقدر السلطـان على خلافـه، لكثرة ممـاليكه ومحبـة العساكـر له والأمراء، وميـل العامة والخاصة إليـه، لحسن سيرته وعـدله، وهذا كلام أبي الحسن بن الأثير.

وقرأت في كتـاب المعارف المتـاخرة، ويسمـى عنوان السير لمحمـد بن عبد الملك بن ابراهيم الهمذاني قال: وزر نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بـن اسحـاق الطـوسي للسلطـان ألـب أرسـلان، ولـولـده السلطـان ملكشاه أربعاً وثلاثين سنة، وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وعشرة أشهـر وتسعة عشر يومـا، اغتاله أحد البـاطنية، وقد فـرغ من فطوره، قـال: وقيل إن السلطان ملكشـاه ولف عليـه من قتله لأنـه سئم طـول عمره، ومـات بعده بشهـر وخمسة أيـام، وقد تقـدّم نظام الملـك في الدنيـا التقدم العظيـم، وأفضل على الخلـق الافضال الكثير، وعـم الناس بمعروفه، وبنى المدارس لأصحاب الشافعـي ووقف عليهم الوقوف ،وزاد في الحلم والدين على من تقدّمه مـن الوزراء،ولم يبلغ أحد منهم منزلته في جميع أمـوره، وعبر جيحون فـوقع على العـامل بـأنطاكيـة، بما يصرف على الملاحين، وملـك مـن الغلمان الأتـراك ألـوفـا، وكـان جمهـور العسـاكـر وشجعانهم وفتاكهم من مماليكه.

قلت: وأنشد أبـو سعد السمعاني في ذيل تاريخ بغـداد فقال: أنشدني عمي الإمـام أبو القـاسم أحمد بـن منصور السمعـاني غير مرة مـن لفظه لـلأميرشبل الدولة يعني مقاتل بن عطية بن مقاتل بن عطية البكري:

كـان الـوزيـر نظـام الملـك لـؤلـؤة
ثمينـة صـاغهـا الـرحمن مـن شرف

عـزت ولم تعـرف الأيـام قيمتهـا
فـردّهـا غيرة منـه إلى الصـدف

فصل

عاش السلطان ملكشاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثون يوماً ،ومات في منتصف شوال سنة خمس وثمانين وعمره ثمانية وثلاثون عاماً ونصف العام، وكانت مملكته قد اتسعت اتساعاً عظيماً، وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام، وأطاعه اليمن والحجاز، وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية، وأطاعه صاحب طراز، واسبيجاب وكاشغر وبلا سغون وغيرها من الممالك البعيدة، وملك سمر قند، وجميع ماوراء النهر، ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر به، وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان، وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر الكثير، منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحفر من الآبار، وبنى مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة، وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر مما يلي الكوفة بمكان يعرف بالسبعي، وبنى مثلها بسمرقند أيضا، قيل إنه خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العذيب وبلغ السبعية بقرب الواقصة، وبنى هناك منارة ترك في أثنائها قرون الظبى وحوافر الحمر الوحشية التى اصطادها في طريقه، وبعد موته تنازع ابناه بركياروق ومحمد، ودامت الحروب بينهما نحو إثنتي عشرة سنة إلى أن توفى بركياروق، واستقرّت السلطنة لمحمد، وفي مدّة تلك الحروب ظهرت الفرنج بالساحل، وملكوا انطاكية أوّلا، ثم غيرها من البلاد.

وكان السلطان قد اقطع أخاه تاج الدولة تتش مدينة دمشق وأعمالها وماجاورها، كطبرية والبيت المقدس، فلما توفي ملكشاه طمع تاج الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب وبها قسيم الدولة فصالحه وراسل بوزان صاحب حران، وياغي سغان صاحب أنطاكية فساروا معه نحو الرحبة ونصيبين فأخذهما، وراسل صاحب الموصل إبراهيم بن قريش بن بدران يأمره بالخطبة له وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد فامتنع، فالتقيا فهزم صاحب الموصل وقتل، وأخذت بلاده، وسار إلى ميافارقين، فملكها وسائر ديار بكر، ثم سار إلى أذربيجان، فالتقى هو وابن أخيه بركياروق بن ملكشاه، فانتقل قسيم الدولة وبوزان إلى بركياروق،فرجع تاج الدولة إلى الشام،ورجعا إلى بلادهما بأمر بركياروق ليمنعا تاج الدولة عن البلاد إن قصدها، فجمع تاج الدولة العساكر، وسار عن دمشق نحو حلب فاجتمع قسيم الدولة وبوزان، وأمدّهما السلطان ركن الدين بركياروق بالأمير كربوقا، وهو الذي صار فيها بعد صاحب الموصل، فالتقوا بالقرب من تل السلطان بينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ، فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيراً فقتله تاج الدولة صبراً ودخل بُزان وكربوقا حلب فحصرهما تاج الدولة حتى فتحها، وأخذهما أسيرين، وأرسل إلى حران والرها وكانتا لبزان فامتنع من بهما من التسليم، فقتل بزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين، وأما كربوقا فإنه سجنه بحمص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة.

قال ابن الاثير: وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عدل عام، ورخص شامل، وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ،فأمنت الطريق وتحدث الر كبان بحسن سيرته.

وفي المحرم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي الخليفة المقتدى بأمر الله فجأة، وهو أبو القاسم عبد الله بن الأمير محمد بن القائم بأمر الله، وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر ، وأمه تركية، وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد، ويلقب محمد بن القائم والد المقتدى بالله الذخيرة، مات في حياة أبيه، فلم يل الخلافة.

ذكر أخبار زنكي

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على سبيل الاختصار، في فصول إلى حين وفاته، ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين.

لما قتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الأولاد غير واحد، وهو عماد الدين زنكي والد نور الدين، وكان حينئذ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي، وهو صبي أيضا، ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوجه إلى حران وقد اجتمع معه عسكر صالح فملكها، ثم سار إلى نصيبين فملكها ثم إلى الموصل فملكها وأزال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي، وسار نحو ماردين فملكها وعظم شأنه، وهو في طاعة ركن الدولة بركياروق، فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر وأمرهم باحضار عماد الدين زنكي، وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته فأحضروه عنده، فأقطعهم الاقطاعات السنية، وجمعهم على عماد الدين زنكي واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها، فلم يزالوا معه، فتوجه بهم إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين

سقمان بن أرتق جد صاحب الحصن، فكسرهم قوام الدولة كربوقا، وهو أوّل مصاف حضره زنكي بعد قتل والده، ولم يزل كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وملك بعده موسى التركماني، فلم تطل مدته وقتل، وملك الموصل شمس الدولة جكرمش وهو أيضا من مماليك السلطان ملكشاه، فأخذ زنكي فقربه وأحبه، واتخذه ولداً لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمسمائة، فلا جرم أن زنكي رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري، فأكرمه وقدمه وأقطعه اقطاعا كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صهراً.

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاوه، فاتصل به عماد الدين زنكي، وقد كبر وظهرت عليه أمارات السعادة والشهامة، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد، وكان جاولي قد عبر إلى الشام ليملكه من الملك فخر الدين رضوان، فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودود، وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمسمائة، فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه زنكي وغيره من الأمراء، فلما استقر مودود بالموصل واتصل به زنكي أكرمه وشهد معه حروبه، فسار مودود إلى الغزاة بالشام ففتح في طريقه قلاعاً لهم من شبختان كانت للفرنج، وقتل من كان بها منهم، ثم سار إلى الرها فحصرها، ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرة النعمان فحصرها، ثم حضر عنده أتابك طغتكين صاحب دمشق فسارا إلى طبرية وحاصروها وقاتلوها قتالاً شديداً ، وظهر من أتابك زنكي شجاعة لم يسمع بمثلها، منها أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه فتخلفوا عنه، وتقدّم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج ، فدخلوا البلد، ووصل رمحه إلى الباب فأثر فيه، وقاتلهم عليه وبقي ينتظر وصول من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أوّلا، ومن سلامته آخرا، ثم التقى

الجمعان فهزم الفرنج لعنهم الله ووصلوا الى مضيق دون طبرية، فاجتمعوا به وجاءتهم نجدة فأذن الأمير مودود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم، والاجتماع إليه في الربيع، فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها فخرج يوما يصلي الجمعة فلما صلاها وخرج من صحن الجامع ويده بيد طغتكين وثب عليه انسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات، وكان صائما فحمل إلى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل، وقال : لا لقيت الله إلا صائما فإنني ميت لا محالة سواء أفطرت أو صمت ، وتوفي في بقية يومه رحمه الله، فقيل إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه، وقيل بل خافه طغتكين، فوضع عليه من يقتله، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة.

قال ابن الاثير: حدثني والدي رحمه الله قال: كتب ملك الفرنج إلى طغتكين:«إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها ».فلما قتل الأمير مودود أقطع السلطان بلاد الموصل وغيرها للامير جيوش بك، وسير معه ولده الملك مسعود إلى الموصل، ثم أنه جهز آق سنقر البرسقي في العساكر وسيره إلى قتال الفرنج ، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسيرمعه، فساروا وفيهم عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي، فسار البرسقي إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس فحصرها، وقتل من بها من الفرنج والأرمن ، وضاقت الميرة عن العسكر، فرحل إلى سميساط وهي أيضا للفرنج فأخرب بلدها وبلد سروج، وعاد إلى بلد شبختان فأخرب ما فيه من الفرنج، وأبلى زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا، ثم عادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقي إلى بغداد وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وقد علا قدره وظهر اسمه.

فصل

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ولد الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي رحمه الله، وفيها غرقت سنجار من سيل المطر، وهلك منها خلق كثير، ومن أعجب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيه طفل ، فتعلق المهد في شجرة، ونقص الماء فسلم ذلك الطفل، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة.

وفيها أيضا زلزلت إربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة.

وفيها في الرابع والعشرين من ذي الحجة توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام ، وأول ما خطب له ببغداد في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت خطبته عدة مرار، ولقى من المشاق والأخطار ما لم يلقه أحد إلى أن توفي أخوه بركياروق، فحينئذ استقرت له السلطنة وصفت له ودانت البلاد، وأصحاب الاطراف لطاعته، وكان اجتماع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة أشهر، وكان عادلاً حسن السيرة شجاعا، وأطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد، ومن عدله أنه اشترى عدة مماليك من التجار وأمر أن يوفى الثمن من عامل خورستان، فأوصل إليه البعض، ومطل الباقي، فحضر التاجر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان، واستغاث إليه، فأمر من يستعلم حاله، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله، فعظم عليه وضاق صدره وأمر في الحال أن يحضر عامل خوزستان، ويلزم بمال التاجر، ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم، وكان يقول كثيرا: لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحكم ، ولو فعلته لاقتدى بي غيري ولم يمتنع أحد عن اداء الحق.

قال ابن الاثير: وهذه الفضيلة ذخرها اللّه تعالى للبيت الأتابكي ،فإن

الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه، وقد تقدم ذلك

ولما علم الأمراء وغيرهم من خلق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهية الظلم ومعاقبة من يفعله اقتدوا به، فأمن الناس وظهر العدل.

وولي بعد السلطان محمد ابنه محمود وعمره يومئذ أربع عشرة سنة، فقام بالسلطنة ، وجرى بينه وبين عمه سنجر حرب إنهزم فيها محمود، وعاد إلى عمه بغير عهد، فأكرمه وأقطعه من البلاد إلى حدّ خراسان إلى الداروم بأقصى الشام، ومن الممالك همذان وأصفهان، وبلد الجبال جميعه، وبلاد كرمان، وفارس، وخوزستان، والعراق وأذربيجان، وأرمينية، وديار بكر، وبلاد الموصل والجزيرة، وديار مضر، وديار ربيعه، والشام، وبلد الروم، الذي بيد قليج أرسلان، وما بين هذه الممالك من البلاد.

قال ابن الاثير : ورأيت منشوره بذلك

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام، وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين، خطب لهم ببغداد من السلجوقية وهم: أخو ملكشاه تاج الدولة تتش ، وركن الدولة بركياروق بن ملكشاه، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه، وكان المستظهر رحمه الله كريم الاخلاق لين الجانب، مشكور المساعي، يحب العلم والعلماء، وصنفت له من التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرهما، وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات، حسن الخط، جيد التوقيعات، ولما توفي صلى عليه ولده المسترشد بالله، ودفن في حجرة كان يألفها.

وفي أيامـه تـوفي جماعـة مـن العلماء، ففـي شعبـان سنـة ثمان وثمانين وأربعمائة توفي قـاضي القضاة أبو بكر محمـد بن المظفر الشامي، وفي ذي . القعدة منها توفي القاضي عبد السلام بـن محمد القزويني المعتزلي مصنف «حدائق ذات بهجة في تفسير القرآن»يزيد على ثلاثمائة مجلد.

قال ابـن الاثير:رأيت منـه تفسير الفاتحة في مجلـد كبير، وفي ذي الحجة توفي الإمام أبو نصر الحميـدي مصنف الجمع بين الصحيحين، وفي شوال سنة إحـدى وتسعين توفي الكامـل نقيب النقباء طـراد بن محمد الـزينبي، ولـه نحـو تسعين سنـة، وفي سنـة اثنتين وخمسين ومائة تـوفي أبـو زكـريـا التبريزي اللغوي. وفي ذي الحجة منها تـوفي أبو الفوارس الحسين بن علي ابن الخازن صـاحب الخط المشهـور، وفي سنة خمس وخمسمائة، تـوفي الإمام أبو حامد الغـزالي، وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الإمام أبو بكـر محمد بن الشاشي الفقيه، رحمهم الله أجمعين.

فصل

لما ولي السلطان محمـود السلطنة أقـرّ أخاه مسعـودا على الموصل، مـع أتـابكة جيـوش بـك فبقي مطيعـا لأخيـه إلى سنة أربـع عشرة وخمسمائة، فحسـن لـه الخروج عـن طـاعته، وطلـب السلطنـة، فـأظهـر العصيـان، وخطب للملـك مسعود بـالسلطنة، وكـان زنكي يشير بطـاعة السلطـان وترك الخلاف عليه، ويحذرهم عاقبة العصيـان، فلم ينفع، فالتقى الأخوان في عسكريهما فهزم عسكـر مسعود وأسر جماعة من الأمـراء والأعيان منهم الاستاذ أبـو اسماعيل الحسين بن اسماعيـل الطغرائي وزير مسعـود فقتله السلطـان محمود، وقـال قا، صـح عندي فسـاد اعتقاده ودينـه، وكان قـد جاوز ستين سنة، وكان حسن الكتابة جيد الشعر.

قلـت: وقيل إنـه قتـل سنـة ثلاث عشرة أو أربـع عشرة أو ثماني عشرة

وخمسمائة، وقيل إن الذي قتله هو السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه، ذكر ذلك كله أبو سعد السمعاني في تاريخه، وسماه الحسين بن علي بن عبد الصمد الديلمي، وأنشد له أشعاراً حسانا منها:

إذا ما لم تكن ملكا مطاعا
فكن عبدا لمالكه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعا
كما تهواه فاتركها جميعا
هما سيان من ملك ونسك
ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
ومن يقنع من الدنيا بشيء
سوى هذين يحيى بها وضيعا

ثم استأمن من مسعود وأتابكه جيوش بك، فأمنهما السلطان، وأخذ الموصل منهم فأقطعها آق سنقر البرسقي مع أعمالها كالجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرهما في صفر سنة خمس عشرة وسيره اليها، وأمره بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند اشارته، ففعل البرسقي ذلك وزاد عليه لمكان زنكي من العقل والشجاعة، وتقدّم والده في الايام الركنية، وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة، فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا لسيرته.

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع أتابك زنكي مدينة واسط وشحنكية البصرة، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد، فازداد شأنه عظما وهاب الأمير دبيس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة ناحيته،وجرت بينه وبين البرسقي حروب ومواقعات، وهمّ دبيس بقصد بغداد فسار البرسقي إليه، وتبعه الخليفة المسترشد باللّه بنفسه فانهزم عسكر دبيس وقتل منهم وأسر خلق كثير، وكان لعماد الدين زنكي أثر حسن في هذه الواقعة أيضا بين يدي الخليفة، وذلك في أوّل المحرّم سنة سبع عشرة.

وأما دبيس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السلطان محمد، وصار معه في خواص أصحابه، وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود، وأمر السلطان محمد للبرسقي أن يرجع إلى الموصل فعاد واستدعى زنكي من البصرة ليسير معه إلى الموصل ، فقال زنكي لأصحابه : قد ضجرنا مما نحن فيه، كل يوم قد ملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته، ثم تارة بالعراق وتارة بالموصل، وتارة بالجزيرة، وتارة بالشام، فسار من البصرة إلى السلطان محمود، فأقام عنده، وكان يقف إلى جانب تخت السلطان عن يمينه لايتقدم عليه أحد، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله، وبقي لولده من بعده.

ثم اتى السلطان الخبر أن العرب اجتمعت ونهبت البصرة، فأمر زنكي بالمسير إليها وأقطعه إياها لما بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي، وقت اختلاف العساكر والحروب، ففعل ذلك فعظم عند السلطان وزاد محله، وكان قد جرى بين يرنقش الزكوي شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة، فتهدده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة شاكيا من المسترشد، وحذر السلطان جانبه وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازما على منعه من العراق، فسار السلطان إلى بغداد، وجرى بينه وبين المسترشد حروب ووقائع، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه، وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية بغداد والعراق، يؤمن معه من الخليفة، ويضبط الأمور فولى ذلك زنكي مضافا إلى ما بيده من الإقطاع ، وسار السلطان عن بغداد.

وفي سنة عشرين وخمسمائة قتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد صلاة يوم الجمعة، ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس ، فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان عادلا لين الاخلاق حسن العشرة، وكان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة، لايستعين في وضوئه

بـأحد، فقـرّر السلطان ولـده عـز الديـن مسعـود على ما كـان لأبيه مـن الأعمال، وهـي الموصـل وديار الجزيـرة وحلـب وحماه وجـزيرة ابـن عمـر وغيرها، وكان شـابا عاقلا فضبط البـلاد، فلم تطل أيامه وتـوفي ســـنة إحـدى وعشريـن، وولي الأمـر بعده أخـوه الصغير، وقـام بتـدبير دولتيهما الأمير جاولي، وهـو مملوك تـركي مـن ممالـيك أبيهما، فجرت الأمـور على أحسن نظام.

فصل

في ولاية زنكي الموصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البرسقي

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين ، وسبب ذلك أن عز الدين البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير، وتولى أمره جاولي أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرّ البلاد عليه، وكان المراسل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين محمد الياغيساني، فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك ، وكانا يخافان جاولي ولايرضيان بطاعته، والتصرف بحكمه، وكان بين صلاح الدين وبين نصير الدين جقر مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبا البلاد لعماد الدين زنكي، ففعلا وقالا للوزير: قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج على أكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم، وكان البرسقي يكف بعض عاديتهم، فمذ قتل إزداد طمعهم، وهذا ولده طفل صغير، ولابد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها، وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجري خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين فنحصل نحن بالاثم من الله تعالى واللوم من السلطان، فأنهى الوزير إلى السلطان، فأعجبه وقال: من تريان يصلح لهذه البلاد؟ فذكروا جماعة فيهم عماد الدين زنكي وعظما محله أكثر من غيره، فأجاب السلطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته، فولي البلاد جميعا وكتب منشوره بها.

وسار من بغداد إلى البوازيج ليملكها ويتقوّى بها ويجعلها ظهره إن منعه جاولي عن البلاد، فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل فخرج جاولي إلى لقائه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فسيره إلى الرحبة وأعمالها، وأقام هو بالموصل يصلح أمورها،و يقرّر قواعدها، فولى نصير الدين

دزدارية قلعة الموصل، وفوّض إليه أمر الـولاية جميعها،وجعل الدزدارية في البلاد جميعها لـه، وجعل الصلاح محمد اليـاغيساني أمير حاجب الـدولة، وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بـلاده جميعها، وما يفتحه من البلاد، ووفى لهم بها وعدهم، وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطـا معه، وقربا منه، ورتب الأمـور على أحسن نظام وأحكم قاعدة.

وكـانت الفـرنج قـد اتسعت بـلادهـم، وكثرت أجنـادهم، وعظمـت هيبتهم، وزادت صـولتهم، وامتـدت إلى بلاد المسلمين أيـديهم، وضعف أهلهـا عـن كـف عـاديهم، وتتابعـت غـزواتهم، وسـامـوا المسلمين سـوء العـذاب، واستطار في البـلاد شرر شرّهـم، وامتدّت مملكتهـم مـن ناحيـة مـاردين وشبختـان إلى عـريـش مصر لم يتخلله مـن ولايـة المسلمين غير حلـب وحماه وحمص ودمشق، وكـانت سرايـاهـم من ديـار بكر إلى آمـد، ومـن ديار الجزيـرة إلى نصيبين ورأس عين، وأما أهـل الرقـة وحرّان فقـد كانـوا معهم في ذلّ وهـوان، وانقطعت الطـرق إلى دمشق إلاّ على الـرحبة والبر، ثم زاد الأمر، وعظـم الشر حتى جعلوا على أهل كل بلـد جاورهم خراجـاً وأتاوة يأخـذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهـم، ثم لم يقنعوا بـذلك حتـى أرسلوا إلى مـدينة دمشـق واستعرضـوا الرقيـق ممن أخـذ من الـروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطـانهم، فمن اختـار المقـام تـركوه، ومـن آثـر العـود إلى أهله أخـذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأمـا أهل حلـب فإن الفـرنج أخـذوا منها منـاصفة أعمالها، حتـى في الرحا التي على باب الجنان، وبينهـا وبين المدينة عشرون خطوة، وأما باقي بلاد الشام، فكان حال أهلها أشدّ من حال أهل هذين البلدين، فلما نظر الله سبحـانه وتعـالى إلى بلاد المسلمين، ولاهـا عماد الديـن زنكي، فغـزا الفرنـج في عقر ديارهم، وأخـذ للموحديـن منهم بثارهم، واستنقـذ منهم

حصونـا ومعاقل، وسيأتـي تفصيل ذلك، ومـا فتحه من البلاد الاسـلامية هو وابنه من بعده، إن شاء الّله تعالى.

فصل

ثم شرع زنكـي رحمه الله في أخذ البـلاد، فافتتح جـزيرة ابن عمـر، ثم مدينة إربل في رمضان سنة اثنتين وعشريـن، ثم عاد إلى الموصل وسار في جمادى الاولى سنـة ثـلاث وعشريـن إلى سنجـار، فتسلمهـا وسير منهـا الشحن إلى الخابـور فملكه، ثـم قصد الـرحبة، فملكـت قسراً، ثم افتتـح نصيبين، وسار إلى حـران، وكانت الـرها وسروج وغيرهما من ديـار الجزيرة للفرنـج لعنهم الله، وأهـل حران معهم في ضيـق عظيم، فراسلـوا زنكي بالطاعة، واستحثـوا على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفـرنج مدة يسيرة يعلـم أنه يفـرغ فيها مـن الاستيلاء على مـا بقي لـه من البـلاد الشاميـة، والجزرية، وكـان أهم الاشيـاء عنده عبـور الفرات، وملـك مدينـة حلب، وغيرها مـن البلاد الشاميـة، فلما عبر الفرات ملـك مدينة منبـج وحصن بزاعة، وحاصر حلـب، ثم فتحت له، فرتب أمـورها، وسار عنها إلى حماه فملكهـا، وقبـض على صـاحـب حمص وحـاصرهـا، وذلـك سنـة ثـلاث وعشرين.

وفي سنة أربـع وعشرين اتفق صـاحب آمد مـع صاحب حصـن كيفا وغيرهـم مـن الملوك، وجمعـوا عساكـر نحو عشريـن ألفا، وقصـدوا زنكي فلقيهم فهزمهم، وملك سرجة ودارا، ثـم صمم على الجهاد، فنازل حصن الأثارب، وكـان أضر شيء على أهل حلـب، فجمع الفـرنج جمعـا عظيماً، فهـزمهم وقتلهـم مقتلـة عظيمة، بقيـت عظـام القتلى بتلك الأرض مـدّة طويلـة ، ثم رجع إلى الحصـن فملكه عنوة فـأخربه، ومحا أثـره، وأزال من تلك الأرض ضرره، ثم رحل إلى حصن حارم، فـأنفذ من لم يحضر المعركة من الفـرنج، ومن نجـا منها يسألـون الصلح، ويبـذلون له المنـاصفة على

ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك، لأن عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل، فأراد أن يستريحوا، فهادنهم، وعاد عنهم، وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن، وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك.

وفيها استولى زنكي على مدينة حماه وما فيها، وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بوري، فأخذ رجاله، ثم طلب في إطلاقهم خمسين ألف دينار، فاتفق حضور دبيس بن صدقة بن مزيد أمير العراق بدمشق منهزما، فطلبه زنكي وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه .ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفي السلطان محمود بهمذان، وكان عمره نحو ثمان وعشرين سنة، وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة، وكان حليما كريماً عاقلاً كثير الاحتمال، وطلب السلطنة بعده ولده داود ابن محمود، وأخواه مسعود وسلجوق شاه ابنا محمد، وعمهما سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان محمد، فجرت بينهم حروب، واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان، وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همذان، وأصفهان والري، وسائر بلاد الجبل.

وفي سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه إلى الموصل في ثلاثين ألف فارس، فحصرها ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى بغداد، ولم يبلغ غرضا.

وفي سنة تسع وعشرين استولى زنكي على سائر قلاع الحميدية وولاياتهم منها قلعة العقر، وقلعة شوش، وحاصر مدينة آمد، ثم مدينة دمشق، وفيها توفيت والدته بالموصل.

وفي المحرم سنة تسع وعشرين توفي السلطان طغرل بن محمد بن

ملكشاه، فخرج السلطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكر الخليفة، وقبض عليه وعلى خواصه، وأنفذ السلطان شحنة إلى بغداد، فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعة من الباطنية على المسترشد، وهو في الخيمة فقتلوه، وكتب السلطان إلى شحنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور ابن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القعدة، ولقب بالراشد، وكان عمر المسترشد ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشر سنة وسبعة أشهر، وكان شهما شجاعا مقداما فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكنا عظيما لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلاّ أن يكون المعتضد والمكتفي، لأن المماليك كانوا قديما يخلعون الخلفاء، ويحكمون عليهم، ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق، فزالت هيبة الخلافة بالمرّة إلى انقراض دولة الديلم، فلما ملك السلجوقية جدّدوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها، إلاّ أن الحكم والشحن بالعراق كان إلى السلطان، وكذلك العهد أو ضمان البلاد، لم يكن للخلفاء إلاّ إقطاع يأخذون دخله، وأما المسترشد فانه استبدّ بالعراق بعد السلطان محمود،ولم يكن للسلطان محمود معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة ، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر بالحرب.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة سار الراشد إلى الموصل بصحبة زنكي ملتجئاً إليه، وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال، وتلوّن في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه، وخافه الباقون، وتقدّم السلطان مسعود، وحصر بغداد، واستظهر عليها، فخرج الراشد ملتجئاً إلى زنكي، فسار به إلى الموصل، ودخل مسعود بغداد، وأمر بخلع الراشد ومبايعة عمة أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالّله، ففعل ذلك ولقب

المقتفي لأمر الّله، وأما الراشد فإن السلطـان سنجر أرسل إلى أتابك يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى أذربيجان، ثم إلى همذان، فاجتمع إليه ملوك وعساكـر كثيرة، وسار السلطـان إليهم فتصـافوا فـانهز م الراشـد، وقصد أصبهان فقتلـه الباطنيـة بها في السابع والعشريـن من رمضـان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، ودفن بأصبهان.

وفي سنة اثنتين وثـلاثين أيضا تزوج زنكي بـالخاتون صفوة المـلـك زمرد ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك اسماعيل وأخـوته بني تاج الملوك بوري ابن طغتكين أتابك، وهي أخت الملك دُقاق، وإليها ينسب مسجد خاتون الـذي هـو مـدرسـة لأصحاب أبـى حنيفـة بـأعلى الشرف القبلي بـأرض دمشق، بأرض صنعاء، وتسلم قلعة حمص.

فصل

في جهاد زنكي للفرنج

كـان في سنة اثنتين وثـلاثين خرج ملـك الروم مـن القسطنطينة ومعـه خلـق عظيـم لايحصـون كثرة مـن الـروم والفـرنـج وغيرهـم مـن أنـواع النصارى، فقصد الشـام فخافه الناس خوفا عظيماً، وكـان زنكي مشغولاً بما تقدم ذكره، ولايمكنـه مفارقة الموصل، فقصـد ملك الروم مدينـة بزاعة وحصرها، وهي على مرحلة من حلب، وفتحهـا عنوة، وقتل المقاتلة وسبى الذرّية في شعبان، ثـم سار عنها إلى شيزر، وهي حصن منيـع على مرحلة من مـدينة حلـب، فحصرها منتصف شعبـان ونصب عليهـا ثمانية عشر منجنيقـا، وأرسل صـاحبهـا أبـو العساكـر سلطـان بـن منقذ إلى زنكـي يستنجده، فنـزل على حماه، فكان يـركب كـل يوم في عسـاكره، ويسير إلى شيـزر بحيث يـراه ملك الـروم، ويرسـل السرايا يتخطـف من يخرج مـن عساكـرهم للميرة والنهب، ثـم يعود آخر النهار، وكـان الروم والفرنـج قد

نزلوا على شرقي شيزر، فأرسل إليهم زنكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فأخرجوا عنها حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوّة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيبا لهم، فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره، فقال لهم الملك: أتظنون أن معه من العساكر ما ترون، وله البلاد الكثيرة، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم، وكان أتابك زنكي مع هذا يراسل فرنج الشام، ويحذرهم ملك الروم، ويعلمهم إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، وكان يراسل ملك الروم يتهدّده ويوهمه أن الفرنج معه فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق، وآلات الحصار بحالها، فسار زنكي خلفهم وظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعه إلى قلعة حلب، وكفى اللّه المؤمنين القتال، وكان المسلمون بالشام قد اشتدّ خوفهم، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر، لايبقى لمسلم معهم مقاما لاسيما مدينة حماه لقربها، ولما يسر اللّه تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا، منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموي له قصيدة قد ذكرتها في ترجمته في التاريخ أوّلها:

بعزمك أيها الملك العظيم ... تذلّ لك الصعاب وتستقيم

ألم تر أن كلب الروم لما ... تبين أنك الملك الرحيم

فجاء يطبق الفلوات خيلا ... كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه ... فكان لخطبه الخطب الجسيم

فحين رميته بك في خميس
تيقن أن ذلك لا يدوم
وابصر في المفاضة منك جيشا
فاحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور
توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى
وليس سوى الحمام له حميم
يؤمّل أن تجود بها عليه
وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا
وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا
بيوم فيه يكتهل الفطيم
ولما ان طلبتهم تمنى ال
منية جوسلينهم اللئيم
أقام يطوّف الافاق حينا
وأنت على معاقله مقيم
فسار وما يعادله مليك
وعاد وما يعادله سقيم
إذا خطرت سيوفك في نفوس
فأول ما يفارقها الجسوم

وله من قصيدة مدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي التوتان صاحب حماة.

وما جاء كلب الروم الا ليحتوي
حماة وهل يسطو على الأسد الكلب
أراد بها أن يملك الشام عنوة
وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب

ومـــاذمّ فيهـــا العيـــش حتـــى صـــدمنـــه
فمال جنـــاح الجيـــش وانكسر القلـــب
فـــولى وأطـــراف الـــرمـــاح كـــأنها
نجـــوم عليـــه بـــالمنيـــة تنصـــب

ولابن منير قصيدة في مدح أتابك زنكي رحمه الله سيأتي بعضها عند ذكر فتحه مدينة الرها إن شاء اللّه تعالى، ومنها:

ومـــا يـــوم كلـــب الـــروم إلا أخـــو الـــذي
أزحـــت بـــه مـــا في الجنـــاجـــن (٣٩) مـــن نبـــل
اتـــاك بمثـــل الـــروم حشـــدا وإنـــه
ليفضـــل اضعـــافـــا كثيرا عـــن الـــرمـــل
فقـــاتلتـــه بـــاللّـــه ثـــم بعـــزمـــة
تصـــك قلـــوب العـــاشقين بما يسلي
تـــوهـــم أن الشـــام مـــرعـــى ومـــادرى
بـــأنـــك أمضـــى منـــه في الشـزر والسحـــل [٤٠]
فطـــــــار وخير المغنمين ذمـــــــاؤه
إذا اراد عنـــــــه مغنـــــــم المال والأهـــــــل

قال ابن الاثير: ومن عجائب ما يحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر، قام الأمير مرشد بن علي أخو صاحبها، وهو ينسخ مصحفا، فرفعه بيده، وقال: اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء الروم فاقبضني إليك فتوفي بعد أيام ونزل الروم بعد وفاته.

ولما عاد الروم إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عرقه، وهو من أعمال طرابلس فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه، وأسر من به من الفرنج وأخربه، وعاد سالما غانما، وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين تمرتاش، وفيها توفي بهاء الدين علي بن القاسم الشهر زوري قاضي

الممالك الأتابكية، وكان أعظم الناس منزلة عنده، وفيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بتكريت.

فصل

في فتح شهر زور وبعلبك وحصار دمشق

قال ابن الأثير:كانت شهر زور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجق بن أرسلان تاش التركماني، وكان ملكها نافذ الحكم على قاصي التركمان ودانيهم، يرون طاعته فرضاً حتماً، فتحامى الملوك قصد ولايته، ولم يتعرّضوا لها لحصانتها، فعظم شأنه وازداد جمعه، فلما كانت سنة أربع وثلاثين بلغ الشهيد أتابك عنه ما اقتضى أن يقصد بلاده، فهزم عسكره وملك بلاد شهر زور وغيرها، فاضافها إلى بلاده وأصلح أحوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان، وعاد إلى الموصل عازماً على المسير إلى الشام، فإنه كان لايرى المقام بل لايزال ظاعنا إما لردّ عدوّ يقصده، وإما لقصد بلاد عدوّ وإما لغزو الفرنج وسدّ الثغور، وكانت مياثر السروج آثر عنده من وثير المهاد، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد، وأصوات السلاح ألذ في سمعه من الغناء، لايجد لذلك كله عناء.

وفي هذه السنة وهي سنة أربع وثلاثين ولد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي

وفيها سار الشهيد في جنوده بعد ملك شهر زور إلى مدينة دمشق فحصرها، وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين، وكان محكوما عليه، والغالب على أمره معين الدين أنر مملوك جدّه

طغتكين، وكان أتـابك قد أمـر كمال الديـن أبا الفضل بـن الشهر زوري بمكاتبـة جماعة من مقـدّمي أحداثهـا وزناطرتها واستمالتهـم واطماعهم في الرغائب والصلات، ففعل ذلك فأجـابه منهـم خلق كثير إلى تسليم البلد وخرجـوا متفرقين إلى كمال الديـن ، وجدّد عليهم العهـود وتواعدوا يـوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا لـه الباب ويسلموا البلد إليه، فأعلم كمال الدين الشهيد أتـابك بذلك فقال: لاأرى هذا رأيـا فإن البلد ضيق الطـرق والشوارع، ومتـى دخل العسكـر إليـه لايتمكنون مـن القتال فيـه لضيقه، وربما كثـر المقاتلون لنا فنعجـز عن مقاومتهم لأنهم يقـاتلون على الأرض والسطـوحـات، وإذا دخلنـا البلـد اضطـررنـا إلى التفـرّق لضيـق المسالك فيطمع فينا أهله، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره.

ومن العجب أن محمـد بن بوري صاحب دمشق تـوفي وأتابك يحصره، فضبـط أنـر الأمور وسـاس البلـد فلـم يتغير بـالناس حـال، وأرسـل إلى بعلبك فأحضر ولـده مجير الدين آبق بـن محمد بن بوري ورتبـه في الملك مكان أبيـه فمشى الحال بتمكين معين الـدين أنـر وحسن تـدبيره، وهذا مجير الدين آبق هو الذي منه أخذ نـور الدين محمود بن زنكي دمشق كما سيأتي، ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بعلبك معين الدين أنر، فأرسل إليها نـائبه وتسلمهـا، فلما علم الشهيـد ذلك سـار إلى بعلبك وحصرهـا عدّة شهور فملكها عنـوة، وترك بها نجم الدين أيوب والـد صلاح الدين دزداراً، وعـزم على العود عنهـا إلى دمشق فجـاءتـه رسل صـاحبها ببـذل الطاعة والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعـاد عن قصد دمشق، وقد خطب له فيها،وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه.

قال يحيـى بن أبي طي الحلبـي: واتفق أن الأمـراء لما نزلوا مـن بعلبك أفسدوا ذخائرها فقبض عليهم أتابـك زنكي وقتل بعضهـم وصلبهم وكان ولىّ قتلهم صـلاح الدين محمد بـن أيوب الياغيساني، فحكـى أنه أحضر إليه في جملـة الأمراء شيخ مليح الشيبـة ومعه ولد لـه أمرد كأنه فلقـة قمر،

فقال الشيخ لصلاح الـدين: سألتك بحياة المولى أتابـك ألا صلبتني قبل ولـدي لئلا أراه يعـالج سكـرات الموت، وكان نجـم الدين أيوب واقفـاً فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاح الديـن في إطلاقه، فقال ما أفعل خوفاً من المولى أتابـك، فذهب نجم الديـن إلى أتابك وسألـه في الشيخ وولده وقص عليه ما قـاله، فأذن باطلاقه وإطلاق من بقـي من الجماعة، ووهبه نصف بعلبـك، وقيل إن نجـم الدين قـد ورد على أتابـك وهو قـد ملك بعلبك فسألـه في الأمراء فأطلقهم لـه وولاه بعلبك وكتب له ثلثهـا ملكاً، واستقر فيهـا هو وأهله، ولم يـزل بها إلى أيام نور الـدين محمود بـن زنكي فأخـرجه منها على ما سنـذكره، ثم إن أتـابك بعد ملكه بعلبـك سار إلى دمشـق فنـزل البقاع، فـوردت هـديـة صـاحـب دمشق، ويطلـب العـود ويعطيه خمسين ألف دينار، ويعطيه حمص، فأشـار نجم الدين على زنكي بقبول ذلـك وقال: هذا مـال كثير، وقد حصـل بلا تعب، وبلـد كبير بلا عنـاء، ودمشـق بلـد عظيـم وقـد ألـف أهلـه هـذا البيـت وتمرّنـوا على سياستهـم، وقد بلغتهم الأحـوال التي جرت ببعلبـك، فامتنع زنكـي عن قبول ما أشار به ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه.

فصل

ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين إلى بلاد الفرنج، فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن بارين، وهو للفرنج ، فصبرالفريقان صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير(٤١)، ونصر الله المسلمين، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم، فدخلوا حصن بارين،وفيهم ملك القدس لأنه كان قرب حصونهم، وأسلموا عدّتهم وعتادهم، وكثر فيهم الجراح، ثم سار الشهيد إلى حصن بارين فحصره حصراً شديداً فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى إلاّ أخذهم قهراً، فبلغه أن من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر عليهم، فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، ومن بالحصن لايعلمون بشيء من ذلك لقوّة الحصر عليهم، فأعادوا مراسلته في طلب الأمان، فأجابهم وتسلم الحصن وساروا فلقيتهم أمداد النصرانية، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين فحلفوا لهم: إنا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الاثير: وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماه وحلب من البلاد ونهبوها، وتقطعت السبل، فأزال اللّه تعالى بالشهيد رحمه اللّه هذا الضرر العظيم.

وفي مدّة مقامه على حصن بارين سير جنده إلى المعرة وكفر طاب، وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها وهي بلاد عظيمة.

قلت: وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج، ويمدح زنكي قصيدة أولها:

حذار منا وأنى ينفع الحذر
وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر

وأين ينجو ملوك الشرك من ملك
من خيله النصر لا بل جنده القدر

سلوا سيوفا كأغماد السيوف بها
صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهروا

حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم
في مأزق من سناه يبرق البصر

ولوا تضيق لهم ذرعا مسالكهم
والموت لا ملجأ منه ولا وزر

وفي المسافة من دون النجاة لهم
طول وإن كان في أقطارها قصر

وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا
يخاف والكفر لا عين ولا أثر

فلا تخف بعدها الافرنج قاطبة
فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر

إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حربوا
أو طاردوا طردوا أو حاصروا حصروا

وطالما استفحل الخطب البهيم بهم
حتى أتى ملك آراؤه غرر

والسيف مفترع أبكار أنفسهم
ومن هنالك قيل الصارم الذكر

لا فارقت ظل محيي العدل لامعة
كالصبح تطوي من الاعداء ما نشروا

ولا انثنى النصر عن أنصار دولته
بحيث كان وإن كانوا به نصروا

حتـــى تعـــود ثغـــور الشـــام ضـــاحكـــة
كـــأنـها حـــلّ في أكنـــافهـــم عمـــر

وقال ابن منير

فـــدتـــك الملـــوك وأيـــامهـــا
ودام لنقضـــك ابـــرامهـــا
وزلـــت لعيشـــك أقـــدامهـــا
وزال لبطشـــك إقـــدامهـــا
ولـــو لم تسلـــم إليـــك القلـــو
ب هـــواهـــا لما صـــح إســـلامهـــا
أيـــا محيـــي العـــدل لما نعـــا
ه أيـــامـــى البرايـــا وأيتـــامهـــا
ومستنقـــذ الـــديـــن مـــن أمّـــة
أزال المحـــاريـــب أصنـــامهـــا
دلفـــت لها تقتفيـــك الاســـو
د والبيـــض والسمـــر آجـــامهـــا
جـــزرت جـــزيـــرتها بـــالسيـــو
ف حتـــى تشـــاءمهـــا شـــامهـــا
وصـــارت عـــواري أكتـــافـــه
متـــى شئـــت أرخـــص مستـــامهـــا

قال ابن الاثير: ولما وصل الروم والفرنج إلى الشام ورأوا الامر قد فات أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين، فنازلوا حلب وحصروها، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم لأنهم كانوا في جمع عظيم، فانحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنع عنهم الميرة، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدوّ فيها والاغارة عليها، وأرسل القاضي كمال الدين بن الشهر زوري إلى السلطان مسعود ينهي إليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدوّ، ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر، فقال له كمال

الـدين: أخـاف أن تخرج البلاد مـن أيدينـا ويجعل السلطـان هذا حجـة وينفـذ العساكـر، فإذا تـوسطوا البـلاد ملكـوها، فقـال الشهيد: إن هـذا العدوّ قد طمـع فيّ وإن أخذ حلب لم يبق بالشام اسـلام، وعلى كل حال فـالمسلمـون أولى بها مـن الكفار، قـال: فلما وصلـت إلى بغـداد وأدّيـت الرسـالة وعدني السلطـان بانفاذ العساكـر، ثم أهمل ذلك ولم يتحـرك فيه بشيء وكتب الشهيـد إليّ متصله يحثني على المبادرة بـانفاذ العساكـر، وأنا أخاطب فلا أزاد على الوعد.

قـال: فلما رأيـت عدم اهتمام السلطـان بهذا الامـر العظيـم، أحضرت فلانـا(وهو فقيـه كان ينوب عنـه في القضاء) فقلت: خـذ هذه الـدنانير وفـرقها في جماعـة مـن أوباش بغـداد والأعاجـم، وإذا كـان يوم الجمعـة وصعـد الخطيـب المنبر بجامـع القصر قـامـوا وأنـت معهم، واستغـاثـوا بصـوت واحـد:«وا اسـلامـاه» « وا دين محمـداه» ويخرجـون مـن الجامـع ويقصـدون دار السلطنة مستغيثين، ثـم وضعت انسـاناً آخـر يفعل مثـل ذلك في جـامع السلطان ، فلما كانـت الجمعة وصعد الخطيـب المنبر، قام ذلك الفقيـه وشق ثـوبه، وألقـى عمامته عـن رأسه وصـاح، وتبعه أولئـك النفـر بالصيـاح والبكاء فلـم يبق بـالجامـع إلا من قـام يبكي، وبطلـت الجمعـة وسار النـاس كلهـم إلى دار السلطان وقـد فعـل أولئـك الذيـن بالجامع مثلهم، فاجتمع أهل بغـداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثـون، وخرج الأمر عن الضبـط وخاف السلطان في داره، وقـال: ما الخبر؟فقيـل لـه: إن الناس قـد ثـاروا حيـث لم ترسـل العســاكـر إلى الغـزاة ، فقال: أحضروا ابـن الشهـرزوري، قـال: فحضرت عنـده وأنا خـائف منـه لأنني قـد عزمـت على صـدقه وقـول الحق، فلما دخلت عليه قال: ياقاضي ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفا من الفتنة والشر، ولاشك ان السلطـان ما يعلم كم بينه وبين العدو وإنما بينكم نحـو اسبوع، ولئن أخـذوا حلب، انحدروا إليـك في الفرات، وفي البرّ وليس بينكم بلـد يمنعهم عن بغداد، وعظمت الأمـر عليه حتى

جعلته كأنه ينظر اليهم، فقال: اردد هؤلاء العـامة عنا، وخذ من العساكر ماشئت وسر بهم والأمداد تلحقك، قال: فخـرجت إلى العامة ومن انضم إليهم فأخبرتهم وعـرّفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفـرّقوا وانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس، وكتبت إلى الشهيـد أعرّفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير وأجدّد استئذانـه في ذلك، فأمرني بتسييرهـم والحث على ذلك، فعبرت العساكر الجانب الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة واذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر بأنّ الروم والفرنـج قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينـالوا منهـا غـرضا، ويـأمـرني بترك استصحاب العسـاكـر، فلما خوطـب السلطان في ذلك أصرّ على انفاذ العساكر إلى الجهـاد، وقصد بلاد الفرنج وأخذهـا، وكان قصده أن تطـأ عساكـره البلاد بهذه الحجة فيملكهـا،فلم أزل أتوصـل مع الوزيـر وأكابرالـدولة حتـى أعدت العساكـر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشهيد.

قال ابن الاثير: فـانظروا إلى هذا الرجل الـذي هو خير من عشرة آلاف فارس- يعنـي كمال الدين - رحم اللـه الشهيد، فلقد كان ذا همة عـالية ورغبة في الرجـال ذوي الرأي والعقل يرغبهـم ويخطبهم من البلاد ويـوفر لهم العطاء.

حكى لي والدي قـال: قيل للشهيد: إن هذا كمال الديـن يحصل له في كـل سنة منـك ما يـزيـد على عشرة آلاف دينار أميريـة وغيره يقنع منـك بخمسمائة دينار، فقـال لهم: بهذا العقل والـرأي تدبـرون دولتي، إن كمال الدين يقلّ لـه هذا القدر، وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فـان شغلا واحد يقوم فيـه كمال الدين خير مـن مائة ألـف دينار، وكان كما قـال رحمه الله تعالى.

فصل

قال: وفي سنة سبع وثلاثين سار الشهيد إلى بلد الهكارية، وكان بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، إلا أن نصير الدين جقر نائب السلطان الشهيد بالموصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم، فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العمادية عوضا عنها، وكانت هذه العمادية حصنا كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره، فلما ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول اللّه لاأعجز عنه، فأمر ببنائه وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر فبنى الحصن وسماه « القلعة العمادية» نسبة إلى لقبه عماد الدين.

وفي هذه السنة خطب لأتابك بآمد، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء إلى خدمته ، والخطبة له فأجابه إلى ذلك، وفيها ملك الشهيد مدينة عانة

وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال، وقصد دمشق فشتى بها، وفي سنة ثمان وثلاثين عزم السلطان مسعود على قصد الموصل بعسكره، وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة فترددت الرسل بينهما حتى استقرّت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السلطان، وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشرط عليه فتح الرها، وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له : إن ملك البلاد لايقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين،فإنها قد وليها قبله مثل جاولي سقاوة، ومودود وجيوش بك والبرسقي وغيرهم من الأكابر، وكان السلاطين يمدّونهم بالعساكر الكثيرة، ولايقدرون على حفظها، ولايزال

الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلـد إلى أن وليها أتابك ، فلم يمدّه أحد من السـلاطين بفارس واحد ولابمال، ومع هـذا فقد فتح من بـلاد العدّو عدّة حصـون وولايات وهـزمهم غير مرة واستضعفهـم، وعز الاسـلام به، ومن الأسباب المانعـة له أيضا أن الشهيد كان لايـزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خـدمة السلطان مسعود بأمر والـده، وكان السلطان يحبه ويقرّبه ويعتمد عليـه ويثق به، فأرسل إليه الشهيد يـأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل، وأرسل إلى نائبـه بالموصل يأمره أن يمنعه مـن دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً ففعـل ذلك، وقال له: ترسل إلى والـدك تستأذنه في الـذي تفعله، فـأرسـل إليه فعـاد الجواب: إننـي لاأريدك مهما السلطـان ساخط عليـك، فألزمه بالعـود إليه، فعاد ومعه رسـول إلى السلطان يقول له: إننـي لما بلغني أن ولدي فـارق الخدمة بغير أذن لم اجتمع بـه ورددته إلى بـابـك، فحـلّ هـذا عنـد السلطـان محلاً كبيراً، وأجـاب إلى مـا أراد الشهيد، ولما استقرّ المال حمل منـه نحو عشرين ألف دينـار، ثم إن الأمور تقلبـت، وعاد أصحـاب الأطـراف خرجـوا على السلطـان ، فاحتـاج إلى مداراة الشهيد، وأطلق له الباقي، إستمالة له.

وفي هذه السنـة سار الشهيد إلى ديـاربكر ففتـح عدّة بلاد منهـا طنزة وأسعـرد، وملك مـدينـة المعدن الـذي يعمل منـه النحـاس من أرمينيـة، ومدينة حيزان، وأخـذ من أعمال ماردين عدّة مواضـع ورتب أمور الجميع وملك مدينة حاني، وحاصر آمد، وأرسـل عسكراً إلى مدينة عانة، فملكها له، وقد تقدّم ذكرها في السنة قبلها.

فصل

في فتح الشهيد الرها

في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وكانت لجوسلين وهو عاتي الفرنج وشيطانهم والمقدّم على رجالهم وفرسانهم، وكانت مدّة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام، وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدّس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم قسطنطينية والرها، وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شرّ عظيم، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق شبختان عدّة حصون : كسروج والبيرة، وجملين، والموزر، وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر، وماردين ورأس عين والرقة، وأما حرّان فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبحوها بالغارة، فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم وعلم أنه لاينال منها غرضا مادام جوسلين بها، فأخذ في إعمال الحيل والخداع لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الاسلام كحاني وجبل جور وآمد، فكان يقاتل من بها قتالا فيه ابقاء وهو « يسر حسوا في ارتغاء(٤٢)» فهو يخطبها، وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده، فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظنّ أنه لافراغ له إليه، وأنه لايمكنه الإقدام عليه، ففارق الرها إلى بلاده الشامية، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرها، ثم وصف ابن الأثير الجيش وأنشد:

بجيش جاش بالفرسان حتى
ظننت البر بحراً من سلاح

وألسنة من العذبات حمر
تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروع جيشه ليل بهيم
وغرّته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن
قليل الصفح ما بين الصفاح
وكان ثباته للقلب قلبا
وهيبته جناحا للجناح

وألح الشهيد في حصارها فملكها عنوة فاستباحها ، ونكس صلبانها، وأباد قسوسها ورهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبي، ثم إنه دخل البلد فراقه، فأنف لمثله من الخراب، فأمر بإعادة ما أخذ من أثاث ومال وسبي ورجال وجوار وأطفال، فردّوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلاّ الشاذ والنادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً، ثم رتب البلد وأصلح من شأنه، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا، كسروج وغيرها، وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين، وكان فتحاً عظيما طار في الآفاق ذكره وطاب بها نشره وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء.

قال ابن الاثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد اللّه بن علي بن مهران الفقيه الشافعي، وكان من العلماء العاملين والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها، وله الكرامات الظاهرة، ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور عنده من الارتياح ما لم يروه أبدا، فلما قعد معهم قال: حدّثني بعض إخواني أن أتابك زنكي قد فتح مدينة الرها، وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا، ثم قال: ما يضرّك يازنكي ما فعلت بعد اليوم، يردد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم، فكان يوم الفتح،ثم إن

نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له: منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح، وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا.

قال: وحكى لي بعض العلماء بالأخبار والأنساب، وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرهاسير ملك الفرنج هذا جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس، وهو شبيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يافقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرتهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها، فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لاتضحكوا فوالله ما قال عن غير علم، واشتدّ هذا على الملك فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدّة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر لعلوّ منزلة الرها عند النصرانية.

قال وحكى لي أيضا غير واحد ممن أثق إليهم أن رجلا من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الّله بك؟ فقال: غفر لي، قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرها.

قلت: وهنأه القيسراني عند فتح الرها بقصيدة أوّلها

هو السيف لايغنيك إلاّ جلاده
وهل طوق الاملاك إلاّ نجاده

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا
سناها وإن فات العيون اتقاده

سمت قبة الاسلام فخراً بطوله
ولم يك يسمو الدين لولا عماده

وزاد قسيـــم الــديـــن ابـــن قسيمهـــا
عـــن اللّـــه مـــا لا يستطـــاع زيـــاده
ليهـــن بنـــي الايمان أمـــن تـــرفعـــت
رواسيـــة عـــزاً واطمـــأن مهـــاده
وفتـــح حـــديـــث في السماع حـــديثـــه
شهـــي إلى يـــوم المعـــاد معـــاده
أراح قلـــوبـــا طـــرن عـــن وكنـــاتها
عليهـــا قـــوافي كـــل صـــدر فـــؤاده
لقـــد كـــان في فتـــح الـــرهـــاء دلالـــة
على غير مـــا عنـــد العلـــوج اعتقـــاده
يـــرجـــون ميـــلاد ابـــن مـــريـــم نصرة
ولم يغـــن عنـــد القـــوم عنـــه ولاده
مـــدينـــة أفـــك منـــذ خمسين حجـــة
يفـــلّ حـــديـــد الهنـــد عنهـــا حـــداده
تفـــوت مـــدى الأبصـــار حتـــى لـــو أنها
تـــرقـــت إليـــه خـــان طـــرفـــا ســـواده
وجـــامحة عـــز الملـــوك قيـــادهـــا
إلى أن ثنـــاهـــا مـــن يعـــز قيـــاده
فـــأوسعهـــا حـــرّ القـــراع مـــؤيـــد
بصير بتمـــريـــن الألـــدّ لـــداده
كـــأنّ سنـــا لمع الأسنـــة حـــولـــه
سرار ولكـــن في يـــديـــه زنـــاده
فـــأضرمهـــا نـــاريـــن حـــرب وخـــدعـــة
فما راع إلا ســـورهـــا وانهداده
فصـــدّت صـــدود البكـــر عنـــد افتضـــاضهـــا
وهيهـــات كـــان السيـــف حتما نفـــاده
فيـــا ظفـــر عـــم البـــلاد صـــلاحـــه
بمـــن كـــان قـــد عـــم البـــلاد فســـاده

فـــلا مطلـــق الا وشـــدّ وثـــاقـــه
ولا مـــوثـــق إلّا وحـــل صفـــاده
ولا منبر إلاّ تـــرنـــح عـــوده
ولا مصحـــف إلاّ أنـــار مـــداده
فـان يثكـل الابـرنـز[٤٢] فيهـا حيـاتـه
وإلاّ فقـــل للنجـــم كيـــف سهـــاده
وبـــاتـــت سرايـــا القمـــص تقمـــص دونها
كما يتنـــزاعـــن حـــريـــق حـــراده
إلى أيـــن يـــا أسر الضـــلالـــة بعـــدهـــا
لقـــد ذلّ غـــاويكـــم وعـــز رشـــاده
رويـــدكـــم لا مـــانـــع مـــن مظفـــر
يعـــانـــد أسبـــاب القضـــاء عنـــاده
مصيـــب سهـــام الـــرأي لـــو أن عـــزمـــه
رمـــى ســـد ذي القـــرنين أصمـــى ســـداده
وقـــل للمـــلوك الكفـــر تسلـــم بعـــدهـــا
ممـــالكهـــا إن البـــلاد بـــلاده
كـــذا عـــن طـــريق الصبـــح فلينتـــه الـــدجـــى
فيـــاطـــالما غـــال الظـــلام امتـــداده
ومـــن كـــان امـــلاك السمـــوات جنـــده
فـــأيـــة أرض لم تـــرضهـــا جيـــاده
وللّـــه عـــزم مـــاء سيحـــان ورده
وروضـــة قسطنطينيـــة مستراده

وله من قصيدة هنأ بها القاضي كمال الدين بن الشهر زوري أوّلها:
هـــي الجنـــة المأوى فهـــل مـــن خـــاطـــب..

يقول فيها:
إن الصفـــائح يـــوم صـــافحـــت الـــرهـــا
عطفـــت عليهـــا كـــل أشـــوس نـــاكـــب

فتح الفتوح مبشراً بتمامه
كالفجر في صدر النهار الآيب
لله أية وقفة بدرية
نصرت صحائبها بأيمن صاحب
ظفر كمال الدين كنت لقاحه
كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمدّكم جيش الملائك نصرة
بكتائب محثوثة بكتائب
جنبوا الدبور وقد تمم ريح الصبا
جند النبوّة هل لها من غالب
أترى الرها الورهاء يوم تمنعت
ظنت وجوب السور سورة لاعب
لا أين يا أسرى المهالك بعدها
إن الدروب على الطريق اللاحب
أفغرّكم والثار رهن دمائكم
ما كان من اطراق لحظ الطالب
وإذا رأيت الليث يجمع نفسه
دون الفريسة فهو عين الواثب

وقال ابن منير:
صفات مجدك لفظ جلّ معناه
فلا استردّ الذي اعطاكه اللّه
يا صارماً بيمين اللّه قائمه
وفي أعالي أعادي اللّه حدّاه
أصبحت دون ملوك الأرض منفردا
بلا شبيه إذا الأملاك أشباه
فداك من حاولت مسعاك همته
جهلا وقصر عن مسعاك مسعاه

قـــل لـــلاعـــادي ألا مـــوتـــوا بـــه كمـــد
فـــاللّـــه خيبكـــم واللّـــه أعطـــاه

ملـــك تنـــام عـــن الفحشـــاء همتـــه
تقـــى وتسهـــر للمعـــروف عينـــاه

مـــازال يمســـك والأيـــام تخدمـــه
فيها ابتـــلاه وتـــدني مـــا تـــوخـــاه

حتـــى تعـــالـــت عـــن الشعـــرى مشـــاعـــره
قـــدرا وجـــاوزت الجوزاء نعـــلاه

وقـــد روى النـــاس أخبـــار الكـــرام مضـــوا
وأيـــن ممـــا رووه مـــا رأينـــاه

أيـــن الخلاف عـــن فتـــح أتيـــح لـــه
مظلـــل أفـــق الـــدنيـــا جنـــاحـــاه

على المنـــابـــر مـــن أنبـــائه أرج
مقطـــوبـــة بفتيـــتـــة المســـك ريـــاه

فتـــح أعـــاد على الاســـلام بهجتـــه
فـــافتر مبسمـــه واهتـــز عطفـــاه

يهدي بمعتصـــم بـــاللـــه فتكتـــه
حـــديثهـــا نســـخ الماضي وأنســـاه

إن الـــرهـــا غير عمـــوريـــة وكـــذا
مـــن رامهـــا ليـــس مغـــزاه كمغـــزاه

أخـــت الكـــواكـــب عـــزامـــا بغـــى أحـــد
مـــن الملـــوك لها وقها [٤٤] فـــواتـــاه

حتـــى دلفـــت لها بـــالعـــزم يشحـــذه
رأي يبيـــت فـــويـــق النجـــم مسراه

مشمـــرا وبنـــو الاســـلام في شغـــل
عـــن بـــدء غـــرس لهم أثمار عقبـــاه

يـــا محيـــي العـــدل إذ قـــامـــت نـــوادبـــه
وعـــامـــر الجود لما امّـــح مغنـــاه

يـا نعمة اللّه يستصفي المزيد بها
للشاكرين ويستقني صفاياه
أبقاك للدين والدنيا تحوطهما
من لم يتوّج هذا التاج إلاّ هو

ولابن منير من قصيدة تقدّم بعضها:

أيا ملكا ألقى على الشرك ككلا
أناخ على آماته كلكل الثكل
جمعت إلى فتح الرها سدّ بابه
بجمعك بين النهب والاسر والقتل
هو الفتح أنسى كل فتح حديثه
وتوج مسطور الرواية والنقل
فضضت به نقش الخواتم بعده
جزيت جزاء الصدق عن خاتم الرسل
تجرّدت للاسلام دون ملوكه
تبثك أسباب المذلة والخذل
أخو الحرب غذته القراع مفطما
يشوب باقدام الفتى حنكة الكهل

وله من قصيدة أخرى:

بعماد الدين أضحت عروة الدين معصوبا بها الفتح المبين
واستزادت بقسيم الدولة القسم من ادحاض كيد المارقين
ملك اسهر عينا لم يزل همها تشريد همّ الراقدين
لاخلت من كحل النصر فقد فقأت غيضا عيون الحاسدين

كل يوم مر من أيامه
فهو عيد عائد للمسلمين
لو جرى الانصاف في أوصافه
كان أولاها أمير المؤمنين
ما روى الراوون بل ما سطروا
مثل ما خطت له أيدي السنين
إذا ناخ الشرك في أكنافه
بمئي ألف تلاها بمئين
وقعة طاحت بكلب الروم من
قطعة البين إلى قطعة الوتين
إن حمت مصر فقد قام لها
واضح البرهان إن الصين صين
والرها لو لم تكن إلاّ الرها
لكفت حسماً لشك الممترين
هم قسطنطين أن يفرعها
ومضى لم يحو منها قسطنطين
ولكم من ملك حاولها
فتحلا الحين وسما في الجبين
هي أخت النجم إلاّ أنها
منه كالنجم لرأي المبصرين
زارها يزأر في أسد وغى
تبدل الأسد من الزأر الأنين
صولجوا بالبيض بضرب نثـ
ـر الهام في ساحاتها نثر الكرين (٤٥)
يا لها همة ثغر أضحكت
من بني القلف ثغور الشامتين
برنست رأس برنس ذلة
بعد ما جاست حوايا جوسلين

سروج مــــــذ وعـــــت أسراجـــــه
فـــــرقـــت جماعهـــــاعنهـــــاعضين
تلـــك أقفـــال رمـــاهـــا اللّـــه مـــن
عـــــزمـــــه الماضي بخير الفـــاتحين
شـــام منـــه الشـــام بـــرقـــاودقـــه
مـــــؤمـــــن الخوف مخيـــــف الآمنين
كـــم كنيـــس كنســـت قـــدرامهـــا
منـــه بعـــد الـــروح في ظـــل السفين
دنـــت الآجـــال مـــن آجـــالها
فـــأحلتهـــا القطـــا بعـــد القطين
ومنـــــار يجتلى صلبـــــانـــــه
بين بيـــض تتبـــارى في البريـــــن
قـــرعتـــه البيـــض حتـــى بـــدّلـــت
قـــرعـــة النـــاقـــوس تثـــويـــب الأذيـــن
بـــالقسيميـــات مقســـوم لها الـــــ
ـــــدهر في علـــك لجين أو لحين
سبـــل بها حـــرّان كـــم حـــرّى سقـــت
بـــردامـــن يـــوم ردت مـــارديـــن
شمطـــت أمـــس شميشـــاط بها
نظـــم جيـــش منهـــج للنـــاظـــريـــن
وغـــــدا يلقـــي على القـــدس لها
كلكـــل يـــدرسهـــا درس الـــدريـــن
همة تمسي وتضحـــي عـــزمـــة
ليـــس حصـــن إن نحتـــه بحصين
قـــل لقـــوم غـــرّهـــم امهـــالـــه
ستـــذوقـــون شـــذاه بعـــد حين
إنـــه الموت الـــذي يـــدرك مـــن
فـــرّ منـــه فشجـــا اللغـــافلين

وهـــو يحيـــى ممسكـــا عـــروتـــه
إنها حبـــل لمن تـــاب متين
مـــن يطـــع ينـــج ومـــن يعـــص يكـــن
مـــن غـــداة عبرة لـــلآخـــرين
بـــك يـــا شمـــس المعـــالي ردّت الـــ
ـــروح في الميتين مـــن دنيـــا ودين
أقســـم الجدّ بـــأن تبقـــى لكـــي
تملـــك الأرض يمينـــا لا يمين
وتفيـــض العـــدل في أقطـــارهـــا
منسيـــا مـــؤلم عســـف الجائريـــن
لا تـــزل دارك كيـــف انتقلـــت
كعبـــة محفـــوفـــة بـــالطـــائفين
كـــل يـــوم يتحلى جيـــدهـــا
مـــن نظيـــم المدح بـــالـــدرّ الثمين
كلما أخلـــص فيهـــا دعـــوة
لـــك قـــالـــت ألســـن الخلـــق آمين

فصل

لما فرغ الشهيد من أخذ الرها واصلاح حالها والاستيلاء على ماوراءها من البلاد والولايات، سار إلى قلعة البيرة، وهي حصن حصين مطل على الفرات، وهو لجوسلين أيضا فحصره وضايقه فأتاه الخبر بقتل نائبه بالموصل والبلاد الشرقية نصير الدين جقر بن يعقوب، فرحل عنها خوفا من أن يحدث بعده في البلاد فتق يحتاج إلى المسير إليها، فلما رحل عنها سير اليها حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي صاحب ماردين عسكراً فسلمها الفرنج إليهم خوفا من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها.

وكان قتل النصير في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين ، وسببه أن الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان مسعود، وأصحاب

الأطراف يرون أن البلاد التي بيده للملك ألب أرسلان وأنه نائبه فيها، وكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب عن رسالة فإنما يقول: قال الملك: كذا وكذا، وكان ينتظر وفاة الملك مسعود، ليجمع العساكر باسمه ويخرج الأموال ويطلب السلطنة فعاجلته المنية قبل ذلك، وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة، وبها نصير الدين، وهو ينزل إليه كل يوم يخدمه ويقف عنده ساعة، ثم يعود ،فحسن المفسدون للملك قتله وقالوا له: إنك إن قتلته ملكت الموصل وغيرها، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ولايجتمع معه فارسان عليك، فوقع هذا في نفسه، وظنه صحيحاً، فلما دخل نصير الدين إليه على عادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه وألقوا رأسه إلى أصحابه ظنا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرّقوا ويملك الملك البلاد، وكان الأمر بخلاف ما ظنوا، فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء، وكان من جملة من حضر القاضي تاج الدين يحيى بن عبد اللّه بن القاسم الشهرزوري أخو كمال الدين، فدخل إلى السلطان وخدعه حتى أصعده إلى القلعة وهو يحسن له الصعود إليها،وحينئذ يستقرّ له ملك البلد، فلما صعد القلعة سجنوه بها وقتل الغلمان الذين قتلوا النصير، وأرسلوا إلى أتابك يعرّفونه الحال فسكن جأشه، واطمأن قلبه وأرسل زين الدين علي ابن بكتكين والياً على قلعة الموصل، وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه فسلك بالناس غيرالطريق التي سلكها النصير وسهل الأمر فاطمأن الناس، وأمنوا وازدادت البلاد معه عمارة، ولما رأى الشهيد صلاح أمر الموصل سار إلى حلب فجهز منها جيشا إلى قلعة شيزر، وبينها وبين حماه نحو أربعة فراسخ فحصرها.

قلت : كذا وقع في كتاب ابن الاثير، وقد وهم من قوله ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فالخفاجي غير ألب أرسلان على ماذكره العماد

الكاتب في كتاب السلجوقية، فإنه قال: كان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أحدهما يسمى ألب أرسلان، وهو في معقل من معاقل سنجار، والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجي وهو بالموصل، وكان هذا الملك مسلما إلى الأمير دبيس بن صدقة، فانتزعه منه زنكي في حرب جرت، فكانت زوجة زنكي خاتون السكمانية تربيه حتى بلغ، وكان النصير يقبض عنانه ويبسط فيه لسانه ويقول: إن عقل وإلاّ عقلته، وإن ثقل طبعه وإلاّ ثقلته، فدبر في قتله مع أصحابه فقطعوه في دهليز داره لما دخل للسلام على الملك، ثم أصعد القاضي تاج الدين الملك إلى القلعة فلم ير له أثر والتقط مماليكه.

ثم عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله، وعنى بتفاصيل أمره وجمله وضرب له نوبتيه ونوبا، ورتب له في حالتي ركوبه وجلوسه رتباً، وأغرى بتولي إكرامه وتوخيه وغرضه خفاء ماجرى من هلاك أخيه، ثم ذكر قصة موت زنكي على قلعة جعبر كما سيأتي(٤٦)

وفي سنة أربعين وخمسمائة أرسل أتابك إلى زين الدين علي يأمره بارسال عسكر إلى حصن فنك يحصره ،فسير خلقاً كثيراً من الفرسان والرجالة فأقاموا عليه يحصرونه إلى أن أتاهم الخبر بقتل الشهيد أتابك، وهذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر، وهو للأكراد البشنوية، وله معهم مدة طويلة يقولون نحو ثلاثمائة سنة ،وهو من أمنع الحصون مطل على دجلة وله سرب إلى عين ماء لايمكن أن يحال بين أهله وبينها.

قلت : وفي هذه السنة أنشد ابن منير بالرقة عماد الدين زنكي يهنيه بالعافية من مرض عرض له في يده ورجله قصيدة أوّلها:

يـــــابـــــدر لاأفـــــل ولامحاق
ولا يـــــرم مشرقـــــك الاشراق

بــالــديــن والــدنيــا الــذي يشكــو وهــل
يهتــــز فــــرع لم يقمــــه ســـاق

لـــن تــورق القضـــب ويجري مــاؤهـــا
إلاّ إذا مـــا التـــاثـــت الأعـــراق

إنّ الـــرعـــايـــا مـــا سلمـــت في حمى
للخطـــب عـــن طـــروقـــه إطـــراق

غـــرســـت بـــالعــــدل لهم خمائلا
تـــرتـــع في حـــديقهـــا الأحـــداق

يـــا هضبـــة الـــديـــن التـــي عـــاذ بها
فعـــاد لا بغتـــا ولا ارهـــاق

لـــو لم تحطـــه راحـــلا وقـــافـــلا
أصبـــح لا شـــام ولا عـــراق

عماد ديـــن مـــذ أقـــام زيغـــه
حيـــى ومـــات الشرك والنفـــاق

يـــا محيـــي العـــدل الـــذي في ظلـــه
تسربلـــت زينتهـــا الآفـــاق

يفـــديـــك مـــن لان مهـــاد جبينـــه
لما نبـــا يجنبـــك الاقـــلاق

مـــن يشـــأ سيفـــك أنبطـــت لـــه الـــ
ـــعذب ومـــاء عيشـــه زعـــاق

تجرّع الســـم ولـــو لم تحمـــه
بحـــده لعـــزه الـــدريـــاق

ملـــوك أطـــراف حمى أطـــرافهـــا
عـــزمـــك هـــذا الـــلاحـــق السبـــاق

لـــو لم تـــرق مـــاء كـــرى العين لما
ســـاغـــت بـــأفـــواههـــم الاريـــاق

شققـــت مـــن دونهم مـــرج الـــردا
وشـــق أكبـــادهـــم الشقـــاق

أقسم لو كلفتهم أن يسمعوا
حديث أيامك ما أطاقوا

لما اشتكيت دبّ في أهوائهم
توجس للسمع واستراق

تطاولوا لا عدمت أمالهم
قصراولا جانبها الاخفاق

توهموها غنقا ثم انجلت
والصفو من مشربهم غساق

لئن ألمّ ألم بقدم
خد السها لنعلها طراق

أو كان مدّ يده إلى يد
يجري بها الآجال والأرزاق

فالنصل يعلى صدأ وتحته
حد الحسام وسنا رقراق

رمى الصليب بصليب الرأي عن
زوراء أوهى نزعها الاغراق

ونوم من خلف الخليج سهر
والعيش في فرنجة سياق

ماتوا فلا همس ولا اشارة
خوف هموس زاره ارهاق

لاسلبت منك الليالي ماكست
ولا عرت جدّتك الاخلاق

فصل

في وفاة زنكي رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب، فلم تزل

بيده ويد أولاده إلى سنة احدى وأربعين، فسار الشهيد إليها فحصرها وحصر فنك لئلا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره، وإن قل، للحزم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع خمس ليال، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق، ثم ختم الله له بالشهادة أعماله:

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا
أنّ الحمام سيبتلى بحمام

فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل، وتخلى عنه العبيد والخول، فأي نجم للاسلام أفل، وأيّ ناصر للايمان رحل، وأي بحر ندى نضب، وأي بدر مكارم غاب، وأي أسد افترس، ولم ينجه قلة(٤٧) حصن ولا صهوة فرس، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدبها في حفظه وحراسته، فأتاه مبيد الأمم ومفنيها في الحدث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهورا، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا، رهين جدث لاينفعه إلا ما قدم، فطويت صفحة عمله، فهو موثوق في صورة مستسلم، ثم دفن بصفين عند أصحاب عليّ أمير المؤمنين رضي الله عنه.(٤٨)

قلت: وذكر العماد الكاتب في كتاب السلجوقية قال: قصد زنكي حصار قلعة جعبر ، فنازلها وكان إذا نام ينام حوله عدّة من خدّامه الصباح، وهو يحبهم ويحبوهم ولكنهم مع الوفاء منه يجفوهم، وهم أبناء الفحول القروم من الترك والروم، وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه، وأقصاه، واستبقى ولده عنده وأخصاه. فنام ليلة موته وهو سكران فشرع الخدّام في اللعب فزجرهم وزبرهم وتوعدهم، فخافوا من سطوته،

فلما نام ركبه كبيرهم واسمه يرنقش فذبحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرس النوبة موهما أنه يمضي في مهم، وهو لايرتاب به لانه خاص زنكي، فأتى الخادم أهل القلعة فأخبرهم.وذكر الحديث(٤٩)

قلت: ثم نقل إلى الرقة فدفن بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الاثير: وكان حسن الصورة، مليح العينين، قد وخطه الشيب، طويلا وليس الطويل البائن، وخلف من الاولاد سيف الدين غازيا وهو الذي ولي بعده، ونور الدين محموداً الملك العادل، وقطب الدين مودوداً، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصرة الدين أمير أميران، وبنتا فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والأناث، ونور الدين من الذكور، ولم يبق الملك إلا في عقب قطب الدين، ولقد أنجب رحمه الله، فان أولاده الملوك لم يكن مثلهم،.

قلت: ومن عجيب ما حكي أنه لما اشتدّ حصاره قلعة جعبر جاء في الليل ابن حسان المنبجي، ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد وقد نزل عليك بعساكر الدنيا، وأنت بلا وزير ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وآخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأي شيء تنتظر؟ فقال له صاحب القلعة : أنتظر الذي انتظر أبوك، وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدّ حصار، ونصب عليه عدّة مجانيق ، وقال يوما لحسان وقد أحرقه بحجارة المنجنيق أي شيء تنتظر أما تسلم الحصن ؟ فقال له حسان: انتظر سهما من سهام الله، فلما كان في الغد بينا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم غرب وقع في لبته فخر ميتاً، ولم يكن من جسده شيء ظاهر إلا ذلك المكان لأنه كان قد لبس الدرع، ولم يزرّها على صدره، فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه، وفي تلك الليلة قتل أتابك،

فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغـريبة ، ذكر ذلك يحيى بن أبي طيّ في كتاب السيرة الصلاحية.

فصل

في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي

وكانـت من أحسـن سير الملوك، وكانـت رعيته في أمـن شامـل يعجز القوي عن التعدّي على الضعيف.

قال ابـن الاثير: حدثنـي والدي قـال: قدم الشهيـد إلينا بجـزيرة ابـن عمر في بعض السنين، وكـان زمن الشتاء فنزل بالقلعـة، ونزل العسكر في الخيام وكان في جملـة أمرائه الأمير عز الديـن أبو بكر الدبيسي، وهـو من أكابـر أمرائه ومـن ذوي الرأي عنـده، فدخـل الدبيسي البلـد ونزل بـدار إنسان يهودي وأخرجـه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشهيـد، وهو راكب فسأل عن حالـه فأخبر به، وكان الشهيد واقفاً والـدبيسي إلى جانبه ليس فـوقه أحـد فلما سمـع أتابـك الخبر نظـر إلى الـدبيسي نظر مغضـب، ولم يكلمه كلمـة واحدة فتـأخر القهقـرى ودخل البلـد وأخرج خيـامه وأمـر بنصبهـا خارج البلـد، ولم تكن الأرض تحتمـل وضع الخيـام عليها لكثـرة الوحـل والطين، قال: فلقـد رأيت الفـرّاشين وهم ينقلـون الطين لينصبوا خيمتـه فلما رأوا كثرتـه جعلوا على الأرض تبنـا ليقيموهـا، ونصبوا الخيـام وخرج إليها من ساعته.

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتنـاء الأملاك ويقول مهما كانت البلاد لنـا فأي حـاجـة لكـم إلى الأملاك، فـان الاقطـاعـات تغني عنهـا، وإن خـرجت البـلاد عن أيـدينـا فإن الأمـلاك تـذهب معهـا، ومتى صـارت

الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدّوا عليهم وغصبوهم أملاكهم، ثم ذكر ما تجدّد في أيامه من عمارة البلاد لاسيما بالموصل، وذلك لحسن سيرته، فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دار إقامة، وهو الذي أمر ببناء دار المملكة بالموصل، ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان، ثم رفع سورها، وعمق خندقها، وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب.

قال: وكانت الموصل أقل بلاد اللّه فاكهة، وكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقص به العنب لقلته إذا أراد أن يزنه، فلما عمرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها.

قال: ومن أحسن آرائه أنه كان شديد العناية بأخبار الاطراف، وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، لاسيما دركاه السلطان، وكان يغرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد وغير ذلك، فكان يصل إليه كل يوم من عيونه عدّة قاصدين، وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدولة لايهمل الاطلاع على الصغير، وكان يقول :إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيرا.

وكان لايمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده أذن له وأرسل إليه من يسيره، ولايتركه يجتمع بأحد من الرعية ولاغيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئا.

وكان يتعهد أصحابه ويمتحنهم : سلم يوما خشكنانكة(٥٠)إلى طشت دار له، وقال: احفظ هذه فبقي نحو سنة لايفارق الخشكنانكة خوفاً أن يطلبها منه، فلما كان بعد ذلك قال له: أين الخشكنانكة،

فأخرجها في منديل وقدّمها بين يديه، فاستحسن ذلك منه وقال: مثلك ينبغي أن يكون مستحفظا لحصن، وأمر له بدزداريه قلعة كواشي، فبقي فيها إلى أن قتل أتابك، وكان لايمكن أحداً من خدمه من مفارقة بلاده، ويقول: إن البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدلّ على عورتها ويطمع العدوّ فيها زالت الهيبة، وتطرّق الخصوم إليها.

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سير طائفة من التركمان الايوانية مع الأمير اليارق إلى الشام ، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج وملكهم كلما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكالهم، فكانوا يغادون الفرنج القتال ويراوحونهم، وأخذوا كثيرا من السواد، وسدّوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة.

قال: ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل، وبعضها بسنجار، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استعنت على سدّ الخرق بالمال في غيره .

قال: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيهما، وبه كانت تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جملة أن ولايته أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها، بيت سكمان وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا، وابن عمه صاحب ماردين، ثم الفرنج، ثم صاحب دمشق، وكان ينتصف منهم ، ويغزو كلا منهم في عقر داره، ويفتح بلادهم ماعدا السلطان مسعود فإنه كان لايباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً

إليـه، وطلب منـه أن يجمعهم على طـاعته، فيصير كـالحاكم على الجميـع وكل يداريه ويخضع له ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده.

قـال: وأمّـا غيرته فكـانـت شـديـدة، ولاسيما على نساء الأجنـاد فـإن التعرّض إليهن كـان من الذنوب التـي لايغفرها، وكان يقـول: إن جندي لايفـارقوني في أسفـاري، وقلمايقيمون عنـدأهلهـم، فإن نحـن لم نمنع مـن التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن.

قلت:وفي صحيح مسلـم من حديث أبي سعيد الخدري وذكـر حديث رجم النبـي صلى الله عليـه وسلم ماعـزا، قال: ثـم قام رسـول الله صلى الله عليـه وسلم خطيباً قال:« أو كلما انطلقنـا في سبيل الله خلـف رجل في عيالنـا له نبيـب كنبيب التيـس على أن لا اؤتى بـرجل فعـل ذلك إلا نكلت به»(٥١).

قال ابـن الاثير: وكان قد أقـام بقلعة الجزيـرة دزداراً اسمه نور الـدين حسن البربطـي، وكان من خوّاصـه وأقرب الناس إليه، وكـان غير مرضي السيرة، فبلغـه عنـه أنه يتعـرّض للحـرم، فـأمـر حـاجبه صـلاح الـديـن الياغيساني أن يسير مجدّا ويدخل الجزيرة فـإذا دخلها أخذ البربطي وقطع عينيه عقـوبة لنظـره بهما إلى الحريم ثـم يصلبه، فسـار الصلاح مجداً فلـم يشعر البربطـي إلاّ وقد وصل إلى البلـد فخرج إلى لقـائه، فأكرمـه ودخل معه البلد وقال: المولى أتـابك يسلم عليك ، ويريد أن يعلي قـدرك ويرفع منزلتـك ويسلم إليـك قلعة حلب ويـوليك جميع البـلاد الشاميـة لتكون هناك مثل نصير الـدين، فتجهز وتحدّر مالـك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففـرح ذلك المسكين، فلم يترك له قليـلاً ولاكثيراً إلا نقله إلى السفن ليحـدرها إلى الموصـل في دجلة، فحين فرغ مـن جميع ذلـك أخذه الصلاح وأمضى فيـه ما أمربه، وأخذ جميـع ما له فلم يتجـاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله.

قال: وإما صدقاته، فقد كان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهراً ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به، وركب يوما فعثرت به دابته، فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته، وودّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ماذنبك؟ وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال فقالت له: إنّ نصير الدين له بك عناية فاذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به، فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك، فلم تزل زوجته تراجعه وتقوّي عزمه فعرّف النصير حاله فضحك منه، وقال له: خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فهي التي أراد ، فقال: اللّه اللّه في دمي ونفسي، فقال: لابأس عليك فإنه ماأراد غير هذه الصرّة فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم فأمره أن يتصدّق به، فلما فرغ من الصدقة قصد النصير وشكره وقال: من أين علمت أنه أراد الصرة ؟ فقال له: إنه يتصدّق في هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل إليّ من يأخذه من الليل وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض، وأرسلك إليّ فعلمت أنه ذكر الصدقة.

قال : وحكي لي من شدّة هيبته ما هو أشد من هذا، قال والدي: خرج يوما الشهيد من القلعة بالجزيرة من باب السر خلوه، وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية، وقال له: اقعد فحين رأى الشهيد سقط إلى الارض فحرّكوه فوجدوه ميتاً.

قال: وكان الشهيد قليل التلوّن والتنقل بطيء الملل والتغير شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلاّ بذنب يوجب التغير، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا هم الذين بقوا أخيرا من سلم منهم من الموت، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له، وكان الانسان إذا قدم عسكره لم يكن غريبا إن كان جنديا اشتمل

عليه الاجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالما قصد القضاة بني الشهرزوري فيحسنون إليه ويؤنسون غربته، فيعود كأنه أهل، وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

قلت: وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة:

في ذرا ملك هو الدهـ
ـر عطاء واستلابا

من له كف تبذ الغيـ
ـث سحا وانسكابا

فاتح في وجه كل
أمّة للنصر بابا

ترجف الدنيا إذا حر
ك للسير الركابا

وتخر المشمخرّا
ت اختلالا واضطرابا

وترى الاعداء من
هيبته تأوي الشعابا

وإذا ما لفحتهم نا
ره صاروا كبابا

يا عماد الدين لا زلـ
ـت على الدين سحابا

جاء علام من دونه
سيفك إن ريع حجابا

فالبس النعماء في الأمـ
ـن الذي طبت وطابا

وأصف عيشا إنّ أعـ
ـداءك قد صاروا ترابا

وقال العماد الكاتب: استولى زنكي على الشام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين ،وهو الذي فتح الرها عنوة، واحتلّ بها من السعادة ذروة، فتسنى بفتح الرها للمسلمين جوس بلاد جوسلين وعاد جميعها إلى الاسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقود الفرنج، من ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنتسخ، ومعاقلها تفرع، وعقائلها تفترع.

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت والمسالك، قد اختلت بعد الهيبة المشهورة والامنة المشكورة، وانطلقت أيدى التركمان والحرامية في فساد الأطراف، والعيث في سائر النواحي والأكناف، ونظمت في صفة هذه الحال أبيات من قصيدة:

كذاك عماد الدين زنكي تنافرت
سعادته عنه وخرت دعائمه

وكم بيت مال من نضار وجوهر
وأنواع ديباج حوتها مخاتمه

وأضحت بأعلى كل حصن مصونة
يحامي عليها جنده وخوادمه

ومن صافنات الخيل كل مطهم
يروع الأعادي حليه وبراجمه

فلو رامت الكتاب وصف شياتها
بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه

وكم معقل قد رامه بسيوفه
وشامخ حصن لم تفته غنائمه

وكانت ولاة الأرض فيها لأمره
وقد أمنتهم كتبه وخواتمه

وأمن من في كل قطر لهيبة
يراع بها أعرابه وأعاجمه

وظـــالم قـــوم حين يـــذكـــر عـــدلـــه
فقـــد زال عنهـــم ظلمـــه وخصـــائمـــه
وأصبـــح سلطـــان البـــلاد بسيفـــه
وليـــس لـــه فيهـــا نظير يـــزاحمه
وزاد على الامـــلاك بـــأســـا وسطـــوة
ولم يبـــق في الأمـــلاك ملـــك يقـــاومـــه
فلما تنـــاهـــى ملكـــه وجـــلالـــه
وراعـــت ولاة الارض منـــه لـــوائمـــه
أتـــاه قضـــاء لاتـــردّ سهـــامـــه
فلـــم تنجـــه أمـــوالـــه ومغـــانمـــه
وأدركـــه للحين فيهـــا حمامـــه
وحـــامـــت عليـــه بـــا لمنـــون حـــوائمـــه
وأضحـــى على ظهـــر الفـــراش مجدّلا
صريعـــا تـــولى ذبحـــه فيـــه خـــادمـــه
وقـــد كـــان في الجيـــش اللهـــام مبيتـــه
ومـــن حـــولـــه أبطـــالـــه وصـــوارمـــه
وسمـــر العـــوالي حـــولـــه بـــأكفهـــم
تـــذود الـــردى عنـــه وقـــد نـــام نـــائمـــه
ومـــن دون هـــذا عصبـــة قـــد تـــرتبـــت
بـــأسهمهـــا يـــردى مـــن الطير حـــائمـــه
وكـــم رام في الأيـــام راحـــة سرّه
وهمتـــه تعلـــو وتقـــوى شكـــائمـــه
وكـــم مسلـــك للسفـــر آمـــن سبلـــه
ومسرح حـــيّ لـــن تـــراع ســـوائمـــه
وكـــم ثغـــر اســـلام حـــواه بسيفـــه
مـــن الـــروم لما أدركتـــه مـــراحمه
فمـــن ذا الـــذي يـــأتي بهيبـــة مثلـــه
وينفـــذ في أقصـــى البـــلاد مـــراسمـــه

فلو رقيت في كل مصر بذكره
أراقمه ذلت هناك أراقمه

فمن ذا الذي ينجو من الدهر سالما
إذا ما أتاه الأمر والله حاتمه

ومن رام صفواً في الحياة فما يرى
له صفو عيش والحمام يحاومه

فإياك لا تغبط مليكاً بملكه
ودعه فإنّ الدهر لا شك قاصمه

وقل للذي يبني الحصون لحفظه
رويدك ما تبني فدهرك هادمه

وفي مثل هذا عبرة ومواعظ
بها يتناسى المرء ما هو عازمه

قال: وفي ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وصل الخادم يرنقش القاتل لعماد الدين زنكي وانفصل من قلعة جعبر لخوف صاحبها من طلبه، فوصل دمشق ميقنا أنه قد أمن بها، ومدلاً بما فعله وظناً منه أن الحال على ما توهمه فقبض عليه، وأنفذ إلى حلب في صحبة من حفظه وأوصله، فأقام بها أياما، ثم حمل إلى الموصل وذكر أنه قتل بها .

قلت : وللحكيم أبي الحكم المغربي قصيدة في مرثيه الشهيد عماد الدين زنكي رحمه الله منها:

عين لا تذخري المدامع وابكي
واستهلي دما على فقد زنكي

لم يهب شخصه الردى بعد أن كا
نت له هيبة على كل تركي

خير ملك ذي هيبة وبهاء
وعظيم بين الانام بزرك[٥٢]

يهب المال والجياد لمن يمـ
ـمه مادحا بغير تلكي

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

إن داراً تمدّنـــابـــالــــرزايـــا
هـــي عنـــدي أحــــق دار بترك
فـــاسكبـــوا فـــوق قبره مـــاء ورد
وانضحـــوه بـــزعفـــران ومســـك
أيّ فتـــك جـــرى لـــه في الأعـــادي
بعـــد مـــا استفتـــح الـــرهـــا أيّ فتـــك
كـــل خطـــب أتـــت بـــه نـــوب الـــدهـــ
ـــر يسير في جنـــب مصرع زنكـــي
بعـــدمـــا كـــاد أن تـــديـــن لـــه الـــرو
م ويحوي البـــلاد مـــن غير شـــك

فصل
فيما جرى بعد قتل زنكي من تفرّق أصحابه وتملك ولديه غازي ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى : توجه الملك ولد السلطان المقيم كان معه فيمن صحبه، وانضم إليه إلى ناحية الموصل ، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك، وامتنع عليهم الوالي بالموصل على كوجك أياما إلى حين تقرّرت الحال بينهم، ثم فتح الباب ودخل ولده واستقام له الأمر ، وانتصب منصبه، وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين.- يعني- محمد بن أيوب الياغيساني في تلك الحال إلى ناحية حلب ومعهما الأمير نور الدين محمود بن زنكي، وحصل بها وشرع في جمع العساكر، وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدهماء.

وفصل عنه الأمير صلاح الدين ، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمر يدبر عليه.

وقال الحافظ أبو القاسم : لما راهق نور الدين لزم خدمة والده إلى أن انتهت مدّته على قلعة جعبر.و سير في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرّر أمور الشام وأتوجه إليكم، ثم قصد حلب ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ورتب النواب في القلعة والمدينة.

قال ابن أبي طي الحلبي: لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين، وقال له: إعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل، وعوّل على تقديم أخيك سيف الدين

وقصده إلى الموصل وقد انضوى اليه جلّ العسكر، وقد أنفذ إليّ جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم أعرج عليه وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسي ملكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أنّ الأمر يصير جميعه إليك لأن ملك الشام يحصل بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق، فركب وأمر أن ينادي في الليل في عساكر الشام بالاجتماع فاجتمعوا، وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب ودخلوها سابع ربيع الأوّل، ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها وقرّر أمره ومشىّ أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك، وأسد الدين يمن بأنه كان السبب في توليته.

وقال ابن الأثير: لما قتل أتابك الشهيد ركب الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود، وكان مع الشهيد واجتمعت العساكر عليه وخدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصلاح يقول له المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ونسلك طريقا نبقي به الملك في أولاد صاحبنا،ونعمر بيته جزاء لإحسانه إلينا، فإن الملك قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، وحلف كل واحد منهما لصاحبه، فركب الجمال إلى الملك فخدمه وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه الصلاح وقالا له: إن أتابك كان نائباً عنك في البلاد وباسمك كنا نطيعه، فقبل قولهما وظنه حقا، وقرّ بهما طمعا أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه، وأرسلا إلى زين الدين بالموصل يعرّفانه قتل الشهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي وهو ولد عماد الدين زنكي الأكبر وإحضاره إلى الموصل، وكان بشهر زور وهي إقطاعه من أبيه، ففعل زين الدين ذلك، وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قتل والده إلى حلب فملكها وذلك باشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك.

وقال الجمال للملك: إنّ من الرأي أن تسير الصلاح إلى مملوكك نور

الدين بحلب يـدبر أمره، وكانت حماه إقطاع الصلاح فـأمره ، فسار وبقي الجمال وحـده مع الملـك فـأخـذه وقصد الـرقـة، فـاشتغل بشرب الخمـر والخلوة بـالنساء، وأراد أن يعطـي الأمراء شيئـا فمنعه خـوفا مـن أن تميل قلـوبهم إليـه، وقـاد لهم الاقطـاع الجزيـل والنعـم الـوافـرة، وشرع الجمال يستميل العسكر ويحلـف الأمراء لسيف الديـن بن أتابك الشهيـد واحداً بعد واحـد،وكل مـن حلف يأمـره بالمسير إلى الموصل هـاربا مـن الملك، وأقام بـالملك في الرقـة عدّة أيام، ثـم سار بـه نحو سنجار، وكـان سيف الـدين غـازي قد دخـل الموصـل واستقرّ بها، فقـوي حينئذ جنـان جمال الـديـن ، ووصل هـو والملـك إلى سنجـار،فـأرسـل إلى دزدارها وقـال لـه لاتسلم البلد ولا تمكـن أحداً من دخولـه، ولكن أرسل إلى الملك وقـل له إنا تبع الموصـل فمتى دخلت الموصل سلمت إليك ففعـل الدزدار ذلك، فقال الجمال للملك: المصلحـة أننا نسير إلى الموصل فإن مملـوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد، فساروا عـن سنجار وكثـر رحيل العسكر إلى الموصـل هاربين مـن الملك فبقي في قلـة من العسكر، فسـاروا إلى مدينـة بلد، وعبر الملك دجلـة من هناك، فلما عبرها دخـل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الديـن أبا بكر الدبيسي إلى الملك في عسكـر وهو في نفر يسير فأخـذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به.

واستقر أمر سيف الـدين وأقر زين الدين على ما كـان عليه من ولاية الموصل ، وجعل الجمال وزيـره، وأرسلوا إلى السلطان مسعود فـاستحلفوه لسيف الـدين فحلـف له وأقـره على البلاد وأرسـل له الخلـع، وكان هـذا سيف الديـن قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيـام أبيه سفرا وحضرا وكـان السلطان يحبـه كثيراً ويـأنس بـه ويبسطـه، فلما خوطـب في اليمين وتقرير البلاد له لم يتوقف.

قال ابـن الاثير:فانظـروا إلى جمال الديـن وحسن عهـده وكمال مروءتـه

ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ، ولقد قلل من قال : الناس ألف منهم كواحد، وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين.

قال: ولما استقر سيف الدين في الملك أطاعه جميع البلاد ماعدا ما كان بديار بكر كالمعدن وحيزان وأسعرد، وغير ذلك فان المجاورين لها تغلبوا عليها.

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد، عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يراسله ويستميله فكلما طلب نور الدين شيئا أجابه إليه استمالة لقلبه، واستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي ومع كل واحد خمسمائة فارس فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه فترجل له وقبل الأرض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لم امتنعت من المجيء إليّ أكنت تخافني على نفسك والله ما خطر ببالي ما تكره، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ، فاطمأن نور الدين وسكن روعه، وعاد إلى حلب فتجهز وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده، وقال لاغرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين:

أيا خير الملوك أبا وجدًا
وأنفعهم حيا الغليل صاد

علوا وغلوا وقال الناس فيهم
شوارد من ثناء أو أحاد

وما اقتسموا ولا عمدوا بناهم
بمنصبك القسيمي العمادي

وهل حلب سوى نفس شعاع
تقسمها التمادي والتعادي

نفى ابن عماد الدين عنها الـ
شكاة فأصبحت ذات العماد

تبختر في كساء عدل وبذل
مدبجة التهائم والنجاد

وفي محرابها داود منه
يهذب حكمة آيات صاد

تجاوزت النجوم فأين تبغي
ترق فلا خلوت من ازدياد

فصل
فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والأفرنج المخذولين

قال ابن طي:في سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند، فخرج في يومه بعساكر أنطاكيةوقسم عسكره قسمين قسماً أنفذه إلى جهة حماه، وقسما أغار به على جهة حلب، وعاث في بلادها، وكان الناس آمنين، فقتل وسبى عالما عظيما وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها، ووصل الخبر إلى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدّ في السير ففاته الفرنج، وأدرك جماعة من الرجالة يسوقون الأسرى فقتلهم واستنقذ كثيراً مما كانت الفرنج أخذته، وسار مجنبا عن طريق الفرنج إلى أن شن الغارة على بلد ارتاح، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه ، وعاد إلى حلب مظفراً.

وقال ابن الاثير : لما قتل الشهيد سار مجير الدين صاحب دمشق في عسكر إلى بعلبك ،وحاصرهم وبها نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، فسلمها إليه وأخذ منه مالاً وملكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها.

وقال ابن أبي طي: اشتدّ صاحب دمشق في القتال، وصبر نجم الدين أيوب أحسن صبر ،فاتفق أن الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهل القلعة يستمدّون من البلد، فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتدّ الأمر فطلبوا الامان والمصالحة، فاستحلف صاحب دمشق نجم الدين وأقر له الثلث الذي كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها، ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يفسد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده،

ومال نور الـدين إلى مجد الدين أبى بكـر بن الدايه حتـى ولاه جميع أموره وجميع مملكته، فشق ذلك على أسد الدين.

قال الـرئيس أبـو يعلى: لما اتصل خبر موت زنكـي بمعين الديـن أنر شرع في التأهـب والاستعداد لقصـد بعلبك، وانتهاز الفـرصة فيهـا بآلات الحرب والمنجنيقات، فنزل عليها وضايقهـا ولم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيهـا قلة دعتهم إلى النـزول على حكمه، وكان الـوالي بها ذا حزم وعقل ومعـرفة بـالأمور ، فـاشترط ما قـام له بـه من اقطـاع وغيره، وسلم البلاد والقلعـة إليه، ووفى له بها قـرر الأمر عليه، وتسلـم ما فيه مـن غلة وآلـة في أيام مـن جمادى الأولى مـن السنة، وراسـل معين الـدين الـوالي بحمـص وتقررت بينـه وبينه مهـادنة ومـوادعة تعـودان بصلاح الأحـوال وعمارة الأعمال، ووقعت مراسلـة فيما بينه وبين صلاح الديـن بحماه وتقرر بينهما مثل ذلـك، ثم انكفأ بعـد ذلك إلى البلد عقيـب فراغه مـن بعلبك وترتيب من رتبه لحفظها والاقامة فيها.

قـال: ووردت الأخبـار في أيـام مـن جمادى الآخـرة مـن السنـة بـأن جوسلين جمع الأفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة من النصـارى المقيمين فيها فـدخلها واستـولى عليها وقتـل من فيهـا من المسلمين، فنهض نور الدين صاحـب حلب في عسكره ومن انضاف إليه مـن التركمان وغيرهـم،في زهـاء عشرة الآف فـارس ووقفـت الـدواب في الطرقات من شدّة السير، ووافوا البلد وقـد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه فهجموا عليهم، ووقـع السيف فيهم، وقتل من أرمن الـرها والنصارى من قتـل ، وانهزم إلى برج يقال له بـرج الماء فحصل فيه ابـن جولسين في تقدير عشرين فارسا من وجوه أصحابه، وأحدق بهم المسلمون وشرعوا في النقـب عليهم حتـى تعـرقب البرج فـانهزم ابـن جـولسين في الخفية مـن أصحابه وأخذ الباقون، ومحق بالسيف كـل من ظفر به من نصارى الرها، واستخلـص من كـان فيه أسيرا مـن المسلمين ونهب منها شيء كثير مـن

المال والاثـاث والسبـي، وانكفـأ المسلمـون بـالغنـائم إلى حلـب وسـائر الأطراف.

وقـال ابن الاثير: لما قتـل زنكـي كان جـوسلين الفـرنجـي الذي كـان صاحـب الرها في ولايته غـرب الفرات في تل بـاشر وما جاورها، فـراسل أهل الـرها، وكـان عامتهم مـن الأرمن ،وواعـدهم يومـاً يصل إليهـم فيه فأجـابوه إلى ذلك، فسار في عسكـره إليها وملكها، وامتنعت عليـه القلعة بمن فيهـا من المسلمين فقاتلهـم وجدّ في قتـالهم،فبلغ الخبر نور الـدين، وهـو يومئـذ بحلـب فسـار إليها بعسكـره، فهـرب جـوسلين ودخل نـور الديـن مدينة الـرها ونهبها وسبـى أهلها.وفي هذه الـدفعة نهبت وخـربت وخلت مـن أهلها، ولم يبـق منهم بها إلاّ القليـل، ووصل خبر الفـرنج إلى سيف الـدين غازي بـالموصل، فجهز العسـاكر إلى الـرها، فوصلـت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين.

قـال: ومن عجيـب ما جـرى أن نور الـديـن أرسل مـن غنائمهـا إلى الأمراء، وأرسـل إلى زين الـدين علي جملـة من الجواري فحملـن إلى داره، ودخل لينظر اليهـنّ ، فخرج وقد اغتسل، وهو يضحك فسئـل عن ذلك فقال: لما فتحنـا الرها مـع الشهيدكان في جملـة ما غنمـت جارية مـالت نفسي إليها، فعـزمت على أن أبيـت معها، فسمعـت منادي الشهيـد وهو يأمـر باعـادة السبي والغنـائم، وكان مهيبـاً مخوفا، فلـم أجسر على اتيانها وأطلقتها، فلما كـان الآن أرسل إليّ نـور الدين سهمـي من الغنيمـة، وفيه تلك الجارية فوطئتها خوفاً من العود.

قلت: للقيسراني قصيدة يمدح بها جمال الديـن وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها أوّلها:

أمـــا آن أن يـــزهـــق البـــاطـــل
وأن ينجـــز العـــدّة الماطـــل

إلى كـــم يغـــب ملـــوك الضـــلال
سيـــف بـــاعنـــاقهـــاكـــافـــل
فـــلا تحفلـــن بصـــوت الـــذئا
ب وقـــد زأر الاســـد البـــاســـل
وهـــل يمنـــع الـــديـــن الافتـــى
يصـــول انتقـــامـــا فيستـــاصـــل
أبـــا جعفـــر أشرقـــت دولـــة
أضـــاء لها بـــدرك الكـــامـــل
فـــامـــا نصبـــت لـــرفـــع اسمهـــا
فـــانكما الفعـــل والفـــاعـــل
ليهنـــك مـــا افـــرج النصر عنـــ
ـــه ومـــا نـــالـــه الملك العـــادل
فقـــل للحقـــاق الطـــريـــق الطـــريـــ
ـــق فقـــد دلـــف المقـــرم البـــازل
وجـــاهـــد في اللـــه حـــق الجهـــا
د محتســـب بـــالعلى قـــافـــل
وهـــل يمنـــع الســـور مـــن طـــالـــع
يشـــايعـــه القـــدر النـــازل
فـــان يـــك فتـــح الـــرهـــا لجة
فســـاحلهـــا القـــدس والســـاحـــل
فهـــل علمـــت علـــم تلـــك الـــديـــا
ر أن المقيـــم بها راحـــل
أرى القمـــص يـــأمـــل فـــوت الـــرمـــا
ح ولا بـــد أن يضرب الشـــائل
يقـــوي معـــاقلـــه جـــاهـــدا
وهـــل عـــاقـــل بعـــدهـــا عـــاقـــل
وكيـــف بضبـــط بـــواقـــي الجهـــا
ت لمن فـــات حسبتـــه الحاصـــل

ولابن منير من قصيدة في نور الدين:

ملك ما أذل بالفتح أرضا
قط إلا أعزها اغلاقه

والوها في الرها أزجى إليها
عارضا شيب الدجى ابراقه

جارت جأرة إليه فحلّ
عطلا من اعناقها اعناقه

تلك بكر الفتوح فالشام منها
شامه والعراق بعد عراقه

أين كان الملوك عن وجهها الطلـ
ـق يرينا اضاءة اطلاقه

سنة سنها أبوه بكلب الرو
م لما أظله ارهاقه

خافقا قلبه إلى أمل عا
جله دون نيله إخفاقه

قسمت راية المواضي القسيميـ
ـات وابتز من لهاه عراقه

وكذا أنت يا ابنه ما عدا من
خلقه فيك خصله خلاقه

وكفى البحر أنه ابن سحاب
ما ونى سحه ولا اصعاقه

لم يمت من سددت ثلمته يا
من على الدين كظه اشفاقه

كلما طن ذكرها منه في السمـ
ـع تكافى النافقاء نفاقه

وجهاد عن حوزة الدين لم يأ
ل له ركضه ولا انفاقه

وله فيه من قصيدة أخرى:

بنـــــور الــــديـــــن روض كـــــل محل
مـــن الـــدنيـــا وجـــدّد كـــل بـــال
أقـــام على ثنيـــة كـــل خـــوف
سهـــادا بـــات يكـــلأ كـــل كـــال
وصـــوّب عـــدلـــه في كـــل أوب
فعـــوّض عـــاطـــلا منـــه بحـــال
ينكـــس رأيـــه رأي المحـــامـــي
ويقتـــل خـــوفـــه قبـــل القتـــال
لقـــد أحصـــدت لـــلاســـلام عـــزا
يفـــوت سنـــامـــه يـــد كـــل قـــال
وأصبحـــت العـــواصـــم ملحفـــات
عصـــامـــا غير منتكـــث الحبـــال

فصل

وقفت على توقيع كتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذ وهو الملقب بالحافظ وعليه علامته ونصه:

الحمد لله رب العالمين

إلى القـاضي الأشرف أبي المجد علي بـن الحسـن بن الحسين البيسـاني، وهو والـد القاضي الفـاضل، وكان يـومئذ متولي القضـاء والحكم بمـدينة عسقلان.

قد انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قـوما من أهل ثغـر عسقلان حماه اللّه قـد صاروا يؤدون تـوقيعات بقبول أقوالهم مـن غير تزكية مـن شهوده المعـروفين بالتـزكية لهم، مـع كـونهم غيرمستوجبين لشهـادة، ولامستحقين لسماع القول، فأنكـر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عـالي أمره بأن لايسمع قـول شاهد، ولايتقـدّم لخطابـة ولا لصلاة بالنـاس ولا لتلاوة في

موضع شريف إلاّ من زكاه أعيان شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان وعدّ ثمانية أنفس :عبد الساتر بن عبد الرحمن، عبد العزيز بن مفضل، علي بن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت : وهذا أحسن ما يؤرخ عن إمام تلك الدولة المباينة للشريعة على ما سيأتي إن شاء اللّه تعالى.

وقال الرئيس أبويعلى: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أنر إلى أن استقرت الحال بينهما على أجمل صفة وأحسن قضية، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وشرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة إلى حلب في صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواص الأصحاب في النصف من ذي القعدة.

قال: وتوجه معين الدين إلى ناحية صرخد وبصرى بالخيل والرجل وآلات الحرب، ونزل على صرخد وبها المعروف بألتونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي الذي كان واليها أولا.

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الامينية قبلي الجامع بدمشق، قال: وكانت نفس التونتاش قد حدثته لجهله أنه يقاوم من يكون مستوليا على دمشق، وأن الأفرنج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صرخد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم، وتقرير أحوال الفساد معهم فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين، وراسل نور الدين في انجاده على الكفرة، فأجابه وكان مبرزاً بظاهر حلب في عسكره فثنى إليه

الأعنـة وأجـدّ المسير، فوصـل إلى دمشـق في التـاسع والعشريـن مـن ذي الحجة، فأقام أياما يسيرة .

ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فتوجه نـور الدين نحو صرخـد، ولم يشاهد أحسن مـن عسكره وهيئته وعـدتـه ووفور عـدتـه، واجتمـع العسكـران، وأرسل مـن بصرخـد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياما، وتسلم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطـة والمخاتلـة إلى أن يصل عسكـر الأفرنـج لترحيلهم، وقضـى الله تعالى وصول مـن أخبر بتجمع الفرنج واحتشادهم ونهوضهـم في فارسهم وراجلهم مجدين السير إلى نـاحية بصرى، وعليها فرقة وافـرة من العسكر محاصرة لها، فنهـض العسكر في الحال إلى نـاحيـة بصرى فسبقـوا الفرنـج إليها فحـالوا بينهم وبينهـا، ووقعت العين على العين فانهزم الكفـار وولوا الأدبـار، وتسلم معين الـديـن بصرى، وعـاد إلى صرخد فتسلمهـا، وعـاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم.

وفي هذا الـوقت وصـل ألتونتاش الـذي خرج مـن صرخد إلى الفـرنج بجهله وسخافـة عقله إلى دمشق من بـلاد الفرنج من غير أمـان ولاتقرير واستئذان توهما منه أنه يكرم ويصطنع بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام، فـاعتقل في الحال وطالبه أخـوه خطلخ بما جناه عليه مـن سمل عينيه، وعقـد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضـاة وأوجبوا عليـه القصاص فسمل كما سمل أخاه وأطلق إلى دار له بدمشق فأقام بها.

قلت :وقـد ذكر ابن منير وقعة بصرى هـذه وغيرها من الوقعـات التي يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدم بعضها منها:

أي شـأن أدركـت يـا نـور ديـن الـ ـــله أعيـى على الملـوك لحاقـه

نطـــق الحاســـدون بـــالعجـــز عـــن ملـــ
ـــــك محلى بـــــالنيرات نطـــــاقـــــه
غـــض أبصـــــارهـــــم لحاق جـــــواد
ليـــــس إلا إلى المعـــــالي سبـــــاقـــــه
ســـل بصيراكـــم أعتقـــت يـــوم بصرى
مـــن أســـارى الموت الـــزؤام عتـــاقـــه
كـــم عـــرام على العـــريمـــة شبـــت
ضـــاق منـــه على الصليـــب خنـــاقـــه
ولكـــــم هبـــــوة بهاب واختيـــــ
ـــــها لها صكـــت الأســـارى ربـــاقـــه
بســـط الـــذل فـــوق بسطـــة بـــاســـو
طـــا ولكـــن طـــواه عنـــه ارتفـــاقـــه

وفي هذه السنة ولد ببعلبك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وقيل في سنة فتح زنكي الرها.

قال أبويعلى : وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأوّل توفى الفقيه شيخ الاسلام أبو الفتح نصر اللّه بن محمد بن عبد القوي المصيصي بدمشق، كان بقية الائمة الفقهاء المفتين على مذهب الامام الشافعي، ولم يخلف بعده مثله.

وقال : وفي جمادى الآخرة تقرّرت ولاية حصن صرخد للأمير مجاهد الدين بزان بن مامين على مبلغ من المال والغلة، وشروط وأيمان دخل فيها وقام بها، واستبشر أهل تلك الناحية لما هو عليه من حب الخير والصلاح والتدين والعفاف.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوّال وهو مستهل نيسان أظلم الجوّ ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً بحيث كان ذلك كالغدوة بين العشائين، وبقيت السماء في عين

الناظريـن إليها كصفرة الورس، وكذلـك الجبال وأشجار الغوطـة وكل ما ينظـر إليه مـن حيـوان وجماد ونبـات، ثم جـاء في أثـر ذلـك من الـرعـد القاصف والبرق الخاطف والهدّات المزعجة والرجفـات المفزعة ماارتاع لها الشيـب والشبان فكيـف الـولدان والنسـوان، وقلقـت لـذلك الخيـول في مرابطها، وبقـي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخـرة، ثم سكن بقدرة اللّـه تعالى، وأصبـح على الأرض والاشجار وسـائر النبات غبـار في رقة الهواء بين البياض والغبرة.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الـدين أرتاح بالسيف وحصن بـارة وبصرفوث وكفر لاثـا، وكان الفـرنج قد طمعـوا وظنوا أنهم بعـد قتل الشهيـد يستردّون ما أخـذ منهم، فلما رأوا مـن نور الـدين هـذا الجدّ علموا أنّ ما أمّلوه بعيد.

فصل

في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم اللّه عنها

قال الـرئيس أبـو يعلى: وفي هذه السنة تـواصلت الاخبـار من نـاحية القسطنطينية وبـلاد الفرنـج والروم وما والاهـا بظهور ملـوك الافرنـج من بـلادهـم منهـم:الألمان والفنـش وجماعة مـن كبـارهـم في العـدد الـذي لايحصر لقصد بـلاد الاسلام بعـد أن نادوا في سـائر بلادهـم ومعاقلهـم: النفير النفير إليها والإسراع نحوهـا، وخلوا بلادهم وأعمالهم خاليـة شاغرة من حماتها والحفظـة لها، ثم استصحبـوا من ذخائرهـم وأموالهم وعـددهم الشيء الكثير الـذي لايحصـى بحيـث يقال إن عـدّتهم ألـف ألـف مـن الرجـالة والفرسان، ويقـال أكثر من ذلك، وغلبـوا على أعمال قسطنطينية واحتـاج ملكهـا إلى الـدخـول في مـداراتهم ومسـالمتهـم والنـزول على أحكـامهـم، وحين شـاع خبرهـم وأشتهـر أمـرهـم شرعـت ولاة الأعمال

المصاقبة لهم والأطراف الاسلامية القريبة منهم في التأهب للمدافعة لهم والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم لكي يمنعوهم من العبور والنفوذ إلى بلاد الاسلام، وواصلوا شنّ الغارات على أطرافهم واستحرّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير، وحلّ بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر إذا وجدوه ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة إثنتين وأربعين بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج، ويقال أنه بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع ، وصل تقدير ثلاثمائة ألف، وقصدوا البيت المقدس، وقضوا حجهم وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه، واختلفت الآراء بينهم فيما كانوا يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين فاستعد لحربهم فجاؤوا في تقدير خمسين ألفا ،ودنوا من البلاد ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعا ،فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربهم من الماء ، وزحفوا إلى البلاد بخيلهم ورجلهم ووقف المسلمون بازائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوّل، ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفتاك وأحداث البلد والمطوّعة والغزاة الجمّ الغفير، واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيموا

فيها، وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديما وحديثا منه ،واستشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم اتبع أوامر اللّه تعالى في كتابه الكريم، وقال: بعنا واشترى، وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى.

فصل

قلت: وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن ملك الالمان الفرنجي لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الأفرنج، وقصد دمشق فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي المالكي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي رحمهما اللّه، وكانا من خيار المسلمين، فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن: أما هؤلاء الروم؟ قال : بلى قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم اللّه فتقدّما فقاتلا حتى قتلا في مكان واحد رحمهما اللّه تعالى.

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها وهدّوا الفطائر، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال قد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور وباكروا الظهور إليهم في غد ذلك اليوم وهو الأحد، وزحفوا إليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره، بحيث لايني في جهادهم ولايثني عن ذيادهم، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم حتى تتهيأ الفرصة لهم إلى أن مالت الشمس إلى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم

إلى مكانه وبات الجند بإزائهم، وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم.

وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الأطراف تتابع، وباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم، وزال عنهم روعهم وثبتوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ بحيث تقع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل، ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدّة وتضاعفت العدّة، وانفصل كل فريق إلى مستقره في هذا اليوم وباكروهم من غد يوم الثلاثاء،وأحاطوا بهم في مخيمهم، ، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقا بالنشاب وحذفا بالاحجار، وقد احجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد، وظنّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفاً من المهاجمة، إلى أن يجدوا لحملتهم مجالا وليس يدنو منهم أحد إلاّ صرع برشقة أو طعنة، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضياع وجعلوا يقصدونهم في المسالك ،وقد أمنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عليها ، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير، وتواترت إليهم أخبار العساكر الاسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال شأفتهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التي حصلوا فيها غير الرحيل، فرحلوا سحر يوم الأربعاء التالي مفلولين.

وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم وسارعوا في آثارهم بالسهام بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير، ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم مالا عدد له ولاحصر يلحقه بحيث لها أراييح من جيفهم تكاد

تصرع الطيور في الجوّ وكانوا قد أحرقوا الربوة والقبة الممدودية في تلك الليلة، واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها اللّه عليهم ، وأكثروا من الشكر له تعالى على ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدّة فللّه الحمد على ذلك والشكر.

واتفق عقيب هذه الرحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قربة من دمشق للانجاد لها.

وقال ابن الاثير: خرج ملك الالمان من بلاد الافرنج في جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الفرنج إلى بلاد الشام ، فاتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ، ولايشك ملك الالمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعسكره.

قال: وهذا النوع من الفرنج هو أكثرهم عددا وأوسعهم بلاداً وملكهم أكثر عددا وعددا، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلا، فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغتكين، وليس له من الأمر شيء، وإنما كان الأمر إلى مملوك جدّه طغتكين، وهو معين الدين أنر، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر، وكان عاقلا دينا خيراً أحسن السيرة، فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأوّل، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم، وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربي الفندلاوي شيخ المالكية بدمشق، وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا خرج راجلاً، فرأى معين الدين فقصده وسلم عليه، وقال له: ياشيخ أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، قال: قد بعت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله، يعني قول اللّه تعالى:(إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة(٥٣))الآية وتقدّم فقاتل حتى قتل رحمه اللّه عند النيرب شهيداً.

وقوي أمر الفرنـج وتقدموا فنزلوا بالميـدان الأخضر، وضعف أهل البلد عن ردّهم عنه، وكـان معين الدين قد أرسل إلى سيف الـدين يستغيث به ويستنجده ويسأله القـدوم عليه ويعلمه شدّة الأمر، فجمع سيـف الدين عساكره وسـار مجداً إلى مدينة حمص،وأرسل إلى معين الدين يقـول له: قد حضرت ومعـي كل مـن يطيق حمل السـلاح مـن بلادي، فـإنّ أنا جئـت إليك ولقينـا الفرنج وليسـت دمشق بيد نـوابي وأصحابي وكانـت الهزيمة والعياذ بالله علينا لايسلم منا أحد لبعـد بلادنا عنا، وحينئذ تملك الفرنج دمشق وغيرهـا، فإن أردتم أن ألقـاهم وأقاتلهـم فتسلم البلد إلى مـن أثق إليه، وأنا أحلف لك إن كانت النصرة لنـا على الفرنج أنني لاآخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقـدار ما يـرحل العدوّ عنهـا، وأعود إلى بـلادي ،فماطله معين الديـن لينظر ما يكـون من الفرنـج، فأرسل سيـفالدينإلى الفـرنج الغرباء يتهـدّدهم ويعلمهم أنه علي قصدهم إن لم يـرحلوا ، وأرسل معين الديـن إليهم أيضا يقول لهم: قـد حضر ملك الشرق ومعه من العسـاكر مالا طـاقة لكـم به، فـإن أنتم رحلتـم عنا والاسلمـت البلد إليـه وحينئذ لاتطمعون في السـلامة منـه، وأرسل إلى فـرنج الشـام يخوفهم مـن أولئك الفرنـج الخارجين إلى بلادهـم ويقول لهم: أنتم بين أمـرين مـذمومين إن ملك هـؤلاء الفرنج الغـرباء في دمشق لايبقـون عليكم مـا بأيديكـم من البـلاد، وإن سلمت أنـا دمشق إلى سيـف الديـن فأنتـم تعلمون أنكـم لاتقدرون على منعه من البيت المقدس، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلـوا ملك الالمان عـن دمشـق، فأجـابوه إلى ذلـك وعلمـوا صدقـه واجتمعوا بملـك الالمان وخوفوه مـن سيف الدين وكثـرة عساكره وتتـابع أمداده وأنه ربما ملك دمشق، فلا يبقى لهم معـه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الـرحيل عـن دمشق فـرحل ورحـل فرنـج الساحـل وتسلموا حصـن بانياس مـن معين الدين وبقي معهـم حتى فتحه نور الـدين محمود رحمه الله، كما سنذكره.

فصل

قلت: وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله في تاريخه أن الفقيه الفندلاوي رؤي في المنام فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن (على سرر متقابلين)(٥٤) وقبره الآن يزار بمقابر باب الصغير من ناحية حائط المصلى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله، وأما عبد الرحمن الحلحولي فقبره في بستان الشعباني في جهة شرقه، وهو المسجد المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت، وكان مقامه في حياته في ذلك المكان رحمه الله، وقرأت قصيدة في شعر أبي الحكم الاندلسي شرح فيها هذه القصة منها:

بشطي نهر داريا ... أمور ما يواتينا

وأقوام رأوا سفك الدماء في جلق دينا

أتانا مائتا ألف ... عديداً أو يزيدونا

فبعضهم من أندلس ... وبعض من فلسطينا

ومن عكا ومن صور ... ومن صيدا وتبنينا

إذا أبصرتهم أبصرت ... أقواماً مجانينا

وجازوا المرج والتعديل أيضاً والميادينا

تخالهم وقد ركبوا ... فطائرها (٥٥) جرادينا

وبين خيامهم ضموا الخنازير والقرابينا

ورايـــات وصلبـــانـــا
على مسجـــد خـــاتـــونـــا

وقلنـــا إذ رأينـــاهـــم
لعـــل اللّـــه يكفينـــا

سها لهم معين قـــد
أعـــان الخلـــق والـــدينـــا

وفتيـــان تخالهم
لـــدى الهيجـــاء شيـــاطينـــا

فـــولـــوا يطلبـــون المر
ج مـــن شرقـــي جسرينـــا

ولكـــن غـــادروا اليـــأ
س تحت التراب مـــدفـــونـــا

وشيخـــا فنـــدلا ويـــا
فقيهـــا يعضـــد الـــدينـــا

وفتيـــانـــا تفـــانـــوا مـــن
دمشـــق نحـــو سبعينـــا

ومنهـــم مـــائتـــا علـــج
وخيـــل نحـــو تسعينـــا

وبـــاقيهـــم إلى الآ
ن مـــن القتـــل يفـــرّونـــا

وللعرقلة حسان في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج أولها:

عـــرّج على نجـــد لعلـــك منجـــدي
بنسيمهـــا وبـــذكـــر سعـــدى مسعـــدي

يقول فيها:

مـــن قـــاتـــل الافـــرنـــج دينـــا غيره
والخيـــل مثـــل السيـــل عنـــد المشهـــد

ردّ الامان بكل ندب باسل
ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومن السيوف بكل عضب أبيض
زمن العجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه
وغدا بحمده من شريعة أحمد

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك بوري جدّ مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين أوّل القصيدة:

الحق مبتهج والسيف مبتسم
ومال اعداء مجير الدين مقتسم
قدت الجياد وحصنت البلاد وأمّ
نت العباد فأنت الحل والحرام
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها
معاقد الحزم في أوساطها الحزم
حتى إذا ما أحاط المشركون بنا
كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا إلا من الاقبال في عدد
يؤود حاسبه والاعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا
أمواجه بأواسي اليأس تلتطم
وسست جندك والرحمن يكلؤه
سياسة ما يعفي أثرها ندم
وقفت في الجيش والاعلام خافقة
بالنصر كل قناة فوقها علم
يحوطك الله صونا عن عيونهم
والله يعصم من بالله معتصم

حتـــى إذا بـــدت الآراء ضـــاحكـــة
وأقبلـــت أوجـــه الاقبـــال تبتســـم
اتبعـــت جـــنّ سرايـــاهـــم مضمـــرة
فيهـــا نجـــوم إذا جـــدّ الـــوغـــى رجموا
والنصر دان وخيـــل اللـــه مقبلـــة
تـــرجـــو الشهـــادة في الهيجـــاء تغتنـــم
صـــاب الغمام عليهـــم والسهـــام معـــا
فما دروا أيها الهطـــالـــة الـــديـــم
سروا لينتهبـــوا الاعمار فـــانتهبـــوا
قتـــلا ويغتنمـــوا الامـــوال فـــاغتنمـــوا
وأقبلـــت خيلنـــا تـــردى بخيلهـــم
مجنـــوبـــة وعلى أرمـــاحنـــا القمـــم
وأدبـــر الملـــك الطـــاغـــي يـــزعـــزعـــه
حـــرّ الاسنـــة وهـــو البـــارد الشيـــم
وافـــوا دمشـــق فظنـــوا انها جـــدة
ففـــارقـــوهـــا وفي أيـــديهم العـــدم
وأيقنـــوا مـــع ضيـــاء الصبـــح أنهم
إن لم يـــزولـــوا سراعـــا زالـــت الخيـــم
فغـــادروا أكثـــر القـــربـــا ن وانجلفـــوا
وخلفـــوا أكبر الصبيـــان وانهزمـــوا
مستسلمين لأيـــدي المسلمين وقـــد
أغـــرى الفنـــا بتمادي خطفهـــم نهم
لا يملـــك الجســـم دمعـــا عـــن مقـــاتلـــه
كـــأنـــه حين يغشـــاه الـــردى صنـــم
وحـــاولـــوا المسجـــد الأدنـــى فما عبرت
عـــن مسجـــد القـــدم الأقصـــى لهم قـــدم

فصل

قال ابن الأثير: لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الدين أنر إلى بعلبك، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله أن يحضر عنده، فاجتمعا فوصل إليهما كتاب القمص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج، وكان سبب ذلك أن الفنش صاحب صقلية خرج مع ملك الالمان إلى الشام وتغلب على العريمة وأخذها من القمص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا، وجدّ هذا الذي ملك العريمة هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب، فلما استولى هذا على العريمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مجدّين فصبحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه، ويطلبان منه المدد فأمدّهما فحصروا الحصن وبه ابن الفنش، ونقبوا السور فأذعن الفرنج واستسلموا وألقوابأيديهم فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كل من به من رجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن ، وعادوا إلى سيف الدين، وافتتح نور الدين أيضا باسوطا وهاب.

وقال الرئيس أبو يعلى: قتل أكثر من كان فيه، يعني في حصن العريمة، وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه ونهب ما فيه من العدد والخيول والأثاث وعاد عسكر سيف الدين إلى مخيمه بحمص ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولد الملك وأمه ومن أسر معهما، وانكفأ معين الدين إلى دمشق.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه في عسكره إلى ناحية الاعمال الأفرنجية وقصد أفامية وظفر بعدّة من الحصون والمعاقل الأفرنجية وبعدّة وافرة من الأفرنج، وأن صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه

فنال من عسكـره وأثقاله وكراعـه ما أوجبته الاقدار النـازلة، وانهزم بنفسه وعسكره وعاد إلى حلب سالما في عسكـره لم يفقد منه إلاّ النفر اليسير بعد قتل جماعة وافرة من الافرنج، وأقام بحلـب أياما بحيث جدّد ما ذهب له من اليزك، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله وقيل لم يعد.

وذكر ابن أبى طـي أن أسد الدين لما كان في نفسه على نـور الدين من تقديم ابن الدايـة عليه لم ينصح يومئذ وهي وقعة يغرا، ومـرّ به نو الدين فقـال له: مـا هذا الـوقوف والغفلـة في مثل هـذا الوقـت والمسلمون قـد انكسروا ؟فقال: يـاخونـد ايش ننفع نحـن إنما ينفع مجد الـدين أبـو بكر فهو صـاحب الأمر، فاستـدرك نور الدين ذلـك وطيب قلب أسد الـدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقه، وأصلح بينهما.

قال: وقتـل في هذه الكسرة شـاهنشاه بـن أيوب أخـو الملك النـاصر، وقيل في كسرة البقيعة.

قلت: وهـو والد عز الـدين فرخشـاه وتقي الـدين عمر والسـت عذرا المنسوب إليهـا العذراويـة داخل باب النصر بـدمشق، وقبره الآن بـالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العوينة ظاهر دمشق رحمهم اللّه.

قلت: ولابن منير من قصيدة تقدّمـت اعتذارا عما جرى في هذه الغزاة قال:

لم يشنـه مـن مـاء يغـرا إن فـرّ إلا
شـابـات ذاد عنهـا انـذلاقـه
كـان فيهـا الـيـث العـريـن حمى الأ
شبـال منـه غضبـان كـالنـار مـاقـه

وشبيـه النبـي يـوم حنين
إذ تـلافـا أدواءهـم دريـاقـه

- ٧٦٥١ -

وهـــــي الحرب فحلهـــــا بحســـــن الكـــــ
ـــــرة إن عـــــض بـــــأسهـــــا الانيـــــاقـــــه

فصل

وقال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضا سار نور الدين إلى بصرى وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشدّ قتال، ثم أنزل اللّه نصرة على المسلمين، وانهزم الفرنج وكانوا بين قتيل وأسير.

وفي هذه الوقعة يقول القيسراني من قصيدة أولها:

ونيرات الملك وهاجة
وطالع الدولة مسعود

وصارم الاسلام لا ينثني
إلاّ وشلو الكفر مقدود

مناقب لم تك موجودة
إلاّ ونور الدين موجود

مظفر في درعه ضيغم
عليه تاج الملك معقود

نال المعالي ما الكا حاكما
فهو سليمان وداود

ترتشف الأفواه أسيافه
إن رضاب العز مورود

وكم له من وقعة يومها
عند ملوك الشرك مشهود

والقوم إما مارهق صرعة
أو موثق بالقدّ مشدود

حتى إذا عادوا إلى مثلها
قالت لهم هيبته عودوا

طالب بثار ضمنته الظبى
فكل ما يضمن مردود

والكرّ والفرّ سجال الوغى
فطارد طوراً ومطرود
وإنما الافرنج من بغيها
عادوا وقد عاد لها هود
قد حصحص الحق فما جاحد
في قلبه بأسك مجحود
فكل مصر بك مستفتح
وكل ثغر بك مسدود

وقال أيضا قصيدة في نور الدين: وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد كسر الفرنج على يغرا،وهزمهم إلى حصن حارم، وقد كانت الفرنج هزمت المسلمين أوّلا بهذا الموضع أوّلها:

تفي بضمانها البيض الحداد
وتقضي دينها السمر الصعاد
وتدرك ثارها من كل باغ
فوارس من عزائمها الجلاد
ويغشى حومة الهيجا همام
يشدّ بضبعه السبع الشداد
أظنوا أن نار الحرب تخبو
ونور الدين في يده الزناد
وجند كالصقور على صقور
إذا انقضوا على الابطال صادوا
إذا اخفوا مكيدتهم أخافوا
وإن أبدوا عداوتهم أبادوا
ونصرة دولة حاميت عنها
وهل يخشى وأنت لها عماد
وإن تتلى القوافي ما تلته
بإنب مايوّنبها اسناد

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

جرت بالنصر أقلام العوالي
وليس سوى النجيع لها مداد
وطالت أروس الأعلاج خصبا
فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطت بهم فكان القتل صبرا
ولا طعن هناك ولا طراد
ولا برنس فوق الرمح رأس
توسد والسنان له وساد
ترجل للسلام ففرسوه
وليس سوى القناة له جواد
غضيض المقلتين ولا نعاس
وغايرها وليس به سهاد
فسر واستوعب الدنيا فتوحا
فلا هضب هناك ولا وهاد
وزر بيني الوغى مثوى حبيب (٥٦)
فما عن باب مسلمه ذياد
ولا في باب فارس غير ثكلى
بفارسها يضيء بها الحداد
لأنطاكية يحمي ذراها
وقد دانت لسطوتك البلاد
واذعنت الممالك واستجابت
ملبية لدعوتك العباد

قلت: ووقعة إنبّ هذه كانت عظيمة، وقد أكثر كذلك الشعراء لها وسيأتي ذكرها قريبا إن شاء اللّه تعالى.

فصل

قال أبو يعلى التميمي: وفي رجب من هـذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين ابن أتابك أمر بابطال حي على خير العمل في أواخر تأذين الغداة، والتظاهر بسب الصحابة، وانكر ذلك إنكارا شديداً، وساعده على ذلك جماعة من أهل السنة بحلب، وعظم هذا الأمر على الاسماعيلية وأهل التشيع وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة.

قلت:وأنشده ابن منير في رمضان:

فداك من صام ومن أفطرا
ومن سعى سعيك أو قصرا

وما الورى أهلا فتفدى بهم
وهل يوازي عرض جوهرا

عدل تساوى تحت أكنافه
مطافل العين واسد الشرى

يا نور دين اللّه كم حادث
دجى وأسفرت له فانسرى

وكم حمى للشرك لا يهتدي الـ
ـوهم له غادرته مجزرا

يا ملك العصر الذي صدره
افسح من أقطارها مصدرا

وابن الذي طاول أفلاكها
فلم يجد من فوقه مظهرا

مناقب تكسر كسرى كما
تقصر عن إدراكها قيصرا

مـــا عـــام في أوصـــافهـــا شـــاعـــر
إلاّ رأى أوصـــــافهــــا أشعـــــرا
للّـــــه أصـــــل أنـــــت فـــرع لـــــه
مـــا أطيـــب المجنـــى ومـــا أطهـــرا
مـــا حلـــب البيضـــاء مـــذ صنتهـــا
إلاّ حـــــرام مثـــــل أمّ القـــــرى
شيـــدت في معمـــور أرجـــائهـــا
لكـــل بـــاغـــي عمـــره مشعـــرا
فـــأصبـــح الشـــادي إذا ثـــوّب الـــ
ـــــداعي لـــــه هلـــــل أو كبرا
لا عـــدم الاســـلام مـــن كفـــه
كهـــــف لمن أرهـــــق أو أحصرا
كـــأنها ســـاحتـــه جنـــة
أجـــرت بها راحتـــه كـــوثـــرا
تصرّم الشهـــر الـــذي كنـــت في
أوقـــاتـــه مـــن قـــدره أشهـــرا
جهـــادليـــل في نهار غـــزا
إذ كنـــت فيـــه الأصبر الأشكـــرا
أصـــدق مـــا يـــرشفـــه ســـامـــع
مـــا هـــز مـــن أوصـــافـــك المنبرا
أبقـــاك للـــدنيـــا وللـــديـــن مـــن
خـــــــــلاك في ليلهما نيرا
حتـــى تـــرى عيســـى مـــن القـــدس قـــد
نجـــــا إلى سيفـــــك مستنصرا

قال أبـو يعلى: وفي رجب أذن لمن يتعـاطى الوعـظ بالتكلـم في الجامع المعمور بدمشق على جري العادة والرسـم، فبدأ من إختلافهم في أحوالهم وأغـراضهم والخوض في قضـايـا لا حاجـة لها مـن المذاهـب ما أوجـب

صرفهم عن هذه الحال، وإبطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد،وطمع سفهاء الأوغاد وذلك في آخر شعبان منها.

قال: وكثر فساد الفرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق، فأغار معين الدين على أعمالهم وخيم في ناحية من حوران بالعسكر، وكاتب العرب واستدعى جماعة وافرة من التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم، فلم يزل على النكاية فيهم، والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة.

ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فجـدّدت المهادنـة في المحرّم مـدّة سنتين، وأنفذ نـور الديـن إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكيـة قد جمع أفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد برز في عسكـره إلى ظاهر حلب للقائه والحاجة مـاسة إلى معاضدتـه، فندب معين الديـن مجاهد الدين بُـزان بن مامين في فـريق وافـر من العسكـر الدمشقـي للمصير إلى جهته، وبـذل المجهود في طاعته ومناصحته، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حوران.

قال: وفي صفر مـن السنة وردت البشائر من جهة نـور الدين بما أولاه الّله تعالى، وله الحمد على حشد الفـرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلاّ من أخبر ببوارهـم، وتعجيل دمـارهم، وذلـك أن نور الـدين اجتمع له مـن العساكر ستـة آلاف فارس مقاتلة سوى الاتبـاع والسواد، فنهض بهم إلى الفـرنج في الموضـع المعروف بـإنّـب وهم في نحـو أربعمائة فارس وألـف راجل، فقتلـوهم وغنمـوهم ووجـد اللعين البرنس مقـدّمهم صريعـاً بين حماتـه وأبطالـه، فعـرف وقطع رأسـه، وحمل إلى نور الـديـن ، وكان هـذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بـالفروسية، وشدّة البأس وقوة الحيل، وعظم الخلقـة، مع اشتهار الهيبة وكثـرة السطوة والتناهـي في الشر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر.

ثم نزل نور الدين في العسكر على بـاب انطاكية، وقد خلت من حماتها والذابين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثـرة عددهم وحصانة بلدهم، وتردّدت المراسـلات بينه وبينهم في طلـب التسليم إليه وإيمانهم وصيـانة أموالهم، فوقع الاحتجـاج منهم بأن هذا الأمر لايمكنهم الـدخول فيه إلاّ بعد انقطـاع أمالهم من الناصر لهم والمعين على مـن يقصدهم، وحملـوا ما أمكنهم مـن التحف والمال، ثم استمهلـوا فأمهلوا، ثـم رتب نور الـدين

بعـض العسكر لـلاقامـة عليهـا، والمنع لمن يصـل إليها، ونهض في بقيـة العسكر إلى نـاحية أفاميـة، وقد كان رتب الأمير صـلاح الدين في فـريق وافـر من العسكـر لمنـازلتها ومضـايقتهـا، فالتمسـوا الأمـان فأومنـوا على أنفسهم وسلمـوا البلد في ثـامن عشر ربيع الأوّل، وانكفـأ نور الـدين في عسكره إلى نـاحية أنطـاكية وقد إنتهـى الخبر بنهوض الفرنـج من نـاحية الساحل إلى صوب أنطـاكية لإنجاد من بها ، فاقتضت الحال مهـادنة من في أنطاكية ومـوادعتهم، وتقرير أن يكـون ماقرب من الأعمال الحلبيـة له، وما قرب مـن أنطاكية لهم، ورحل عنهـم إلى جهة غيرهم بحيث كـان قد ملـك في هذه النـوبة ممـا حول انطـاكية مـن الحصون والقـلاع والمقالـع، وغيرهـا مـن المغانـم الجمـة، وفصـل عنـه الامير مجاهـد الديـن بـزان في العسكـر الدمشقـي وقـد كـان له في هـذه الـوقعـة ولمن في جملته البـلاء المشهـور والذكـر المشكور، لما هـو مـوصوف بـه مـن الشهامـة والبسالـة وإصابة الرأي والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طـي: حمل أسد الدين على حامل صليـب الفرنج فقتله وقتل البرنـس صاحب أنطـاكية وجماعة مـن وجوه عسكره، ولم يقتـل من المسلمين من يقـوم به، وعـاد المسلمون بـالغنائم والأسـارى، وكان لأسـد الديـن في هذه الحرب اليد البيضـاء، ومدحه بها بعـض الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها:

إذا كـان آل فـرنـج أدركـوا فلجـا
في يـوم يغـراونـا الـوامنيـة الظفـر

ففـي الخطيـم خطمـت الكفـر منصلتـا
أبـا المظفـر بـالصمصـامـة الـذكـر

نـالـوا بيغـرا نهابـا وانتبهـت لنـا
على الخطيـم نفـوس المعشر الأشر

واستقـودوا الخيـل عـريـا واستقـدت لنـا
قـوامـص الكفـر في ذل وفي صغـر

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير، وعدّة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئا.

وفي هذه السنة عظم أمر أسد الدين

وقال ابن الأثير: سار نور الدين إلى حصن حارم، وهو للفرنج فحصره وخرّب ربضه ونهب سواده ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس، وإنجلت الحرب عن هزيمة الفرنج، وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا، وفيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتيا من عتاة الفرنج وذوي التقدّم فيهم والملك، ولما قتل البرنس خلف ابناصغير وهو بيمند فبقي مع أمّه بأنطاكية ، فتزوجت أمه ببرنس آخر وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند، ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أمّ بيمند، فلما أسره تملك بيمند أيضا أنطاكية بلد أبيه وتمكن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح ، وقتل البرنس، فممن قال فيه القيسراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية أوّلها:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الاشعار والخطب

صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها
بـراحة للمساعي دونها تعب
مازال جدّك يبني كل شاهقة
حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب
للّه عزمك ما أمضى وهمك ما
أفضى اتساعا بما ضاقت به الحقب
يا ساهد الطرف والأجفان هاجعة
وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالافرنج راجفة
فؤاد روميّة الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
قل للطغاة وإن صمّت مسامعها
قولا لصم القنا في ذكره أرب
ما يوم إنّب والأيام دائلة
من يوم يغرا ببعيد لا ولا كثب
أغرّكم خدعة الآمال ظنكم
كم أسلم الجهل ظنا غرّه الكذب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى
وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحة
فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاها تقر لها
قوائم خانهنّ الركض والخبب
والنقع فوق صقال البيض منعقد
كما استقل دخان تحته لهب

السيف هام على هام بمعركة
لا البيض ذو ذمّة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبل هطال وليس له
سوى القسي وأيد فوقها سحب
وللظبى ظفر حلو مذاقته
كأنما الضرب فيما بينهم ضرب
وللأسنة عما في صدورهم
مصادر أقلوب تلك أم قلب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم
فاستسلموا وهي لا نبع ولا غرب
كذاك من لم يوق اللّه مهجته
لاقى العدى والقنا في كفه قصب
كانت سيوفهم أوحى حتوفهم
يارب حائنه منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم
ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم في ثياب من دمائهم
مسلوبة وكأنّ القوم ما سلبوا
أبناء ملحمة لو أنها ذكرت
فيما مضى نسيت أيامها العرب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا
من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرّة ما سمت والليل معتكر
الا تمزق عن شمس الضحى الحجب
أفعاله كاسمه في كل حادثة
ووجهه نائب عن وصفه اللقب
في كل يوم لفكري من وقائعه
شغل فكل مديحي فيه مقتضب

مـــن بـــاتـــت الاســـد أسرى في ســلاسلـــه
هـــل يـــأسر الغلـــب إلاّ مـــن لـــه الغلـــب
فملكـــوا اسلـــب الابـــرنـــس قـــاتلـــه
وهـــل لـــه غير أنطـــاكيـــة سلـــب
مـــن للشقـــي بما لاقـــت فـــوارســـه
وإن يســـائرهـــا مـــن تحتـــه قتـــب
عجبـــت للصعـــدة السمـــراء مثمـــرة
بـــرأســـه إن أثمار القنـــا عجـــب
سما عليهـــا اسمـــوّ الماء أرهقـــه
أنبـــوبـــة في صعـــود أصلهـــا صبـــب
مـــا فـــارقـــت عـــذبـــات التـــاج مفـــرقـــه
إلا وهـــي منـــه لا تـــاج ولا عـــذب
إذا القنـــاة ابتغـــت في رأســـه نفقـــا
بـــدا الثعلبهـــا مـــن نحـــره سرب
كنـــا نعـــدّ حمى أطـــرافنـــا ظفـــرا
فملكتـــك الظبـــى مـــا ليـــس نحتسـب
عمـــت فتـــوحـــك بـــالعـــدوى معـــاقلهـــا
كـــان تسليـــم هـــذا عنـــد ذا جـــرب
لم يبـــق منهـــم ســـوى بيـــض بـــلا رمـــق
كما التـــوى بعـــد رأس الحيـــة الـــذنـــب
فـــانهض إلى المسجـــد الأقصـــى بـــذي لجب
يـــوليـــك أقصـــى المنى فـــالقـــدس مـــرتقـــب
وائذن لموجـــك في تطهير ســـاحلـــه
فـــانما أنـــت بحـــر لجه لجب
يـــا مـــن أعـــاد ثغـــور الشـــام ضـــاحكـــة
مـــن الظبـــى عـــن ثغـــور زانها الشنـــب
مـــازلـــت تلحـــق عـــاصيهـــا بطـــائعهـــا
حتـــى أقمـــت وأنطـــاكيـــة حلـــب

حللت من عقلها أيدي معاقلها
فاستجفلت وإلى مشاقك الهرب

وأيقنت أنها تتلو مراكزها
وكيف يثبت بيت ماله طنب

أجريت من ثغر الاعناق أنفسها
جري الجفون امتراها بارح حصب

وما ركزت القنا إلاّ ومنك على
جسر الحديد هزبر غيله اشب

فاسعد بما نلته من كل صالحة
يأوي إلى جنة المأوى لها حسب

إن لا تكن أحد الابدال في فلك الـ
ـتقوى فلا نتهارى أنك القطب

فلو تناسب أملاك السماء بها
لكان بينكما من عفة نسب

هذا وهل كان في الاسلام مكرمة
إلا شهدت وعباد الهوى غيب

وله فيه من قصيدة أخرى:

ألا للّه درّك أي درّ
صريح جاء بالكرم الصريح

وعسكرك الذي استولى مشيحا
على ما بين فاميه وشيح

ووقعتك التي بنت العوالي
صوادر عن قتيل أو جريح

بإنب يوم أبرزت المذاكي
من النقع الغزالة في مسوح

غداة كأنما العاصي احمرارا
من الدم عبرة الجفن القريح

وقد وافاك بالابرنس حتف
أتيح له من القدر المتيح
قتلت أشحهم بالنفس إذلا
يجود بنفسه غير الشحيح
ملأت بهم ضرائحهم فأمسوا
وليس سوى القشاعم من ضريح
وعدت إلى ذرا حلب حميدا
سمو البدر من بعد الجنوح
فإن جليت بغرتك الليالي
فكم لسناك من زمن مليح
رويدك تسكن الهيجا فواقا
بحيث تريح من تعب المريح
فأنت وإن أرحت الخيل وقتا
فهمك غيرهم المستريح

قال أحمد بن منير يمدحه ،ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه ، وحمل رأسه إلى حلب ، وأنشده أيضا إياها بجسر الحديد:

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته
وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده
من بعد ما غُلّت دما عبراته
ردّت على الاسلام عصر شبابه
وثباته من دونه وثباته
أرسى قواعده ومدّ عماده
صعدا وشيد سوره سوراته
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا
اصلاته وصلاته وصلاته
لما تواكل خربه وتخاذلت
أنصاره وتقاصرت خطواته

رفعــت لنــور الــديــن نــار عــزيمــة
رجعــت لهاعــن طبعهــا ظلما تــه
ملــك مجالــس لهوه شــداتــه
ومشــوقــه بين الصفــوف شــذاتــه
تغــري بحثحثــة اليراع بنــانــه
إن لــذ حثحثــة الكــؤوس لــداتــه
ويــروقــه ثغــر العــدى قــان دمــا
لا الثغــر يعبــق في لماه لثــاتــه
فصبــوحــه خــمر الطلى وغبــوقــه
نطــف النفــوس تــدّرهــا نشــواتــه
فتــح تعممــت السماء بفخــره
وهفــت على أغصــانها عــذبــاتــه
سبغــت على الاســلام بيــض حجــولــه
واختــال في أوضــاحهــا جبهــاتــه
وانهل فــوق الابطحين غمامــه
وسرت إلى سكينهــا نفحــاتــه
للّــه بلجــة ليلــة محصــت بــه
واليــوم ذبــح وشيــه ســاعــاتــه
حــط القــوامــص فيــه بعــد قماصها
ضرب يصلصــل في الطلى صعقــاتــه
نبــذوا الســلاح لضيغــم عــاداتــه
فــرس الفــوارس والقنــا غــايــاتــه
لمجــرب عمــريــه غضبــاتــه
للّــه معتصميــة غــزواتــه
تحيــا الضيــق صفــاده اسراؤه
وتفيــض مــاء شــؤونها نغماتــه
بين الجبــال خــواضعــا أعنــاقهــا
كــالــذودنــابــت عــن بــراه حــداتــه

نشرت على حلـــب عقـــود بنـــودهـــم
حلـــل الــــربيـــع تنـــاسقـــت زهـــراتـــه
روض جنـــــــاه لهامكــــــر جيـــــاده
واستـــــــوأرت حمالــــــة حملاتـــــه
متســـانـــديـــن على الـــرحـــال كما انثنـــى
شرب أمـــالـــت هـــامـــه قهـــواتـــه
لم تنبـــت الأجـــام قبـــل رمـــاحـــه
شجـــراً فـــروع أصـــولـــه ثمـــراتـــه
فليحمـــد الاســـلام مـــا جـــدحـــت لـــه
شربـــات غـــرس هـــذه مخبـــاتـــه
وسقـــى صـــداذاك الحيـــا صـــوب الحيـــا
خير الثـــرى مـــا كنـــت أنـــت نبـــاتـــه
نصـــب السريـــر ومـــال عنـــه ومهـــدت
لمقـــر منصبـــك السرى سراتـــه
مـــا ضرّ هـــذا البـــدر وهـــو محلـــق
إن الكـــواكـــب في الـــذرى ضراتـــه
في كـــل يـــوم تستطيـــل قنـــاتـــه
فـــوق السماء وتعتلي درجـــاتـــه
وتـــرى كشمـــس في الضحـــى آثـــاره
مجداً وألسنـــة الـــزمـــان رواتـــه
أيـــن الأولى مـــلأوا الطـــروس زخـــارفـــا
عـــن نـــزف بحـــر هـــذه قطـــراتـــه
عـــذقـــوا بـــأعنـــاق العـــواطـــل مـــالـــه
مـــن جـــوهـــر فـــأتتهـــم فـــذاتـــه
لـــو فصلـــوا اسمطـــا ببعـــض فتـــوحـــه
سخـــرت بما افتعلـــوا لهم فعـــلاتـــه
تمسي قنـــانيـــه بنـــات قيـــونـــه
فـــوق القـــوانـــس والقنـــا قينـــاتـــه

صلتبان من دون الملوك تغرها
حركاته وتنيمها يقظاته
فغدت بهم عن خطوه هماتهم
وسمت به عن قطوهم هماته
سكنوا مسجفة الحجال وأسكنت
زحل الرجال مع السها عزماته
لو لاح للطائي غرة فتحه
باءت بحمل تأوه بآآته
أو هب للطبري طيب نسيمه
لاحتش من تاريخه حشواته
صدم الصليب على صلابة عوده
فتفرقت أيدى سبا خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة
بالروح مقر ما خبت عذراته
فانقاد في خطم المنية أنفه
يوم الخطيم واقصرت نزواته
ومضى يؤنب تحت إنب همة
أمست زوافر غيها زفراته
أسد تبوأ كالغرنف فجآته
فتبوأت طرف السنان شواته
دون النجوم مغمضا ولطالما
اغضت وقد كرت لها لحظاته
فجلوته تبكي الاصادق تحته
بدم إذا ضحكت له شماته
تمشي القناة برأسه وهو الذي
نظمت مدار النيرين قناته
لو عانق العيوق يوم رفعته
لاراك شاهد خفضه اخباته

مـــا انقـــادقبلـــك أنفـــه لخزامـــه
كـــلا ولا همســـت لها هـــدراتـــه
طيـــان خلـــف السرح طـــال زئيره
نطقـــت سطـــاك لـــه فطـــال صماتـــه
لما بـــدا مســـود رأيـــك فـــوقـــه
مبيـــض نصرك نكســـت رايـــاتـــه
ورأى سيـوفـك كـالصـوالـج طـاوحـت
مثـــل الكـــريـــن فقلصـــت كـــراتـــه
ولى وقـــد شربـــت ظبـــاك كماتـــه
تحت العجـــاج وأسلمتـــه حماتـــه
تـــرك الكنـــائس والكنـــاس لنـــاهـــب
بـــالبيـــض نهب مـــاحـــواه عفـــاتـــه
لغـــلاب أروع لا يميـــت عـــداتـــه
داء المطـــال ولا تعيـــش عـــداتـــه
للـــوحـــش ملقـــى بـــالعـــرا يقتـــاتـــه
مـــاكـــان قبـــل بصيـــده يقتـــاتـــه
اليـــوم ملكـــك القـــراع قـــلاعـــه
متسنماً مـــا استشرفـــت شرفـــاتـــه
وغـــدا تحل لـــك الحلائل اسهـــم
متـــوزعـــات بينهـــن بنـــاتـــه
اوطـــأت أطـــراف السنـــابـــك هـــامـــه
فتقـــاذفـــت بعنيفهـــا قـــذفـــاتـــه
لازال هـــذا الملـــك يشمـــخ شـــأنـــه
أبـــدا ويلفـــت في الحضيـــض وشـــاتـــه
مـــا أخطـــأتـــك يـــد الـــزمـــان فـــدونـــه
مـــن شـــاء فلتسرع إليـــه هنـــاتـــه
أنـــت الـــذي تحلى الحيـــاة حيـــاتـــه
وتهب أرواح القصيـــد هبـــاتـــه

فصل

قال ابـن الاثير: وفيها سار نـور الدين إلى حصن فـامية، وهو للفـرنج أيضـا، وبينه وبين مـدينة حماه مـائة مرحلـة، وهو حصـن منيع على تـل مرتفع عـال من أحصن القلاع وأمنعهـا، وكان من به مـن الفرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبـوها، فـأهل تلـك الاعمال معهم تحت الـذل والصغار، فسـار نو الـدين إليه وحصره وضيـق عليه ومنـع من بـه القرار ليلاً ونهاراً، وتـابع عليهم القتـال ومنعهم الاستراحـة، فاجتمعت الفـرنج من سائر بلادهـم وساروا نحو ه ليزحزحوه عنها فلـم يصلوا إليه إلا وقد ملـك الحصن ومـلأه ذخائر مـن طعام ومـال وسلاح ورجـال، وجميع مـا يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سـار نحوهم فحين رأوا جدّه في لقائهم رجعـوا واجتمعوا ببـلادهم، وكـان قصـاراهم أن صـالحوه على ما أخـذه ومدحه الشعراء وأكثر وا.منهم أبو الحسن أحمد بن منير حيث قال:

اسنـــى الممالـــك مـــا اطلـــت منـــارهـــا
وجعلـــت مـــرهفـــة الشفـــار دثـــارهـــا

وأحـــق مـــن ملـــك البـــلاد وأهلهـــا
رؤوف تكنـــف عـــدلـــه أقطـــارهـــا

مـــن عـــام ســـام الخافقين وحـــامهـــا
منتـــاوزادهـــوى فخـــص نـــزارهـــا

مضريـــة طبعـــت مضـــاربـــه وإن
عـــدّتـــه ذروة فـــارس اســـوارهـــا

آل الـــرعيـــة وهـــي تجهـــل آلها
وتعـــاف نطفتهـــا وتكـــره دارهـــا

فـــأقـــرّ ضجعتهـــا وأنبـــت نيهـــا
وأســـاغ جـــرعتهـــا واثبـــت زارهـــا

ملـــك أبـــوه سما لها فسما بها
وأجـــارهـــا فعلـــت سهيـــلا جـــارهـــا

نهج السبيل له فأوضع خلفه
وشدا له يمن العلى فأنارها

أنشرت يا محمود ملة أحمد
من بعد ما شمل البلى اصحارها

إن جانأت عدل السنان قوامها
أو نانأت كان الحسام جبارها

عقلت مع العصم العواصم مذ غدت
هذي العزائم أسرها وإسارها

وتكلفت لك ضمر انضيتها
في صونها أن تستردّ ضمارها

كلأت هواملها وردّ مطارها
ما أريشته وثقفت آطارها

كم حاولت من كفتيها غرّة
غلب الأسود فقلمت أظفارها

أنى وحامي سرحها من لو سمت
للفلك بسطته أحال مدارها

في كل يوم من فتوحك سورة
للدين يحمل سفره أسفارها

ومطيلة قصر المنابر إن غدا الـ
ـخطباء تنشر فوقها تقصارها

همم تحجلت الملوك وراءها
بدم العثار وما اقتفت آثارها

وعزائم تستوئر الآساد عن
نهش الفرائس إن أحس أوارها

أبدا تقصر طول مشرفة الذرى
بالمشرفية أو تطيل قصارها

فغزت أفامية فما فهمته
كوبار أجناها الاران بوارها

أرهفـــــت رائك فـــــوق رائك تحتهــــا
فحططـــت مـــن شغفـــاتها أعفـــارهـــا

أدركـــــت ثـــــارك في البغـــاة وكنـــت يـــا
مختـــــار أمّـــــة أحمد مختـــــارهـــــا

عـــــاريـــــة الــــــزمـــــن المغير سماها
منـــك المغيرة فـــاستردّ معـــارهـــا

زأر الهزبـــــر فقيـــــدت عـــــانـــــاتها
عصر الضـــلال وأسلمـــت أعيـــارهـــا

ضـــاءت نجـــومـــك فـــوقهـــا ولـــربما
بـــاتـــت تنـــافثهـــا النجـــوم سرارهـــا

أمســت مـــع الشعـــرى العبـــور وأصبحـــت
شعـــراء تستقلي الفحـــول شـــوارهـــا

ولكـــم فـــرعـــت بمقـــربـــاتـــك مثلهـــا
تلعـــا وقلـــدت الكماة عـــذارهـــا

حتـــى إذا اشتملتـــك أشرق ســـورهـــا
عـــزا وحـــلاهـــا سنـــاك ســـوارهـــا

خـــرّ الصليـــب وقـــد علـــت نغماتها
واستـــوبلـــت صلـــواتـــه تكـــرارهـــا

لما وعـــاهـــا سمـــع انطـــاكيـــة
سرت الـــوقـــار وكشفـــت أستـــارهـــا

فـــاليـــوم أضحـــت تستـــذمّ مجيرهـــا
مـــن جـــوره وغـــدت تـــذمّ جـــوارهـــا

علمـــت بـــأن ستـــذوق جـــرعـــة أختهـــا
إن زرّ أطـــــواق القبـــــاء وزارهـــــا

مـــاض إذا قـــرع الـــركـــاب لبلـــدة
ألقـــت لـــه قبـــل القـــراع ازارهـــا

وإذا مجانقـــه ركعـــن لصعبـــة الـــ
ـــملقاة أسجـــد كـــالجديـــر جـــدارهـــا

مـــلأ البـــلاد مـــواهبـــا ومهـــابـــة
حتـــى استرقـــت آيـــة أحـــرارهـــا

يـــذكـــي العيـــون إذا أقـــام لعينهـــا
أبـــدا ويفضي بـــالظبـــى أبكـــارهـــا

أو مـــا إلى رمـــم النـــدى فـــأعـــاشهـــا
وهما السـابقـــة المنـــى فـــازارهـــا

نبـــويّ تشبيـــه الفتـــوح كـــأنها
أنصـــاره رجعـــت لـــه أنصـــارهـــا

أحيـــا الصرح ســـلامهـــا سلطانها
وأمـــات تحت عمارهـــا عمارهـــا

إن ســـار ســـار وقـــد تقـــدّم جيشـــه
رجـــف يقصـــع في اللهـــي ذعـــارهـــا

أو حـــلّ حـــلّ حبـــا القـــروم بهيبـــة
ســـلـــب البـــدور وبـــدارهـــا أبـــدارهـــا

وإذا الملـــوك تنـــافســـوا درج العلى
أربـــى بنفـــس أفـــرعتـــه خيـــارهـــا

ونهى إذا هيفمـــت تـــدلّ لجبرهـــا
وسطـــى تـــذل إذا عنـــت جبـــارهـــا

تهدى لمحمـــود السجـــايـــا كـــاسمـــه
لـــولـــز فـــاعلـــة بها لأبـــارهـــا

الفـــاعـــل الفعـــلات ينظـــم في الـــدجـــى
بين النجـــوم حســـودهـــا اسمارهـــا

ســـاع سعـــى والســـابقـــات وراءه
عنقـــا فعصفـــر منتهاه عثـــارهـــا

كـــالمضرجـــي إذا يصرصر رائبـــا
خـــرس البغـــاث وهـــاجـــرت أوكـــارهـــا

عـــرفـــت لنـــور الـــديـــن نـــور وقـــائع
يغشـــى إذا اكتحلـــت بـــه أبصـــارهـــا

مشهورة سطعـــت وقـــد حـــاولتهـــا الــــ
ــــأقدار عجـــزا أن تشـــق غبـــارهـــا

للّـــــه وجهــــك والـــــوجــــوه كـــأنما
حطـــت بها أوقــــار هبـــت قـــارهـــا

والبيـــض تخنـس في الصـــدور صـدورهـــا
هبرا وتكتحــــل الشفـــور شفــــارهـــا

والخيـــل تـــدلــــج تحت أرشيــــة القنـــا
جـــذب المواتـــح غـــاورت أبــارهـــا

فبقيـــت تستجلي الفتـــوح عـــرائســـا
متمليـــا صـــدر العلى وصــدارهـــا

في دولـــة للنصر فـــوق لــــوائهـــا
زبـــر تنمـــق في الطلى أسطـــارهـــا

فـــالـــديـــن مـــرمـــاة رفعـــت بها الصـــوى
وحـــديقـــة ضمنـــت يـــداك ابـــارهـــا

وله فيه من قصيدة أخرى:

خنـــس الثعـــالـــب حين زمجر مصحـــر
مـــــلأ البــــــلاد هماهما وزئيرا

تـــركـــوا مشـــاجـــرة الـــرمـــاح لحاذق
جعلـــت مخافتـــه القصـــور قبـــورا

لـــربيـــب حـــرب لم تـــزل فعـــلاتـــه
كـــالـــراء يلـــزم لفظهـــا التكـــريـــرا

أســـد إذا مـــا عـــاد مـــن ظفـــر بمفـــ
ـــترس أحـــدّ لمثلـــه اظفـــورا

يتنـــاذر الاعـــداء منـــه سطـــوة
مـــلأ الـــزمـــان تغيظـــا وزفيرا

عـــرفـــوا النـــور الـــديـــن وقـــع وقـــائع
وفى بها الاســــلام أمـــس نـــذورا

أبدا يظافرك القضاء على الذي
تبغي فترجع ظافرا منصورا
قوّضت فانتقع الظهائر ظلمة
وقفلت فاشتعل الدياجر نورا
وعلى العواصم من دفاعك عاصم
ينشي الرشيد وينشر المنصورا

فصل

في وفاة معين الدين أنر بدمشق وما كان من الرئيس ابن الصوفي في هذه السنة

قال أبو يعلى التميمي: فصل معين الدين من عسكره بحوران ووصل إلى دمشق في أواخر ربيع الآخر لأمر أوجب ذلك ودعا إليه وأمعن في الأكل ، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به، وحمله اجتهاده فيما يدبره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق، وقد زاد به وضعفت قوته وتولد معه مرض في الكبد، فأوجب الحال عوده إلى دمشق، في محفة لمداواته فوصل، وقضى نحبه في ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر، ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة التي عمرها.

قلت: قبره في قبة بمقابر العوينة شمالي دار البطيخ الآن واسمه مكتوب على بابها فلعله نقل من ثم إليها، وفيه يقول الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وكتب بها إليه من مصر لما لقي الفرنج في أرض بصرى وصرخد مع نور الدين، وقد تقدم ذلك كتب إليه قصيدة يقول فيها:

كل يوم فتح مبين ونصر
واعتلاء على الأعادي وقهر

صدق النعت فيك أنت معين الـ
ـدين إن النعوت فال وزجر
أنت سيف الاسلام حقا فلا كـ
ـغراريك أيها السيف دهر
لم تزل تضمر الجهاد مسرا
ثم أعلنت حين أمكن جهر
كل ذخر الملوك يفنى وذخرا
ك هما الباقيان أجر وشكر (٥٧)

قال: وفي يوم الجمعة تاسع رجب قرىء المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصلاة على المنبر بابطال الفيئة المستخرجة من الرعية وإزالة حكمها وتعفية رسمها وإبطال دار الضرب، فكثر دعاء الناس له وشكرهم، قال: واستوحش الرئيس مؤيد الدولة من مجير الدين استيحاشا أوجب جمع من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء وحملة السلاح من الجهلة العوام وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة للاحتماء بهم من مكروه يتم عليهما، وذلك في ثالث عشر رجب، ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يسكنهما ويطيب أنفسهما، فما وثقا بذلك وجدا في الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الاجناد ، وأثارا الفتنة فقصدوا باب السجن وكسروا غلاقه واطلقوا من فيه، واستنفروا جماعة من أهل الشاغور وغيرهم وقصدوا الباب الشرقي وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جمع كثير، وامتلأت بهم الأزقة والدروب، فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشاكي، وأخرج ما في خزانته من السلاح والعدد وفرقت على العسكر، وعزموا على الزحف على جميع الأوباش والايقاع بهم والنكاية فيهم، فسأل جماعة من المقدمين التمهل في هذا الأمر وترك العجلة بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق، وألحوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم، ووقعت المراسلة والتلطف في إصلاح ذات البين، فاشترط الرئيس وأخوه شروطا أجيبا إلى بعضها،

وأعرض عن بعض بحيث يكون ملازما لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولايركب إلى القلعة إلا مستدعى إليها، وتقررت الحال على ذلك وسكنت الدهماء، ثم حدث بعد هذا التغيير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد وجمع الجمع الكثير من الاجناد والمقدّمين والرعاع والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة، وحصر من بها وطلب من عين عليه من الأعداء الأعيان في أواخر رجب، ونشبت الحرب بين الفريقين وجرح وقتل بينهم نفر يسير، وعاد كل فريق منهم إلى مكانه ووافق ذلك هروب السلار زين الدين اسماعيل الشحنة وأخيه إلى ناحية بعلبك، ولم تزل الفتنة ثائرةوالمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصورة إبعاد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين، وسكنت الفتنة وأطلقت أيدى النهابة في دار السلار زين الدين وأخيه وأصحابهما ،وعمها النهب والاخراب، ودعت الضرورة إلى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرياسة بحيث لايكون له في ذلك معترض ولا مشارك.

قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقله.

ذر الاتـــــراك والعـــــــربــــا
وكـــــن في حـــزب مـــن غلبــــا

بجلـــــق أصبحـــــت فتـــــن
تجر الـــــويـــــل والحربـــــا

لئـــــن تمت فـــــوا أسفـــــا
ولم تحزن فـــــوا عجبـــــا

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة:

زد علـــوا في المجـــد يـــا ابـــن علي
هكـــذا مـــن أراد أن يتعـــالى

وغـــدت جلـــق تنـــاديـــك عجبـــا
هكـــذا هكـــذا وإلا فـــلا لا

لـــن تبـــالي مـــن بعـــدهـــا بعـــدو
إنما ذاك كـــان قطعـــا فـــزالا
قـــد حـــوى الـــدين يـــا مـــؤيـــده منـــ
ـــك هـــزبـــراً وديمـــة وهـــلالا
جئتهـــا في الظـــلام خيـــلا ورجـــلا
وحميـــت النفـــوس والامـــوالا
قـــد بلغـــت المراد مـــن كـــل ضـــد
وكفـــى اللّـــه المؤمنين القتـــالا

قـال أبـو يعلى التميمـي: وفيهـا ورد الخبر مـن نـاحيـة مصر بـوفـاة المستخلف بها الملقب بالحافظ واسمه عبد المجيد بن الآمر بن المستنصر في خـامس جمادى الآخرة ، وولي الأمـر بعد ولـده الأصغـر أبو منصـور اسماعيل ، ولقب بالظافر، وولى الـوزارة أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربي.

فصل

في وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل

وهو أخو نور الدين الأكبر.

قال ابـن الاثير:كان أتـابك الشهيـد، يعني زنكـي، ملك دارا وبقيـت بيده إلى أن قتل، فأخذها صاحب ماردين، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنـة أربع وأربعين فحـاصرها وملكهـا واستولى على كثير مـن بلد مـاردين بسببهـا، ثم حصر ماردين عازما على أن يـدخل ديـار بكر، ويستعيد مـا أخذ مـن البلاد بعـد قتل والـده، فتفرق العسكـر في بلدهـا ينهبون ويخربون، فقال صاحب ماردين: كنـا نشكو من أتابك وأين أيامه فلقد كـانت أعيـاداً قد حصرنـا غير مرة فلـم يتعدّ هـو وعسكره حـاصل

السلطان، ولا أخذوا كفا من التبن بغير ثمن:

ربَّ دهرٍ بكيتُ منه فلما ... صرتُ في غيره بكيتُ عليه

ثم إنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد وزوجه ابنته الخاتون، ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى الموصل، وجهزت الخاتون وسيرت إليه فوصلت إلى الموصل وهو مريض فتوفي ولم يدخل بها، وذلك في أواخر جمادى الآخرة، وكان عمره نحو أربعين سنة، وكان من أحسن الناس صورة، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل، وخلف ولدا ذكر أخذه نور الدين محمود عمه فرباه فأحسن تربيته وزوّجه ابنة عمه قطب الدين مودود، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عنفوان شبابه فتوفي وانقرض عقب سيف الدين، وكان كريما شجاعاً ذا عزم وحزم، وهو أوّل من حمل على رأسه سنجق من أصحاب الأطراف فإنه لم يكن فيهم من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية، وهو أوّل من أمر عسكره أن لايركب أحدهم إلا والسيف في وسطه، فلما أمر هو بذلك إقتدى به غيره من أصحاب الأطراف، وبنى بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة وهي من أحسن المدارس وأوسعها، وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعية والحنفية نصفين، وبنى رباط الصوفية بالموصل أيضا، وهو الرباط المجاور لباب المشرعة ووقف عليهما الوقوف الكثيرة، وكان كريما قصده شهاب الدين حيص بيص وامتدحه بقصيدته المشهورة وهي من جيد شعره فأجازه عنها ألف دينار أميري سوى الاقامة والتعهد مدّة مقامه وسوى الخلع والثياب.

قلت أوّل تلك القصيدة:

إلامَ يراك المجد في زي شاعر

يقول في آخرها:

أتــابــك إن سميــت في المهــد غــازيــا
فســابقـــة معـــدودة في البشـــائر
وفيـــت بها والـــدين قـــد مـــال روقـــه
وصـــدّقتهـــا والكفـــر بـــادي الشعـــائر

وعـزى أبو الحسين أحمد بـن منير نـور الديـن بـأخيـه بقصيدة تقـدّم بعضها أوّلها:

هـــو الجدّ بـــز التمام البـــدورا

يقول فيها:

ســـوى كـــل مـــا جنـــت الحادثـــا
ت مـــا كنـــت ظـــلا علينـــا قـــريـــرا
أســـأ ن وأحســـن كـــنّ الهلال
ومـــلأ ننـــا منـــك بـــدرا منيرا
إذا ثبـــج البحـــر أخطـــأنه
فـــلا غـــر وأن ينتشفـــن الغـــديـــرا
وأصغـــر بفقـــداننـــا الـــذاهبـــ
ـــين مـــا عشـــت نـــاتيـــك ملكـــا كبيرا
ومـــا أغمـــد الـــدهـــر ذاك الحســـا
م مـــا ســـلّ حـــداك عضبـــا بتـــورا
قسيـــم عـــلاك ونعـــم القســـ
ـــيم أخ شـــاف نـــزرا وأعطـــى كثيرا
وكـــان نظيرك غـــار الـــزمـــا
ن مـــن أن يـــرى لـــك فيـــه نظيرا
فـــدتـــك نفـــوس بـــك استـــوطنـــت
مـــن الأمـــن نـــورا وقـــد كـــنّ بـــورا
وغيرك يمهـــد بســـط العـــزا
ء ويـــولي المسلمين سمعـــا وقـــورا

ومـــانقـــص الـــدهـــر اعـــدادكـــم
إذا شـــف قطـــراوأبقـــى بحـــورا

ولـــو أنصـــف المجـــد مـــوتـــاكـــم
لخط لهم في السماء القـــــورا

حيـــاتـــك أحيـــت رميـــم الـــرجـــا
وأمطـــت مـــن الجود ظهـــرا ظهيرا

بقيـــت معـــزا مـــن الهالكـــ
ـــين تـــوقـــى الـــردى تـــوفي الاجـــورا

وللقيسراني قصيدة منها
مـــا أطـــرق الجو" حتـــى أشرق الافـــق
إن أغمـــد السيـــف فـــالصمصـــام يـــأتلـــق

دون الاســـى منـــك نـــور الـــديـــن في حلـــب
مملـــك ينجلي عـــن وجهـــه الغســـق

هـــو الشقيـــق الشفيـــق الغيـــب حين ثـــوى
أراق مـــاء الكـــرى مـــن جفنـــك الارق

تلقـــى الاســـى مـــن لبـــاس الصبر في جنـــن
حصينـــة تحتهـــا الاحشـــاء تحترق

ومـــدّة الاجـــل المحتـــوم إن خفيـــت
فـــإن أيـــامنـــا مـــن دونها طـــرق

وإنما نحـــن في مضمار حلبتهـــا
خيـــل إلى غـــايـــة الاعمار تستبـــق

شـــأو إذا ابتـــدر الاقـــوام غـــايتـــه
كـــان المؤخـــر فيهـــا مـــن لـــه السبـــق

إن كـــان صنـــوك هـــذا قـــد ثـــوى وذوى
ففـــي مغـــارســـك الاثمار والـــورق

أو أصبحـــت بعـــده الاهـــواء نـــافـــرة
أيـــدي سبـــا فعلى عليـــاك نتفـــق

مـــاغـــاب مـــن غـــاب عـــن آفـــاق مطلعـــه
الا ليفترّ عـــــن أنـــــوارك الافـــــق
مـــادام شمســـك فينـــا غير آفلـــة
فـــالـــديـــن منتظـــم والملـــك متســـق

فصل

قال ابـن الاثير: لما توفي سيـف الدين غـازي كان أخـوه قطب الـدين مـودود بالموصـل، فاتفقـت كلمة جمال الـدين وزيـن الديـن على توليتـه وتمليكه طلبـا للسلامـة منه، فـإنه كـان لين الجانب حسـن الأخلاق كثير الحلم كريـم الطباع، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا لـه ونزل بدار المملكة،وحلـف له الأمـراء والأجناد واستقـر في الملك، وأطـاعه جميـع ما كـان لأخيه سيـف الـدين ، لأن المرجـع كـان في جميع المملكـة إلى جمال الديـن وزين الديـن، ولما ملك واستقرّ في الملـك تزوّج امرأة أخيـه الذي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الـدين تمرتاش صاحب ماردين، فولدت لقطب الـدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعـده على ما سنذكره، ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها.

قال: وكـانت هـذه الخاتون يحل لها ان تضـع خمارها عنـد خمسة عشر ملكا من آبائها وأجدادهـا وأخوتها، وبني أخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها، ثـم ذكرهـم ابن الاثير في كتـابه وسماهـم، وذكر أنها أشبهـت في ذلك فـاطمة بنت عبـد الملك بن مروان زوج عمـر بن عبد العـزيز رضي اللّـه عنه، وكـان لها أن تضـع خمارها عنـد ثلاثـة عشر خليفـة وهم مـن معاوية إلى آخـر خلفاء بني أمية سوى آخـرهم وهو مروان بن محمـد فإنه ابن عم لها ليس بمحـرم والباقون محارم لها، وما تم له ذلـك إلاّ بعد ذكره أن أمها عاتكـة بنت يزيد بن معاويـة، فمعاوية جدّ أمها، ويزيـد جدّها لأمها، ومعاوية ابن يزيد خالها، ومـروان جدّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليـد وسليمان وهشام ويـزيد أخـوتها، وعمر بـن عبد العـزيز زوجهـا،

والوليـد بن يزيـد ويزيد بـن الوليـد، أولاد أخوتها، وهؤلاء كلهـم خلفاء، وعدتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كلـه مبني على أصل فيه خلـل، وهو أن فاطمة بنـت عبد الملك ليست أمهـا عاتكة بنت يزيـد بن معاوية، بل أمهـا امرأة مخزومية، على مـا بيناه في تـرجمتها في تـاريـخ دمشق، ولكـن الصواب في ذلـك أن يقال كـان لفاطمة أن تضـع خمارها عنـد عشرة من الخلفاء، وهـم: مروان ابن الحكـم ونسله سوى، مـروان بن محمد، وأمـا عاتكة فـالجميع محرم لها سوى عمر بن العـزيز ومروان بن محمد،بقي اثنـا عشر خليفة كلهم محارم لها : معاويـة جدّهـا، ويزيـد أبوها، ومعـاوية بـن يزيـد أخوهـا، ومروان حموها، وعبد الملـك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجهـا، ويزيد ابـن عبد الملـك ابنها، والـوليد بـن يزيـد ابـن ابنها، ويـزيد بـن الوليـد وابراهيم بن الـوليد ابنا ابن زوجها، ولو أضيـف إلى ذلك الملوك من محارم عـاتكة أو فـاطمـة كالأخـوة والأعمام والأخوال وبنـي الاخـوة لتضاعـف العدد، كخالـد بن يزيد بن معاويـة أخي عاتكة، وعبد العزيـز بن مروان عم فـاطمة، ومسلمة وعبـد الله ابني عبد الملـك، وغيرهم، وذلك ظـاهر لمن عرف أنسـاب بني أميـة، وماذكـر ابن الاثير مـن أمر حسـام الديـن، فست الشـام بنت أيوب أكثـر منها محارم مـن الملوك يجتمع لها مـن ذلك أكثـر من ثـلاثين ملكـا من أخـوتها الأربعة: المعظـم، وصـلاح الديـن، والعـادل،وسيـف الاسـلام، ومـن أولادهـم وأولاد أولادهـم وأولاد أخيهـا الأكبر شاهنشـاه بن أيوب تقـي الديـن وذرّيته أصحاب حماه، وفـرخشاه وابنه الأمجد صاحب بعلبك.

فصل

قال ابـن الاثير: ولما ملك قطـب الدين الموصـل والبلاد الجزريـة، كان

أخوه نور الدين بحلب، وهو أكبر من قطب الدين، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم منهم المقدّم والد شمس الدين بن المقدّم، وهو حينئذ دز دار سنجار، فسار نور الدين جريدة في سبعين فارسا مُن أكابر دولته منهم أسد الدين شيركوه، ومجد الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما، فوصلوا إلى ماكسين في ستة أنفس في يوم شديد المطر، وعليهم اللبابيد، فلم يعرفهم الذين بالباب، وأرسلو إلى الشحنة وأخبروه بوصول نفر من الأجناد كأنهم تركمان، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه، وسار مجداً إلى سنجار فوصلها وليس معه إلاّ نفر يسير، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدّة تعبه، وأرسل إلى المقدّم بالقلعة يعرفه وصوله، وكان المقدّم قد استدعي من الموصل لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها فأرسلوا إليه، فوقف عدّة أيام فلم يصل نور الدين، فسار إلى الموصل، وترك ابنه شمس الدين بسنجار، وقال له: أنا أتاخر في الطريق فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني، فلما فارق سنجار وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصدا إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين فخاف فوات الأمر، ووصل القاصد الذي سيره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتل يعفر، فعاد إلى سنجار وسلمها إلى نور الدين، وكاتب فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجده، وبذل له قلعة الهيثم فسار إليه بجنده، فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن الموصل، نحو سنجار ومعه الجمال والزين ونزلوا بتل يعفر، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له، وتهددوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختيارا، فأعاد الجواب: إنني أنا الاكبروأنا أحق أن أدبر أمر أخي منكم، وما جئت إلاّ لما تتابعت كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكم عليهم - يعني الجمال والزين- فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا، فأما تهدّدكم إياي بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلاّ

بجندكم وكـان قد هرب إليه جماعة مـن أجنادهم، فخافـوا أن يلقوه لئلا يخامـر عليهم بـاقي العسكـر، ودخـل الأمراء في الصلـح وأشار بـه جمال الدين الـوزير، وقال: نحن نظهر للسلطـان والخليفة أننا تبع نـور الدين، ونـور الـديـن يظهر للفـرنـج أنـه يحكمنـا ويهدّدهـم بنا، فـإن كـاشفنـاه وحـاربناه، فـإن ظفر بنـا طمع فينـا السلطان، وإن ظفـرنا بـه طمع فينـا الفرنـج، ولنا بالشام حمص، وقـد وصار له عنـدنا سنجار، فهذه أنفـع لنا من تلـك، وتلك أنفـع له مـن هذه والـرأي أن نسلم إليـه حمص ونأخـذ سنجار وهـو في ثغر بازاء الفـرنج ويتعين مساعـدته، فاتفـق الجماعة على هذا الرأي وسار جمال الدين إلى نور الـدين وأبرم معه الأمر وتسلم حمص وسلم سنجار إلى أخيه، وعاد نور الديـن وأخذ ما كان بسنجار من المال، ولما تسلم قطـب الديـن سنجار أقطعهـا لزيـن الديـن لأن حمص كانـت لأخيـه ينال ، وهـو مقيـم بها، واتفقـت كلمتهم واتحدت آراؤهـم، وكـل واحد منهما لايصدر إلاّ عن أمر أخيه، وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال:أنـت عندك من الكفاية ما يستغنـي به عن وزير ومشير وليـس عندك مـن الأعداء مثـل ما عنـد أخيك لأنّ عـدّوّك كافـر فـالنـاس يدفعـونـه ديـانة، وأعـداء أخيـك مسلمـون فيحتاج مـن يقـوم بدفعهم، وإذا كنت عند أخيك فالنفـع إليك عائد وأريد من بلادك مثل مالي مـن بلاد أخيك معونـة على كثرة خرجي، فـأجابه إلى ذلك فقـال له جمال الدين: أنت عليك خرج كثير لأجل الكفـار فيجب مساعدتك وأنا اقنع منـك بعشرة آلاف دينار كـل سنة، فـأمر لـه بها، فكان نـائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم.

قلت :وقـرأت في ديوان القيسراني وقال في نور الـدين عند قدومـه وقد استـولى على سنجـار وأعمال الـرحبـة والفـرات، وذلـك في منتصـف ذي القعدة سنة أربعين وخمسمائة:

هـذا الـذي ولـدت لـه الافكـار
وتمخضـت فـألا بـه الاشعـار

وجـرت لـه خيـل النهـى في حلبـة
وردت وصفـو ضميرهـا المضمار

واتـت بـه نـذر القـوافي بـرهـة
إن القـوافي وحيهـا انـذار

حكمـت لسيفـك بـالمالـك عنـوة
حكـما لعمـري مـا عليـه غبـار

يـا أيها الملـك المطيـل نجـاده
بـرّ يـديـن بهديـه الابـرار

يـا بـن السيـوف وهـل فخـرت بنسبـة
إلا سما بـك للجـدود فخـار

فـارقـت دار الملـك غير مفـارق
لـك مـن عـلاك بكـل أرض دار

في عسكـر تخفـي كـواكـب ليلـه
نقعـا فيطلعهـا القنـا الخطـار

جـرّار أذيـال العجـاج وراءه
وأمـامـه بـل جحفـل جـرّار

تـدنـي لـك الغـايـات أكبر همة
نـوريـة همم الملـوك كبـار

حتـى مـلأت الخافقين مهـابـة
دانـت لعظـم نظـامهـا الاقطـار

وملكـت سنجـارا ومـا مـن بلـدة
إلاّ تمنـت أنها سنجـار

وبسطـت بـالأمـوال كفـا طـالما
طـالـت بها الآمـال وهـي قصـار

وجـرت بـأمـداد الجيـاد شعـابها
جـري السيـول ومـا سـواك قـرار

وثنـــي الفـــرات إلى يـــديـــك عنـــانـــه
والبحـــر مـــا اتصلـــت بـــه الانهار

وملكـــت رحبـــة مـــالـــك فتبرجـــت
منهـــا العينـــك كـــاعـــب معطـــار

جـــاءتـــك في حلـــل الـــربيـــع وحليهـــا
قبـــل الـــربيـــع شقـــائق وبهار

نشـــرت عليـــك هـــوى القـــلوب محبـــة
وتـــودّ لـــو أنّ النجـــوم نثـــار

فـــأقمـــت كـــالشمـــس إن نـــأت
عـــن أفقهـــا فلهـــابـــه أقمار

مـــن كـــان نـــور الـــديـــن ثـــم أجنّـــة
ليـــل السرى حفـــت بـــه الانـــوار

تـــدعـــو البـــلاد إليـــك ألسنـــة الظبـــى
فيجيبـــك الانجـــاد والاغـــوار

حتـــى عمـــدت الـــديـــن يـــابـــن عماده
بقنـــا أسنتهـــا عليـــه منـــار

وقفلـــت مـــن أسفـــار جـــدّك قـــادمـــا
كـــالصبـــح نـــمّ بثغـــره الاسفـــار

يغشـــى البصـــائر نـــور وجهـــك بعـــدمـــا اعـــ
ـــتركت على قسما تـــه الأبصـــار

حتـــى عمـــرت بكـــل قلـــب صـــدره
حيـــث الصـــدور مـــن القلـــوب قفـــار

إن تمس في حلـــب ريـــاحـــك غضـــة
فلهـــا بـــأنطـــاكيـــة إعصـــار

وغـــدت جيـــادك بـــالشـــآم مقيمـــة
ولها بـــأطـــراف الـــدروب مغـــار

همم سبقـــت بها إلى مهـــج العـــدى
صرف الـــردى ومسيره إحضـــار

وأرى صباح القمص كان خديعة
فطغى وجاور ليس ثم وجار
سأل الصنيعة غير محقوق بها
والخير يهدم ما بنى الختار
حتى إذا ما غبت أقدم عائثا
اقدام من لم يدن منه قرار
أمضى السلاح على عدوّك بغيه
بالغدر يطعن في الوغى الغدّار
فاحسم عناد ذوي العناد بجحفل
كالليل فيه من الصفيح بهار
جند على جرد أمام صدورها
صدر عليه من اليقين صدار
قد بايع الاخلاص بيعة نصره
ولكل هادي أمّة أنصار
ملك له من عدله ووفائه
جيش به تستفتح الامصار
وإذا الملوك تثاقلت عن غاية
وأرادها خفت به الاقدار
وإذا انتضته إلى الثغور عزيمة
قامت مقام جنوده الاخبار

ولابن منير من قصيدة فيه:
ترنح معطف الزوراء لما
دعاك لزور سنجار لمام
وزلزلت الصعيد وراء مصر
غداة علتك في قطنا الخيام
رجاء هزتيك وتلك خوف
ولو قد شئت ضمهما قرام

بعيشك يا مبيد الخيل ركضا
حمام هن تحتك أم حمام

وقال ابن منير أيضا يهنئه بتسلم قلعة حمص من ينال، وأنشده في القلعة قصيدة أوّلها:

ارحها فهي أزلام المعالي
لهنّ إلى الوغى توق المغالي

أما ومقيلهن بكل نقع
يقوّض بالهدى عمر الضلال

وأي سيوفك الحمر الحواشي
منزلة متى دعيت نزال

مواض إن سللن جزما
نفاه من الطلى لفظ اعتلال

لقد غلب الصليب بحر حرب
يشيب أوارها لمم الليالي

وشمت لنصر هذا الدين بأساً
يحرّم منه كل حمى حلال

وقايع أترعت في كل فج
وقايع جوّها دامي العزال

ومنها:

تسائل حمص عن منسي دين
تقاضاه لك الحجج الخوالي

فواتت وهي أخت النجم بعدا
ووعدا صيغ من مطل مطال

تشامخ أنفها عزاً وشدّت
على أن لا تنال يدا ينال

فمازالــــت رقــــاك تجدّ نقضــــا
لما تثنيـــه مــــن مــــرر الحبــــال
إلى أن أطلــق الحسنــــاء كــــرهـــا
وآل إلى مــــــلا وحــــــة المآلي
يصــد الــوجـــه عـــن شيا القــت
يــد الاشــم ذي بــاع طـــوال
شغلـــت بها يمينـــك والمواضي
تكفـــــل أن مصر للشمال
إذا افتـــح القتـــال عليـــك أرضــا
أبــاحـــك أختهــا لا عـــن قتـــال

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بافساد الفرنج في الأعمال الحورانية بالنهب والسبي، فعزم على التأهب لقصدهم وكتب إلى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد، ويستدعي المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مقدّم يعول عليه، وقد كانوا عاهدوا الفرنج على أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين، فاحتج عليه وغولط، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يبوس، وبعض العساكر بيعفور، فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبره ولم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا الافرنج بخبره وقرّروا معهم الانجاد عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عسقلان لعمارة غزة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس وعرف نور الدين خبرهم، فلم يحفل بهم وقال: لاأنحرف عن جهادهم، وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه عن العيث والافساد في الضياع ،وأمر باحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم، والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها، وكان الغيث قد انحبس عن حوران والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمحل واشتداد الأمر، فلما وصل نور الدين إلى بعلبك اتفق نزول

المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجـة، وأقام إلى مثله فروى الآكام والوهاد، وجرت الأوديـة وزادت الأنهاروامتلأت برك حوران ودارت أرحيتهـا، وعاد ما صـوح من الزرع والنبـات طرياً ، وحشـد الناس بالـدعاء لنور الـدين وقالـوا: هذا ببركته وحسن معـدلته وسيرته، ثم رحـل من منزله بـالأعوج ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العسـاكر في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجيرالـدين والرئيس وقال: إنني مـا قصدت بنزول هذا المنـزل طلبا لمحاربتكم ولا منـازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمـر كثرة شكاية المسلمين مـن أهل حوران والعربان بأن الفـلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج، وعدم الناصر لهم ولايسعني مع ما أعطـاني اللّـــه ، ولـه الحمـد، مـن الاقتــدار على نصرة المسلمين وجهـاد المشركين وكثرة المال والرجـال أن أقعد عنهم ولا انتصر لهم، مع معـرفتي بعجـزكـم عــن حفـظ أعمالكـم والـذب والتقصير الـــذي دعـاكـم إلى الاستصراخ بـالأفــرنــج على محاربتـي، وبـــذلكـم لهم أمـــوال الضعفـاء والمساكين مـن الرعية ظلما لهم وتعـديا عليهـم، وهذا لا يرضي اللّـه تعالى ولا أحد من المسلمين، ولا بـدّ من المعونة مـن ألف فارس مزاحـي العلة تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة.

قال: فكان الجواب عـن هذه الرسالة : ليس بيننـا وبينك إلاّ السيف، وسيوافينا مـن الافرنج ما يعيننـا على دفعك إن قصدتنا ونـزلت إلينا، فلما عاد الـرسول بهذا الجواب ووقـف عليه، أكثر التعجـب منه والانكـار له، وعزم على الزحـف إلى البلد ومحاربته في غد ذلـك اليوم، فأرسل اللّـه من الامطار وتداركها ودوامها ما منعه من ذلك.

ودخلت سنة خمس وأربعين

ففي مستهل المحرّم تقرّر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق والسبب في ذلك أن نور الدين اشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها بعد ما اتصل به من أخبار دعته إلى ذلك، واتفق أنه بذل لهم الطاعة، واقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان، وكذا السكة، ووقعت الايمان على ذلك، وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق، وأعاده مكرما محترما، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم، ثم استدعى الرئيس الى المخيم، وخلع عليه خلعة كاملة أيضاً وأعاده الى البلد، وخرج اليه جماعة من الأجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به، ووصل من استماحه من الطلاب والقراء والضعفاء بحيث ما خاب قاصده، ولا أكدى سائله، ورحل عن مخيمه عائداً الى حلب بعد احكام ما قرر، وتكميل ما دبر

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

لك الله إن حاربت فالنصر والفتح
وإن شئت صلحا عدّ من حزمك الصلح

وهل أنت إلاّ السيف في كل حالة
فطوراً له حد وطوراً له صفح

سقيت الردينيات حتى رددتها
ترنح من سكر فخلّ القنا تصحو

وما كان كف العزم إلاّ اشارة
إلى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح

وقد علم الاعداء مذ بت جانحا
إلى السلم ما تنوي بذاك وما تنحو

إذا مـــا دمشـــق ملكتـــك عنـــانها
تيقـــن مـــن في إيليـــا أنـــه الـــذبـــح
متـــى التـــف نقـــع الجحفلين على الهدى
فـــلا مهمـــة يحوي الضـــلال ولا سفـــح
إذا ســـار نـــور الـــديـــن في الجيش عـــازمـا
فقـــولا لليـــل الافـــك قـــد طلـــع الصبـــح
تـــركـــت قلـــوب الشرك تشكـــو جـــراحهـا
فـــلا زالـــت الشكـــوى ولا انـــدمـــل الجرح
صبرت فكـــــان الصبر غير مغبـــــة
فسيـــق إليـــك الملـــك يسعـــى بـــه النجـــح
كـــأنّ القنـــا تجلـــو لـــه وجـــه أمـــره
ولـــو أمهلـــت بلقيـــس مـــا غـــرّهـــا الصرح
بـــدولتـــك الغـــرّاء أصبـــح ضـــدّهـــا
بهيا ولـــولا الحســـن مـــا عـــرف القبـــح
وكـــم مـــن قـــريـــح القلـــب لـــو بـــات واردا
مـــوارد هـــذا العـــدل مـــا مســـه قـــرح
سخـــابـــك هـــذا الـــدهـــر جـــودا على الـــورى
على أنـــــه مـــازال في طبعـــــه شـــح
وقـــد كـــان يمحـــو رســـم كـــل فضيلـــة
ونحـــن نـــراه اليـــوم يثبـــت مـــا يمحـــو
بـــك ابتهـــج الالبـــاب وانتهـــج الحجـــى
وأثمـــــرت الآداب واطـــــــردا المدح
ولاذت بـــك التقـــوى، وعـــاذت بـــك العلى
ودانـــت لـــك الـــدنيـــا وعـــز بـــك السرح
فـــلا قلـــب الا قـــد تملكتـــه هـــوى
ولا صـــدر إلاّ قـــد جـــلاه لـــك النصـــح
ومـــا الجود في الامـــــلاك إلاّ تجارة
فمـــن فـــاتـــه حمد الـــورى فـــاتـــه الـــربـــح

ولم اختصر ما قلت إلاّ لأنني
اعبر عما لا يقوم به الشرح

فصل

في فتح عزاز

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب أعزاز وأصحابه، وحصلوا في قبضة الاسر في قلعة حلب، فسر هذا الفتح كافة الناس، وتوجه نور الدين في عسكره إلى أعزاز، ونزل عليها وضايقها، وواظب قتالها إلى أن سهل اللّه تعالى ملكها بالأمان ، وهي على غاية من المنعة والحصانة والرفعة، فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائدا إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأوّل.

قلت:وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدة أوّلها:

فدتك القلوب بألبابها
وساح الملوك بأربابها

كتائب ترمي جنود الصليـ
ـب منها بتقطيع أصلابها

إذا ما انثنت من قراع الكما
ة كست وفدها وشي أسلابها

تبرنس منها البرنس الثيا
ب وحلته من وقع احلابها

عشية غصت على إنب
نفوس النصارى بغصابها

وقام لأحمد محمودها
بجذع موازن أحزابها

تجلى لها حيـــــــدري المصـــــاع
أغلـــــب مـــــود بغـــــلابها
مـــورث أركـــاسهـــا مـــن أب
أكـــــول الفـــــوارس شرابها
همام إذا أعصـــــوصبـــت نبـــوة
دهـــاهـــا بها شـــم أعصـــابها
مضـــى وجنـــى لـــك حلـــو الشهـــا
دمـــا تمطـــق مـــن صـــابها
وأوصـــى بها لـــك مـــن بعـــدمـــا
تجرّع ممقـــــر أو صـــــابها
واقســـم جـــدّك أن لا يليـــــــ
ـــــق بغيرك ملبـــس أثـــوابها
صبحـــت دمشـــق بمشـــق الجيـــاد
زبـــور الـــوغـــى بين أحـــدابها
واصلـــت رأيـــك قبـــل الحســـا
م مخمـــــد جمرة أجـــــلابها
فـــأعطتـــك مـــا لم تنلـــه يـــد
وفـــازت رقـــاك بـــأصحـــابها
وأنـــت تصرف فضـــل الـــزمـــا
م مـــن حمص تـــأخير ركـــابها
تخوّنها الجور فـــاستـــدركـــت
بعـــدلـــك أغبـــار ظبظـــابها
وفـــاجـــأت قـــورس بـــالشـــائلات
تمج القنـــاســـم اذنـــابها
فمارمـــت حتـــى رمـــت بيضهـــا
إليـــك أزمـــة ضرابها
وعـــزت عـــزاز فـــاذللتهـــا
بمجـــرى مضيـــق لاسهـــابها

بـــــاشمـــــخ مـــــن أنفهـــــا منكبـــــا
وأكثـــــر مـــــن عـــــدّ طـــــورابها
دلفـــــت لعيطـــــا أم النجـــــو
م في الأمـــــر ايطـــــاء أتـــــرابها
وعـــــذرا مـــــذ عمـــــرت مـــــا اهتـــــدت
ظنـــــون الليـــــالي لاحـــــزابها
تفـــــرعتهـــــا بفـــــروع الـــــوشـــــ
ـــــيج مثمـــــرة هـــــام أوشـــــابها
وعـــــوج إذا انبضـــــت اغمضـــــت
ذكـــــاء لارســـــال نشـــــابها
ومحدود بـــــات تطير الخطـــــوب
مـــــلافـــــظ ألســـــن خطـــــابها
تصـــــوّب عقبـــــان ريـــــب المنـــــون
متـــــى بنتهـــــا بـــــاعقـــــابها
ومـــــا ركعـــــت حـــــول شـــــم الهضـــــا
ب الاسجـــــدن لانصـــــابها
فـــــلاذت بمعتصـــــم بـــــالكتـــــا
ب وهـــــوب الممالـــــك ســـــلابها
بمعتصمـــــي الـــــذرى والهدى
هموس السرى غير هيـــــابها
محلى المحـــــل بـــــوصـــــف الفتـــــو
ح ووصـــــف التهـــــاني وأربـــــابها
وتعجـــــز مـــــداحـــــه أن يحيـــــ
ـــــط بـــــآدابـــــه فلـــــك آدابهـــا
بـــــدائع لـــــوردد هـــــر رمـــــ
ـــــين بنـــــات حبيـــــب بـــــاحبـــــابها
وأيـــــن ابـــــن أوس وآيـــــاتـــــه
مـــــن الـــــلاء أودت بحســـــابها

مـــن الـــلاء عـــادعتيـــق لها
وردّ عليهـــــا ابـــــن خطـــابها

فـــأيـــامـــه مـــن حبـــور تكـــا
د يطير بها فـــــرط إعجـــابها

لـــك الفضـــل إن راسلتـــك الجيـــا
د وقـــامـــت أدلـــة أنجـــابها

إذا أغتسقـــت هـــمـم الجائريـــن
أتيـــت السيـــادة مـــن بـــابها

أبـــوك أبـــوهـــا وأنـــت ابنهـــا
العـــريـــق ودميـــه محرابها

أقـــول لمـــؤجـــره بـــالغـــرو
ر تمطـــت هـــواهـــا فـــأهـــوى بها

حـــذار فعنـــد ابتســـام الغيـــو
ث تخشـــى صـــواعـــق الهابها

ولا تخدعـــوا بـــافترار الليـــو
ث فـــالنـــار في بـــرد أنيـــابها

وبقي أطول من هذا:

فصل
في صفة أسر جوسلين

قال ابـن الأثير: سار نـور الديـن إلى بلاد جـوسلين وهي القـلاع التي شمالي حلب، منهـا: تل بـاشر، وعين تاب، وعـزاز، وغيرها مـن الحصون، فجمع جـوسلين الفرنج فـارسهم وراجلهم ولقوا نـور الدين وكـان بينهم حرب شديـدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنـج، وأخذ جوسلين سلاح دار كـان لنور الديـن أسيراً، وأخذ ما معـه من السلاح فـأنفذه إلى

السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب قونية واقصرا وغيرهما من تلك الأعمال، وكان نور الدين قد تزوج ابنته وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد انفذت لك بسلاح صهرك وسيأتيك بعد هذا غيره، فعظمت الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم إن هو جمع العساكر الاسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع ، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلا وإما أسراً، فاتفق أن جوسلين خرج في عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً فصانعهم على مال بذله لهم، فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين، فأرسل جوسلين في إحضار المال فأتى بعض التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال، فسير معه عسكرا أخذوا جوسلين من التركمان قهراً وكان نور الدين حينئذ بحمص، وكان أسره من أعظم الفتوحات على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتيا من شياطين الفرنج، شديد العداوة للمسلمين وكان هو يتقدّم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدّة عداوته للملة الاسلامية وقسوة قلبه على أهلها، وأصيبت النصرانية كافة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده وخلت بلادهم من حاميها، وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده، وكان كثير الغدر والمكر لايقف على يمين ولا يفي بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه ،فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غدره وحاق به مكره (ولايحيق المكر السيء إلاّ بأهله)(٥٨)فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب و،عزاز وقورس ،والراوندان ،وحصن البارة، وتل خالد،وكفر لاثا وكفر سود ،وحصن سرفوت بجبل بني عليم ،ودلوك ،ومرعش ،ونهر الجوز، وبرج الرصاص.

قال: وكان نور الدين رحمه الله إذا فتح حصناً لايرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدّد للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء.

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا منهم القيسراني، قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنس وأسر جوسلين وأخذ بلاده:

دعا ما ادعى من غره النهي والأمر
فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن ثنت الدنيا إليه عنانها
تصرف فيما شاء عن أذنه الدهر
ومن راهن الاقدار في صهوة العلى
فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر
إذا الجدّ أمسى دون غايته المنى
فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر
ولم لا يلي أسنى الممالك مالك
زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقا أن كرسي ملكها
حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر
وأنك نور الدين مذ زرت أرضها
سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت فلم يحجبك عنها وليها
وخطب العلى بـ السيف ما دونه ستر
جلاها لك الاقبال حورية السنا
عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب أكنت من هواك محبة
نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهر
فسقت اليها الأمن والعدل نحلة
فامست ولا اسر تخاف ولا إصر

فـان صـافحـت يمنـاك مـن بعـدهجـرهـا
فـاحلى التـلاقـي مـاتقـدّمـه هجـر
وهـل هـي الاكـالحصـان تمنعـت
دلالا وان عـز الحيـاوغـلا المهـر
ولكـن إذا مـا قستهـا بصـداقهـا
فليـس لـه قـدر وليـس لهاقـدر
هـي الثغـر أمسـى بـالكـراديـس عـابثـا
وأصبـح عـن بـاب الفـراديـس يفتر
على انها لـو لم تجبـك إنـابـة
لارهقهـا مـن بـأسـك الخوف والـذعـر
فـامـا وقفـت الخيـل نـاقعـة الصـدى
على بـردا مـن فـوقهـا الـورق النضر
فمـن بعـد مـا أوردتها حـومـة الـوغـى
وأصـدرتها والبيـض مـن علـق حمر
وجللتهـا نقعـا أضـاع شيـاتها
فـلا شهبهـا شهـب ولا شقـرهـا شقـر
على النهـر لماكـاثـر القصـب القنـا
مكـاثـرة في كـل نحـر لها نحـر
وقـد شرقـت أجـرافـه بـدم العـدى
إلى ان جـرى العـاصي وضحضـاحـه غمـر
صـدعتهـم صـدع الـزجـاجـة لايـد
لجابـرهـا مـا كـل كسر لـه جبر
فـلا ينتحـل مـن بعـدهـا الفخـر دائل
فمـن بـارز الابـرنـز كـان لـه الفخـر
ومـن بـز انطـاكيـة مـن مليكهـا
أطـاعتـه ألحاظ المؤللـة الخزر
أخـو الليـث لـولا غـدرة نـزعـت بـه
إلى الـذئب إن الـذئب شيمتـه الغـدر

أتـــى رأســـه ركضـــا وغـــودر شلـــوه
وليـــس ســـوى عـــافي النســـور لـــه قبر
وقـــد كـــان في استبقـــائه لـــك منـــة
هـــي الفتـــك لـو لم تغضـــب البيـــض والسمـــر

كما أهـــدت الاقـــدار للقمـــص اسره
وأسعـــد قـــرن مـــن حـــواه لـــك الاسر
طغـــى وبغـــى عـــدوا على غلـــوائه
فـــأوبقـــه الكفـــران عـــدواه والكفـــر
والقـــت بـــأيـــديها إليـــك حصـــونـــه
ولـــو لم تجب طـــوعـــا الجاء بها القسر
وأمســـت عـــزاز كـــاسمهـــا بـــك عـــزة
تشـــق على النسريـــن لـــو أنها الـــوكـــر
فسر وامـــلأ الـــدنيـــا ضيـــاء وبهجـــة
فبـــالافـــق الـــداجـــى إلى ذا السنـــا فقـــر
كـــأنـــي بهذا العـــزم لا فـــل حـــده
وأقصـــاه بـــالأقصـــى وقـــد قضي الامـــر
وقـــد أصبـــح البيـــت المقـــدس طـــاهـــرا
وليـــس ســـوى جـــاري الـــدمـــاء لـــه طهـــر
وقـــد أدت البيـــض الحداد فـــروضهـــا
فـــلا عهـــدة في عنـــق سيـــف ولا نـــذر
وصلـــت بمعـــراج النبـــي صـــوارم
مســـاجـــدهـــا شفـــع وســـاجـــد هـــاوتـــر
وإن يتيمـــم ســـاحـــل البحـــر مـــالكـــا
فـــلا عجـــب أن يملـــك الســـاحـــل البحـــر
سللـــت سيـــوفـــا أثكلـــت كـــل بلـــدة
بصـــاحبهـــا حتـــى تخوفـــك البـــدر
إذا ســـار نـــور الـــديـــن في عـــزمـــاتـــه
فقـــولا لليـــل الافـــك قـــد طلـــع الفجـــر

ولـــو لم يسر في عسكـــر مـــن جنـــوده
لكـــان لـــه مـــن نفســـه عسكـــر مجر

مليـك سمـت شـم المنـابـر بـاسمـه
كما زهيـت تيهـا بـه الأنجـم الـزهـر

فيـا كعبـة مـا زال في عـرصـاتها
مـواسـم حـج لا يـروّعهـا النفـر

خلعـت على الايـام مـن حلـل العلى
مـلابـس مـن أعـلامهـا الحمـد والشكـر

وتـوّجـت ثغـر الشـأم منـك جـلالـة
تمنـت لها بغـداد لـو أنها الثغـر

فـلا تفتخـر مصر علينـا بنيلهـا
فيمنـاك نيـل كـل مصر بها مصر

رددت الجهـاد الصعـب سهـلا سبيلـه
ويـا طـا لما أمسـى ومسلكـه وعـر

وأطمعـت في الافـرنـج مـن كـان بـأسـه
يخوّف أن يعتـاده منهـم فكـر

وأقحمـت جـرد الخيـل أعلى حصـونها
ولـولاك لم يهجـم على كـافـر كفـر

ومـن يـدعـي في قتلـك الشرك شركـة
إذا لم يكـن عنـد القـوافي لـه ذكـر

هـي القـانتـات الحافظـات فـروجهـا
فشـاهـدهـا عـدل ورائقهـا سحـر

ولـو لم يكـن في فضلهـا وكمالها
سـوى أنها مـن بعـد عمـر الفتـى عمـر

وله من قصيدة يصف فيها وقائعه أوّلها:

أمـا وخيـال زار ممـن أحبـه
لقـد هـاج مـن ذكـراه مـا لا أغبـه

إذا ما صبا قلب المحب إلى الصبا
ذكرت نسيما بالثغور مهبه
فيا نفحات الشأم رفقا بمهجة
يحامى عليها مدنف القلب صبه
فلا تسألن الصب أين فؤاده
فإن فؤاد المرء مع من يحبه
وفي شعب الاكوار من هو عالم
غداة استطار البرق من طار لبه
يشيم ثغور المزن تهمى كأنها
سنا بشر نور الدين تنهل سحبه
إذا ما اسما في مبهم الخطب وجهه
تمزق عن بدر الدجنة حجبه
تولد بين الغيث والليث والتقى
منافسة أي الثلاثة تربه
يعد مضاء في الظبى لا وضربه
بها قلل الاعداء ما السيف ضربه
مكين الحجى أرضى الزمان بنفسه
إلى الآن حتى لان وانقاد صعبه
حمى قبة الاسلام بالخيل فاغتدت
وأوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أوقعن بالكفر تحتها
فما انقشعت الا وللذل جنبه
كيوم الرها الورهاء والهام يانع
ملئ برعي الهند وأنى خصبه
وشهباء هاجتها وغى صرخدية
ثناها وليل الحرب ينقض شهبه
وعارم يوما بالعريمة فاغتدت
كوادي ثمود إذ رغا فيه سقبه

وعـاصي على العـاصي بـأرعـن خـاطـب
دم الأفـك حتـى أنكـح النصـل خطبـه
بـانّـب لما أكسـب المال وانثنـى
بصـاحـب أنطـاكيـة وهـو كسبـه
غـداة هـوى شطـريـن للسيـف رأسـه
وللـرّمـح حتـى تـوّج الـرأس قلبـه
على حين للخطـيّ فيـه عـوامـل
يعـاقبـه خفـض الحسـام ونصبـه
وقـائع محمـوديـة النصر لم تـزل
غـريبـا بها عـن مـوطـن السيـف غـربـه
يقـوم مقـام الجيـش فيهـا وعيـده
وتفعـل افعـال الكتـائب كتبـه
وحين انتضتـه عـزمـة مـن قـرابـه
مضـى وهـو نصـل والممالك قـربـه
إلى أن دعتـه ربها كـل بلـدة
فليـس مـن الأمصـار مـا لا يـربـه
ولما تـرى بـالقمـص عجـب هـوى بـه
على أم رأس البغـي والغـدر عجبـه
فـأصبـح في الحجلين ينكـر خطـوه
بعيـد على الـرجلين في السعـي قـربـه
تعـاقبـه البشرى بـأخـذ حصـونـه
فيـا عـانيـا ضرب البشـائر ضربـه
تنـاجـي عـزاز بـاسمـه تـلّ بـاشر
فيلعنـه لعـن الصريـح وسبـه
فـان يكـن المقهـور مـن ثـل عـرشـه
فهـذا عمـود الكفـر قـد طـاح طنبـه
فقـل للملـوك الخافقين نصيحـة
كـذا عـن طـريـق الليـث يـزأر غلبـه

وخلـــوا عـــن الافـــاق فـــالشرق شرقـــه
بحكـــم الـــردينيـــات والغـــرب غـــربـــه
ولا يعصـــم بـــالـــدرب طـــاغ على القنـــا
فـــإن القنـــا في ثغـــرة النحـــر دربـــه
رحيـــب فضـــاء الحلـــم عـــن ذات قـــدره
إذا ضـــاق مـــن صـــدر المملـــك رحبـــه
عفـــوّ عـــن الجاني يكـــاد الـــذي جنـــى
بكـــرّبـــه شـــوقـــا إلى العفو ذنبـــه
أمتخـــذ الاخـــلاص للّـــه جنـــة
ومـــن يعتصـــم بـــاللّـــه فـــاللّـــه حسبـــه
أبـــوك استردّ الشـــأم بـــالسيـــف عنـــوة
وللـــروم بـــأس طـــا الماغـــال خطبـــه
إذا ذب عـــن أضغـــاث دنيـــاه مـــالـــك
فـــانـــت الـــذي عـــن حـــوزة الـــديـــن ذبـــه
رأيـــت اتبـــاع الحق خير مغبـــة
فـــأفـــرجـــت عـــن رأي يسرك غبـــه
وأوضحـــت مـــا بين الفـــريقين سنـــة
بها عـــرف المربـــوب مـــن هـــو ربـــه
وبينـــت نـــور الـــديـــن مـــا كـــان يبتغـــي
دليـــلا بـــأن اللّـــه مـــن أنـــت حـــزبـــه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حمص:

هيهـــات يعصـــم مـــن أردت حـــذار
أنـــى ومـــن أوهـــاقـــك الاقـــدار

ومنها:

طلعـــت عليـــك بجـــوسلين ذريعـــة
لاسحـــل انشـــاهـــا ولا امـــرار

وسعـــادة مـــازلــت تمرى خلفهـــا
فيشـــف وهـــو النـــاتـــق المدرار
فـــارتـــك مـــا يجنـــي الـــوفيّ وفـــاؤه
وأرتـــه كيـــف تحين الغـــدّار
عـــود أمـــرّ على ابـــارك طلعـــه
فـــاحيـــل ذاك البر وهـــو بـــوار
مـــازلـــت تنعـــم وهو يكفر عـــاتيـــا
واللـــه يهدم مـــابنـــى الكفـــار
حتـــى أتـــاح لقـــومـــه مـــاجـــرّه
لثمـــود مـــن عقـــر الفصيـــل قـــذار
اسرى فـــأصبـــح في بـــراثـــن اسره
لازال يـــدمـــي ظفـــره الاظفـــار
يهب التـــلاد مـــن البـــلاد ومـــا حـــوت
إن السماحـــة للبحـــار بحـــار
يقظـــان يخشـــى اللّـــه في خلـــواتـــه
لامترف لاه ولا جبـــــــــــار
نصـــب المراقـــب للعـــواقـــب نـــاظـــرا
فيهـــا الـــذلـــك تـــربـــأ الابـــرار
لا كـــالـــذيـــن تعجلـــوا حســـواتها
وتغلســـوهـــا بعـــد وهـــي خســـار
درجـــوا وأدرج في ملـــف رفـــاتهم
ســـوءى تســـاء لـــذكـــرهـــا الآثـــار
والمرء مـــن يطـــوي فينشر طيـــه
مـــا أودعتـــه صـــدورهـــا الاخيـــار
قـــل لـــلأولى نـــامـــوا على نـــامـــاتـــه
مـــاكـــل هبـــة بـــارح اعصـــار
لاتـــأمنـــوا في اللّـــه بطشـــة ثـــائر
للّـــه مـــلء سريـــره اسرار

صـــــاف إذا كـــــدر المعـــــادن عـــــادل
إن حـــــاف حكـــــام الملـــــوك وجـــــاروا.

أعلى أبـــــوه لـــــه النجـــــاد وشيـــــد في
صهـــــواتها ممـــــا ابتنـــــاه منـــــار

محمـــــودا المحمـــــود آثـــــارا إذا
نظمـــــت على جيـــــد الـــــدجـــى الاسمار

ذانـــــت لـــــه الايـــــام صـــــاغـــــرة كما
دانـــــت لـــــه ظلـــــه الامصـــــار

له من أخرى أوّلها:

مـــــا الملـــــك الا مـــــاحـــــواك نجـــــاده

يقول فيها:

وتـــــديـــــن حســـــده لمحكـــــم آيـــــة
والفضـــــل مـــــا شهـــــدت بـــــه حســـــاده

شمـــــس إذا مـــــا الحرب زر جيـــــوبها
حـــــل المعـــــاقـــــد كـــــرّه وطـــــراده

ألـــــوى ألـــــدّ حمى الشريعـــــة جهـــــده
وأذل نـــــاصيـــــة الضـــــلال جهـــــاده

صعـــــق البرنـــــس وقـــــد تـــــلالأ بـــــرقـــــه
واطـــــار ســـــاكـــــن جـــــأشـــــه ارعـــــاده

ولى وقـــــد سلـــــت فسلـــــت ضغنـــــه
زبـــــر تلقـــــى فـــــودهـــــن فـــــؤاده

مستلئما مستسلما لاعـــــــــــدّه
ردّ المنـــــى عنـــــه ولا استعـــــداده

وبجوسلين احتثهـــــن فـــــاصبحـــــت
نهبـــــى لهن بـــــلاده وتـــــلاده

جـــــاءت بـــــه بعـــــد الشماس عـــــوابـــــس
قـــــود يلين لعنفهـــــنّ قيـــــاده

به تصيد لك السعود وقلما
ينجو بخير من أردت مصاده

داني له قيناه أدهم كلما
غناه طار شها ته عوّاده

سلبت عزاز عزاءه وبقورس
محجوبة فرشت له اقتاده

وبتل خالد يوم تل جبينها
خلط الثرى بجبينه اخلاده

وغدا يباشر تل باشر قلبه
باحرّ ما حمل القلوب عداده

منت أمانيه بشائرك التي
عادت لهن مآثما أعياده

وحبوت ملكك من نظيم ثغوره
حليا تتايه تحته أجياده

لا يخدعنك فانها اصلاح من
يخشى انتشاط خناقه افساده

أنزله حيث قضت له غدراته
واحله طغيانه وعناده

في حيث لا يأوي له سبحانه
حنقا ويكشط جلده جلاده

وثن هدمت بني الضلال بهدمه
وعدت عبادك عنوة عباده

فتكت به آيات من لمحمد
ولدينه ابداؤه وعواده

او انشط البلد الحرام تواءمت
تثني عليه تلاعه ووهاده

ولو ان منبره أطاق تكلما
نطقت بباهر فضله اعواده

نــــام الخليفة واستطـــال لـــذبــــه
عــــن ســــدتيـــــه واستطير رقـــــاده
رجعـــت لــك العـــز القـــديــم سيــوفــه
مــــازان رونــــق مـــائهـــا اغماده
مــن بعـــد مـــا نعـــق الصليــب لحزبــه
ورأيــــت زرع الملــــك حـــان حصـــاده
انـــــى تميـــل الحادثـــــات رواقــــه
بهبــــــوبها وابـــــن العماد عماده

فصل

قال ابـن الاثير : لما سار نـور الديـن إلى قلاع جـوسلين ملك بعضـا، وأبقى بعضاً ، فـاجتمعت الفرنج فـالتقوا مع نور الـدين بدلوك فهـزمهم واستولى على دلوك وغيرها، ففيها يقول أحمد بن منير قصيدة منها:

هـــي الخيـــل خير عتـــاد الكـــريـــم
يحضر للهـــــم احضــــارهــــا
ضغمـــــت فــــأدررت أفــــواههـــا
وسرت فقلمـــــت أظفــــارهـــا
الام ولم تبــــق ممــــــا غــــزو
ت قلــــوبـــا تكـــابـــد إذ عـــارهـــا
أمــــا في مفصـــــل آي القــــرا
ع أن تضــــع الحرب أوزارهـــــا
عســــــــى إن يُحم لهذا الحما
م أن يتــــوكـــــر أوكـــارهـــا
ومـــايـــوم مـــن غلتـــه واحـــد
فتـــودعـــه اللســـن أشعـــارهـــا
وأيـــن المقـــاول ممـــا فعلـــت
ولـــو شفـــع الفطـــراء كثـــارهـــا

فكـــم اجلبـــت خلفـــك الجافخـــا
ت(٥٩) فصلصل فخرك فخارها

أعـــــدت بعصرك هـــــذا الانيـــــ
ـــق فتـــوح النبـــي واعصـــارهـــا

وكـــان مهـــاجـــرهـــا تـــابعيـــ
ـــك وانصـــار رأيـــك انصـــارهـــا

فجـــــدّدت اســـــلام سلمانها
وعمـــــر جـــــدك عمارهـــــا

ومـــايـــوم إنـــب الاكتيـــــ
ـــك بـــل طـــال بـــالبـــوع اشبـــارهـــا

وأيـــامـــك الغـــرمـــن بعـــده
يعيـــد إلى الطـــي اغـــرارهـــا

ولماهبيـــــت ببصرى سمكـــــت
بـــاهبـــاء خيلـــك أبصـــارهـــا

ويـــــوم على الجون جـــــون السرا
ة عـــز فسعطهـــاعـــارهـــا

صـــدمـــت عـــريمتهـــاصـــدمـــة
أذابـــت مـــع الماء أحجـــارهـــا

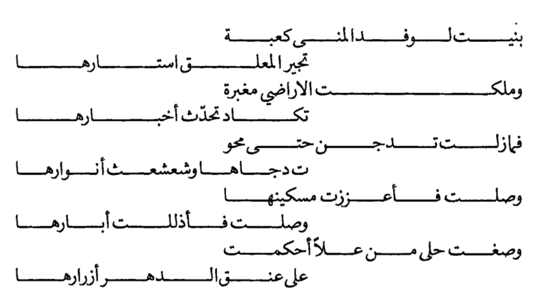
وفي تبـــل بـــاشر بـــاشرتهم
بـــزحـــف تســـور أســـوارهـــا

وإن دالكتهـــم دلـــوك فقـــد
شـــدّدت فصـــدقـــت أخبـــارهـــا

وشـــب التـــدامـــر حتـــى طلعـــت
عليهـــا فـــولتـــك أدبـــارهـــا

مشـــاهـــد مشهـــورة نمنمـــت
على صفحـــة الـــدهـــر اسطـــارهـــا

يلـــذ الاغـــاني تـــرجيعهـــا
ويستسفـــر السفـــر أسفـــارهـــا



بنيت لوفد المنى كعبة
تجير المعلق استارها
وملكت الاراضي مغبرة
تكاد تحدّث أخبارها
فمازلت تدجن حتى محو
ت دجاها وشعشعت أنوارها
وصلت فأعززت مسكينها
وصلت فأذللت أبارها
وصغت حلى من علاً أحكمت
على عنق الدهر أزرارها

قال أبو يعلى : في رجب وردت الاخبار من ناحية نور الدين بظفره بعسكر الأفرنج النازلين بازائه قريبا من تل باشر، وعظيم النكاية فيهم والفتك بهم، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم، واستولى على حصن خالد الذي كان مضايقه ومنازله.

قال : وفي أيام من محرم وصل جماعة من حجاج العراق وخراسان : المأخوذين في طريق الحج عند عودهم بجماعة من كفار العربان، وحكوا مصيبة ما نزل مثلها بأحد في السنين الخالية، ويكون أبشع منها، وذكر أنه كان في هذا الحاج من وجوه خراسان وأعيانها وفقهائها وعلمائها وقضاتها وخواتين أمراء العساكر السلطانية والحرم العدد الكثير، والاموال الجمة والأمتعة الوافرة فأخذ جميع ذلك وقتل الأكثر، وسلم الاقل، وهتكت النساء وسلبن وهلك من هلك بالجوع والعطش، فضاقت الصدور لهذه النازلة فكسي العاري منهم وأطلق لهم ما استعانوا به على عودهم إلى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق(ذلك تقدير العزيز العليم)[٦٠].

-٥٤٧ هـ-

فصل

قـال: وكان مجاهـد الدين بزان قـد تـوجه إلى حصنـه صرخد ليتفقـد أحـواله، فعـرضـت نفرة بين مجير الـديـن والرئيـس بسعـايات أصحـاب الاغراض والفساد، واقتضت الحال استدعـاء مجاهد الدين لاصلاح الحال فوصل وتم ذلـك بوساطته على شرط ابعاد الحاجب يـوسف صاحب مجير الديـن عن البلد مـع أصحابه، و تـوجهوا ولم يتعرض لشيء مـن أموالهم وقصد بعلبك فأكرمه واليها.

قـال: ووردت الأخبـار من مصر بـالخلـف المستمـر بين وزيرهـا ابـن مصال وبين الأمير المظفـر ابن السلار، ووقـوع الحرب وسفك الـدماء إلى أن أسفـرت الحال عن قتـل ابـن مصال الـوزيـر وانتصـاب ابن السـلار موضعه في الوزارة.

قال: وفيهـا في سابع عشر رجب تـوفي القاضي بهاء الدين عبـد الملك ابن الفقيه عبد الـوهاب الحنبلي، وكان إماما فاضلا منـاظرا مستقلا مفتيا على مذهـب الامامين أحمد وأبي حنيفـة بحكم مـا كان عليـه عند إقـامته بخراسان لطلب العلم والتقدّم، وكـان يعرف اللسان الفارسي مع العربي، وهو حسـن الحديث في الجدّ والهزل، وكان لـه يوم مشهود ودفـن في جوار أبيه وجدّه في مقابر الشهداء.

قال: وتوفي عقيـب وفاته القاضي النقيـب فخر الدولة أبـو الحسين بن أبى الجنّ ، وتفجع الناس لخيريته وشرف بيته.

-٧٧١٣-

ودخلت سنة ست وأربعين

ففيها حاصر نور الدين دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، ومدحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها عليهم، وكتبها إليه من حماه وهو محاصر دمشق، وقد تخلف عن الخدمة لمرض عرض له منها:

اخليفة اللّه الذي ضمنت له
تصديق واصفه سراة المنبر
لا المستطيل بمصر ظل قصوره
والمستطال إليه شقة صرصر
يا نور دين اللّه وابن عماده
والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صفر بحد السيف دار أشائب
عقلوا جيادك عن بنات الاصفر
هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا
نارا تحش بهم غدا في المحشر
اذكوا بجلق حرها واستسعرت
لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم من خلفهم مستنجدا
ما ظاهر الكفار من لم يكفر
لا تعف بل سق الهدى نفس الذي ادّ
رع الضلال على أغر مشهر
قلده ما اهدى علي لمرحب
فلقد تهكم في الخداع الخيبري
ما الغش ممن أمه نصرانة
لم تختتن كالغش ممن متنصر
اذكت لنا هذي العزائم لاخبت
ما غار من سنن الملوك الغبر

اثقـــــاب اراء المعـــــز وخفــــــق را
يـــات العـــزيــــز ويقظـــة المستنصر
شمـــــر فقــــد مـــدّت إليـــك رقـــابها
لا يــــدرك الغـــايـــات غير مشمـــــر
أولســـت مـــن مـــلأ البسيطـــة عـــدلـــه
واجتـــب بــــا لمعـــروف أنـــف المنكـــــر
حـــــدب الاب البر الكبير ورأفـــة الـــــــ
ـــــأم الحفيـــة بـــــاليتيــــم الاصغـــــر
يــــا هضبـــة الاســـلام مـــن يعصـــم بها
يــــؤمـــن ومـــن يتـــول عنهـــا يكفـــــر
كـــانـــوا على صلـــب الصليـــب سرادقـــا
انبـــت بنيتـــــه بكـــــل مـــــذكـــــر
آثـــارهـــم نجـــس اذال المسجـــد الـــــــ
ـــــأقصى فصـــــن مـــادنســـوه وطهـــــر
جـــار الخليـــل ومـــن بغـــزة هـــاشـــم
بلهـــــامـــك المتـــــدمشـــق المتمصر
بعـــرمـــرم صلمـــت وعـــاوعـــه عـــرى
اسماع جيحـــــون وسيـــــف البربـــــــر
يفتر عـــن ملـــك الملـــوك منحـــل الـــــ
ــــأنـــواء بـــل سعـــد السعـــود الأكبر
عـــن طـــاعـــن الفـــرســـان غير مكـــذب
ومتمــــم الاحســـــان غير مكـــــــدر
بـــدر الجحـــافـــل والمحـــافـــل فـــارس الآ
ســـاد في غـــاب الـــوشيـــج الاسمـــــر
ملـــك تســـاوى النـــاس في أوصـــافـــه
عـــذر المقـــلّ وبـــان عجـــز المكثـــر
يـــــا أيها الملـــك المنـــادي جـــوده
في ســـائر الآفـــاق هـــل مـــن معسر

إن القصـــائد أصبحـــت أبكـــارهــــا
في ظـــل ملكـــك غـــاليـــات الأمهـــر
إن كنـــت أحييـــت ابـــن حمدان لها
فـــانـــا الـــذي غبرت في وجـــه السري
ولأنـــت أكـــرم مـــن أنـــاس نـــوّهـــوا
بـــاســـم ابـــن أوس واستخصـــوا البحتري
ذلـــت لـــدولتـــك الـــرقـــاب ولا تـــزل
ان تغـــز تغنـــم أو تقـــاتـــل تظفـــر

وكتب إليه من حماه أيضا وهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من صاحبها يقول:

أبـــوك أب لـــو كـــان للنـــاس كلهـــم
أبـــا ورضـــوا وطء النجـــوم لفنـــدوا
ومـــا مـــات حتـــى سـد ثلمـــة ملكـــه
بـــك اللّـــه تـــرمـــي مـــارمـــاه فتصرد
صدمـت ابـن ذي اللغـديـن فـانحـل عقـده
وكـــالسلـــك قـــد أمســـى يحل ويعقـــد
يقلـــب خلـــف السجـــف عينـــا سخينـــة
ويبكـــي بـــأخـــرى ذات شتر ويسهـــد
ولا غـــرو قـــد أبقـــى أبـــوه وجـــده
لـــه كـــل يـــوم ثـــوب عجـــز يجدّد
فيـــا راكبـــا أمـــا عـــرضـــت فبلغـــن
بيـــوتـــا على جيرون بـــالـــذل تعمـــد
وقـــل لمبيـــد الـــديـــن وهـــو مجيره
بـــزعـــم لـــه وجـــه الحقيقـــة أربـــد
حملـــت الصليـــب بـــاغيـــا ونبـــذتـــه
وثغـــرك مطـــووس يبـــاب وأدرد
وحـــاربـــت حـــزب اللّـــه واللّـــه نـــاصر
لنـــاصره وديـــن أحمد أحمد

تنصرت حينـــا والبــــلاء مـــوكـــل
ولا بـــد مــــن يـــوم بـــه تتهـــوّد
وأقســـم مـــا ذاق اليهـــود بـــا يليـــا
ومـــوضعهـــا مـــن بختنصر أســـود
كبعـــض الـــذي جـــرّعتـــه فسرطتـــه[٦١]
وأيـــد فيـــه مـــن عماك المؤيـــد

ولا يتـــه عـــزل اليـــك مـــوجـــه
وتصحيفـــه قتـــل عليـــك مـــؤبـــد
رمـــاك ببـــاقـــلا دمشـــق فلـــم تكـــن
ســـوى بقلـــة حمقـــاء بـــالحمـــق تحصـــد
وجـــالـــدت جـــلادا وأنـــت مـــؤنـــث
تـــذكـــرت والجلاد أدهـــى وأجلـــد
تطـــاولـــت لأنفـــس تسمـــى ولا أب
وراءك زحفـــا إنما أنـــــت مقعـــــد
امسعـــاة نـــور الـــديـــن تبغـــي ودونها الـــ
ـــأسنة تبر والعـــوامـــل تعضـــد
بمحمـــود المحمـــود سيفـــا وســـاعـــدا
حملـــت لقـــد نـــاجتـــك صما مـــؤيـــد
وهـــل يستـــوي ســـارتـــأ ســـد طـــاويـــا
ونشـــوان يعلـــو معصما ويـــؤيـــد
تنصرت أمـــا بـــل تمجســـت والـــداً
وعماً فعـــرق الكفـــر فيـــك مـــردّد
تخذت بنـــي الصـــوفي أسرا وأسرة
لكـــي يصلحـــوا مـــا في يـــديـــك فـــأفســـدوا
لعمـــري لنعـــم العبـــد أنـــت تجيعـــه الـــ
ـــموالي وتـــوليـــه هـــوانـــا فيحمـــد
إليكـــم بنـــي العـــلات عـــن متشـــاوس
لـــه الشـــأم مـــرفـــا والعـــراق مـــرفـــد

مـــا مصر إلاّ بعـــض امصـــاره التـــي
إلى أمـــره تسعـــــى قياماء وتحفـــــد
انيبـــوا إليـــه فهـــو أرحـــم قـــادر
لــه الصفـح ديـن واقبلـوا النُصـح تـرشـدوا
ولا تـــرشفـــوا نفـــس المؤيـــد إنـــه
عـــن الخير يـــروي أو إلى المين يسنـــد
وفـــرّوا إلى مـــولاكـــم والـــذي لـــه
عليكـــم أيـــادو سمهـــا اليـــس يجحـــد
ولا تكفـــروه إنما أنتـــم لـــه
ومنـــه ويـــوم عنـــد حـــوران يشهـــد
غـــداة على الجولان جـــول وللظبـــى
رعـــود فـــريـــص الموت منهـــن يـــرعـــدُ
ولما اكفهـــرّ اليـــوم واربـــدّ وجهـــه
وعـــوّز مـــرهـــون وفـــر مـــزبـــد
وأيقـــن مـــن بين السـديـــر وجـــاسـم
بـــان الحرار الســـود بـــالجرد تجرد
ردتهم على بصرى وصرخـــدّ خيلـــه
وقـــد أبصرت بصرى رداهـــا وصرخـــد
وطـــاروا تهز المرهفـــات طـــلاهـــم
كما انصـــاع مـــن اســـد نعـــام مشرد
وليلـــة ألقـــى الشريـــك بـــالمرج بـــركـــه
ومـــازج نيران الـــوغـــى تتـــوقـــد
رمـــى وأخـــوه مغـــرب الشمـــس دونكـــم
بمشرقهـــا غضبـــان يعـــدو ويسئـــد
فمـــذ وردت مـــاء الارنـــط مغـــذة
أثـــارت بثـــور اغلـــة ليـــس تبرد
أيـــا سيـــف شـــامتـــه يـــدا الملـــك صـــارمـــا
فيمهمـــد إذ يسري ويسري فيهمـــد

دمشق دمشق إنّما القدس سرحة
ومركزها صرح عليها ممرد
حموها الكي يحموا وقد بلغ المدى
بهم أجل حتم وعمر محدّد
متى انا راء طائر الفتح صادحا
يرفرف في أرجائها ويغرد

وله من قصيدة أخرى:
نذرك بالغوطتين قد ضمنت
ربوتها ربعه ومقراها
أطلع لها الشمس من جبينك لم
ترج سواها في النوم جفناها
فالخيل صور إلى تساهم سهميـ
ـها وملهى في بيت لهياها
دولة من دانت البلاد له
وعمها ظله فأغناها
لا بسواها تليق بهجتها
ولا سواه تبغي رعاياها

قال أبو يعلى: وفي عاشر المحرم نزلت أوائل عسكر نور الدين على أرض عذرا من عمل دمشق وما والاها ، وفي الغد قصد فريق وافر منهم ناحية السهم والنيرب وكمنوا عند الجبل لعسكر دمشق، فلما خرج منها إليهم أسرع النذير إليهم فحذرهم وقد ظهر الكمين فانهزموا إلى البلد، وفي الغد نزل نور الدين بعسكره على عيون فاسريا بين عذرا ودومة، وامتدوا إلى تلك الجهات ونزلوا من الغد في أراضي حجيرا وراوية في الخلق الكثير والجم الغفير، وانبسطت أيدى المفسدين من العسكر الدمشقي والأوباش من أهل العيث والفساد في زروع الناس فحصدوها، وفي الثمار فأفنوها بلا مانع ولادافع ، وتحرك السعر وانقطعت السابلة،

ووقع التأهب للحصار ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول: أنا ما أوثر إلاّ صلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد، فلم يعد الجواب إليه بما يرضاه فنزل في أرض مسجد القدم وما والاه من الشرق والغرب وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلي البلد.

قلت: هو الذي يسمى في زماننا بمقبرة المعتمد بين مسجد القدم ومسجد فلوس.قال: وهذا منزل ما نزله أحد من مقدمى العساكر فيما سلف من السنين، وأهمل الزحف إلى البلد اشفاقا من قتل النفوس ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدور أهل الصلاح وزاد انكارهم لمثل هذه الاحوال المنكرة، والمناوشات في كل يوم متصلة من غير مزاحفة ولا محاربة، فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر فرحل العسكر النوري من هذه المنزلة، ونزل في أراضي فذايا وحلقبلتين والخامسين المصاقبة للبلد، وما عرف في قديم الزمان من أقدم على الدنو منها، ثم رحل في العشرين من صفر إلى ناحية داريا لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الافرنج من البلد لقوّة عزمه على لقائهم، وصار العسكر النوري في عدد لايحصى، وفي كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركمان، ونور الدين مع هذه الحال لايأذن لأحد من عسكره في التسرع والظهور، ولايعودون إلاّ خاسرين مغلولين ، وأقام على هذه الصورة، ثم رحل إلى ناحية الأعوج لقرب عسكر الافرنج وعزمهم على قصده، واقتضى رأيه الرحيل إلى جهة الزبداني استجرارا لهم وأفرق من عسكره فريقا يناهز أربعين ألف فارس مع جماعة من المقدّمين ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الأفرنج ولقائهم وترقباً لوصولهم وخروج العسكر الدمشقي إليهم واجتماعهم بهم، ثم يقاطع عليهم، واتفق أن عسكر الفرنج رحل عقيب رحيله إلى الأعوج، ونزل به في ثالث ربيع الأوّل ودخل منهم خلق كثير

إلى البلد لقضاء حوائجهم، وخرج مجير الدين ومؤيد الدين في خواصهما وجماعة وافرة من الرعية واجتمعوا بملكهم وخواصه وما صادفا عنده شيئا مما هجس في النفوس من كثرة ولا قوّة ، وتقرّر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال أعماله ، ثم رحل عسكر الافرنج إلى رأس الماء ، ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقي إليهم لعجزهم واختلافهم، وقصد من كان بحوران من العسكر النوري ومن انضاف إليهم من العرب في خلق كثير ناحية الافرنج للايقاع بهم والنكاية فيهم، والتجأ عسكر الأفرنج إلى لجاة حوران للاعتصام بها، ونمى الخبر إلى نور الدين فرحل ونزل على عين الجر من البقاع عائدا إلى دمشق، وطالما قصد الفرنج والعسكر الدمشقي، وكان الافرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي قد قصدوا بصرى لمضايقتها ومحاربتها، فلم يتهيأ ذلك لهم وظهر إليهم سرخاك واليها في رجاله، وعادوا عنها خاسرين، وانكفأ عسكر الافرنج إلى أعماله، وراسلوا مجير الدين ومؤيد الدين يلتمسون باقي القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن ندفعه مارحل عنكم.

قال أبو يعلى: وفي هذه الايام ورد الخبر بوصول الأسطول المصري إلى ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة من العدّة، وذكر أن عدّة مراكبة سبعون مركبا حربية مشحنة بالرجال، ولم يخرج مثله في السنين الخالية، وقد انفق عليه فيما حكي وقرب ثلاثمائة ألف دينار.وقرب من يافا من ثغور الفرنج فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به،واستولوا على عدّة وافرة من مراكب الروم والأفرنج ، ثم قصدوا ثغر عكا ففعلوا فيه مثل ذلك، وحصل في أيديهم عدّة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية، وقتلوا من حجاجهم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس، وفعلوا في الكل مثل ذلك، ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الاسطول المذكور لإعانته على تدويخ الفرنجية، فاتفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده

إليها لمضايقتها، وحدث نفسه بملكها لعلمه بضعفها وميل الأجناد والرعية إليه، واشارتهم لولايته وعدله.

قال: وذكر أن نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كمال ثلاثين ألفا مقاتلة ، ثم رحل ونزل بالدلهمية من عمل البقاع، ثم نزل بأرض كوكبا غربي داريا ثم نزل بأرض داريا إلى جسر الخشب، ونودي في البلد بخروج الاجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلاّ اليسير ممن كان يخرج أوّلا، ثم تقدّم ونزل القطيعة وما والاها ودنا منها بحيث قرب من البلد، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غيرزحف ولا شدّ في محاربة تحرجا من قتل المسلمين، وقال: لاحاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضا وأنا أوفرهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين.

قال: وورد الخبر إلى نور الدين بتسلم نائبه الامير حسان المنبجي مدينة تل باشر بالأمان في الخامس والعشرين من ربيع الأوّل، وورد مع المبشر جماعة من أعيان تل باشر لتقرير الأحوال وترددت المراسلات في عقد الصلح مع أهل دمشق على شروط واقتراحات ، وتردد فيها الفقيه برهان الدين علي البلخي والأمير أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب، وتقارب الأمر في ذلك إلى أن استقرّ الحال على قبول الشروط المقترحة، ووقعت الايمان من الجهتين على ذلك والرضى به في عاشر ربيع الآخرة، ثم رحل نور الدين من الغد طالباً ناحية بصرى للنزول عليها، والتمس من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات الحرب لأن واليها سرخاك كان قد شاع عصيانه وخلافه ومال إلى الأفرنج فاعتضد بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه وأنهض إليه فريقا وافراً من عسكره.

قلت: ولابن منير في نو ر الدين يذكر وقعة الجولان وغيرها قصيدة أوّلها :

مـــابـــرقـــت بيضـــك في غمامهـــا
إلا وغيـــث الـــديـــن لابتســـامهـــا

يقول فيها:

محمود المحمود جداً وجداً
أرخص جلد الارض حكم عامها
ملك أزل الروم عن صلبانها
دفاعه وكب من أصنامها
جال على الجولان أمس جولة
صفرت الأدحيّ من نعامها
والجون قد جرعها أجونه
وفل مشحوذا من اعتزامها
وشدّ في القدّ له مليكها
قود عتود القوط في شبامها
وفي الرها صابت له سحابة
صاروا جفاء خف في التطامها
وهب في هاب له عواصف
تجهمتها الهف من جهامها
وكفر لاثالاث في جبينها
لثم ظبى أتت على لثامها
وقايع يرفض تحت وقعها
نظم الثريا في فضا مصامها
فساعة البيض إذا عدّدها
سوط عذاب صب في أيامها
واعجبا العصب الشرك التي
لم يعصب الرشد على أحلامها
حكمة استواؤها في غيها
في نقض ما أحصد من ابرامها
مظفر الرايات والرأي إذا الـ
ـحرب مشت تعثر في خطامها
عدّت به حدّ العلاء همم
هن النجوم أو نواصي هامها

جلست له الدنيا على زبرجها[٦٢]
عفوا فلم يلو على حطامها
رأته وهو الليث يدمي ظفره
انفذ في المشكل من حكامها
فتوّجته العز في مرتبة
تمنطق الجوزاء في نظامها
غضبان للاسلام لا يغيظه اس
تسلامها للقسر من إسلامها
خط على مثل أب طاعت له ال
آفاق واستشرف لاغتشامها
تصرف الدنيا على إيثاره
عراقها مستردفا بشامها
لو لم يكن دون منى فات المنى
واقعد الفائز من قوّامها
وامتك ماء مكة رواضع
يقصر باع الدهر عن فطامها
وصار كالجمر الجمار وخلا
من أهله الأشرف من مقامها
ودونها الازلت ترقى في حمى
من مؤلم الارداء أو لمامها
تلبس بيت اللّه وشي يمن
يقرأ آياتك من أعلامها
فإنها الدين رحى قطبتها
وبازل مكنت من زمامها
امت بنا الآمال منك كعبة
سلم الليالي آية استسلامها
وارشفتنا بك ثغر نعمة
لا نسأل اللّه سوى دوامها

وقال أيضا يمدحه:

بجـــــدك اصحـــــب الجد الحزون
واطلـــــع فجـــــره الفتـــــح المبين

وفي كنفيـــــك ســـــولت الليـــــالي
وفـــــارق طبعـــــه الـــــزمـــــن الخؤون

ومنـــــك تعلـــــم القطـــــع المواضـــــي
وقـــــد زبنـــــت بها الحرب الـــــزبـــــون

وأنـــــت السيـــــف لم تمسـه نـــــار
ولا شحـــــذت مضـــــاربـــــه القيـــــون

تـــــرقـــــرق فـــــوق صفحتـــــه الامـــــاني
ويقطـــــر مـــــن غـــــراريـــــه المنـــــون

وقبلـــــك مـــــا سمعـــــت بـــــذي فقـــــار
يثير الفقـــــر كـــــان ولا يكـــــون

ولا غيـــــث سماوتـــــه سريـــــر
ولا ليـــــث وســـــادتـــــه عـــــريـــــن

ولا قمـــــر لـــــه الهيجـــــاء هـــــال
ولا تـــــاج لـــــه الـــــدنيـــــا جبين

جبلـــــت نـــــدى وعفـــــواً وانتقـــــامـــــا
ومـــــاء كـــــل مجبـــــول وطين

وملكـــــك عمـــــر الأقطـــــار قطـــــرا
فـــــأمـــــرعـــــت الأواعـــــث والحزون

تـــــلالأ تحتـــــه غـــــرر الليـــــالي
إذ الايـــــام عنـــــد ســـــواك جـــــون

وأنـــــت أقمـــــت للجـــــدوى منـــــارا
يبين لشـــــائميـــــه ولا يبين

وعنـــــدك مشرب النعمـــــى زلال
إذا عبقـــــت مشـــــاربها الأجـــــون

تحكـــــم في عطـــــائك كـــــل عـــــاط
وقـــــد شيـــــدت مـــــن المنـــــع الحصـــــون

لقـــد أشعـــرت ديـــن اللّـــه عـــزا
تتيـــه لـــه المشـــاعـــر والحجـــون
وقـــام بنصره والنـــاس فـــوضـــى
قـــويّ منـــكُ في الجلى أمين
رجعـــت ملـــوكهـــم وهـــم خيـــوف
أسير في صفـــادك أو كنـــون
فبرنســـت البرنـــس لقـــاع خســـف
وجـــرّع مـــرّ جـــوســـك جـــوسلين
إذا مـــا الفعـــل عـــلّ تـــلاه حـــذف
يتـــاح لمنتهـــاه أو سكـــون
غنـــوا حتـــى غـــزوتهم فغنـــى الصـــ
ـــدى في أرضهـــم حـــف القطين
وكـــم عبر الصليـــب بهم صليبـــا
فـــردّتـــه قنـــاك وفيـــه لين
ومـــا خطـــرت بـــدار الشرك إلاّ
هـــوى النـــاقـــوس وارتفـــع الأذيـــن
مـــلأت عظـــام ســـاحهـــم عظـــامـــا
فكـــل مـــلا لقـــوك بـــه جـــريـــن
بـــإنـــب والقنـــا تجري نجيعـــا
كـــان عيـــون أكعبهـــا عيـــون
وبين حـــرار صرخـــد ذبـــن حـــرّا
لـــه في كـــل حبحبـــة كمين
وفين مـــن العـــريمـــة في عـــرام
لـــه في جـــونها الأقصـــى وجـــون
وكـــم حـــرم لحارم غـــادرتـــه
ودارتـــه لمنسفهـــا دريـــن
وفي شعـــراء قـــورس صغـــن شعـــرا
تـــدار على غـــراريـــه اللجـــون

وقـــــــائع صرن في صنعـــــــــاء طيرا
يـــــوقعهـــــــا على عـــــدن عـــــدون
نماك أب إذا عـــــــدّ انتســـــابـــــا
تــــراقـــى مصعــــدا والنـــاس دون
شما لا كــــــان أمــــــلاك البرايـــــا
وقـــــد قيســـــوا بـــــه وهـــــو اليمين
قضـــــى وقضـــاؤه في الأرض حتـــم
فطـــاعـــــة أهلهـــــا لبنيـــــه ديـــــن
لهذا اليـــــوم تنتخـــــب القــــوافي
ويـــذخـــر نفســـه الـــدر المصـــون
ونحـــن أحـــق منـــك بـــأن نهنـــى
إذا قـــرّت بـــرؤيتـــك العيـــون
سلمــــت لنـــا فـــإنـــا كـــل صعـــب
نـــوازيـــــه بـــــأن تبقـــــى يهون
تـــرابطنـــا بعقـــوتـــك التهـــاني
ويغبطنـــا بـــدولتـــك القـــرون

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديـار مصر بأن أهل دمياط حدث فيهم فناء ما عهـد مثله فى حديث ولا قديم بحيـث أحصي المفقود منهم في سنة خمس وأربعين فبلـغ سبعة آلاف شخص، وفي سنـة ست وأربعين مثلهـم، فصار الجميع أربعة عشر ألفـاً، وخلـت دور كثيرة من أهلهـا، وبقيت مغلقة لاساكن فيها ولا طالب لها.

وفيها في ثاني جمادى الآخرة توفي القـاضي السديد الخطيب أبو الحسين ابن أبى الحديـد خطيب دمشق، وكان خطيبا بليغا صيتـا عفيفاً، ولم يكن

له من يقوم مقامه في منصبه سوى أبي الحسن الفضل ولد ولده، وهو حدث السن، فنصب مكانه ، وخطب وصلى بالناس واستمرّ الأمر له ومضى فيه.

قال: ووردت الحكايات بحدوث زلزلة وافت الليلة الثالثة عشرة من جمادى الآخرة ، اهتزت الأرض لها ثلاث رجفات في أعمال بصرى وحوران وما ولاها من سائر الجهات، وهدمت عدّة وافرة من حيطان المنازل ببصرى وغيرها، ثم سكنت بقدرة من حركها سبحانه وتعالى.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه، ووصل إليها ودخل نور الدين صاحبها، فأكرمه وبالغ في الجميل في حقه وقرّر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان.

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

وفت لك الدنيا بميعادها
باذلة افلاذ أكبادها

وأوفدت غرّ سلاطينها
عليك في همة انجادها

تبغي سناء أقصدت قصده
طائعة طاعة أجنادها

خاضعة تعتدّ أعمارها
يوم التلاقي يوم ميلادها

شامت دمشق بك برق العلى
فأرسلت أصدق روّادها

رأتك نور الدين نار الهدى
قد أشرق الأفق بإيقادها

فيممت منك حيا مزنة
بيض الايادي وردروّادها

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

فاسأل مجير الدين عن خبرة
أوردها محمود إيرادها

تبوّأت من عزها قبة
سمر القنا أطناب أوتادها

تنافس الناس على دولة
فت بها أعين حسادها

يغدو المعادي كالموالي لها
فوالها إن شئت أوعادها

ياملكا يزهى بأسمائه
منابر تسمو بأعوادها

وتأخذ الاسماع أوصافه
عن جمع الدنيا وأعيادها

كم للمعالي فيك من رغبة
تفنى الأماني دون تعدادها

لك المساعي الغر ياجامعا
من طرفيها بين أضدادها

يغني الورى أفرس فرسانها
وفي التقى أزهد زهادها

فأنت نسكا غيث أبدالها
وأنت فتكا ليث آسادها

في أمّة أنت حمى دينها
حينا وحينا شمس عبادها

يطوى بك العمر إلى غاية
حسبك تقوى اللّه من زادها

هذا وكم من سنة بدعة
أعدمتها من بعد إيجادها

مآثر لو عدمت راويا
تكفل النظم بإسنادها

قـال أبـو يعلى: وفي أواخـر شعبان أغـار بعـض التركمان على ظـاهـر بـانياس، فخـرج إليهم واليهـا من الأفـرنج في أصحـابه، وظهـر التركمان عليهم فقتلوا وأسروا.

وفي رمضان قصـد بعض الفـرنج نـاحية مـن البقاع وأغـاروا، فأنهض إليهم والي بعلبـك رجالـه فلحقوهـم وقد أرسـل اللّه عليهـم من الثلـوج المتداركة ما ثبطهم، فاستخلصوا منهم الغنيمة.

قلـت: والي بعلبك هـذا هو نجـم الديـن أيـوب والد صـلاح الديـن يوسف.

قال ابـن أبى طـي: في سنة سـت وأربعين أغار التركمان على بـانياس فخرج أهل بانيـاس من الفرنج استنقذوا ما أخـذوه، فعاد التركمان عليهم فكسروهم، واتصـل ذلك بصـاحب دمشق فـأغضبه فعـل التركمان لمكان الهدنة المنعقدة بينه وبين الفرنج، فـأنفذ عسكراً إلى التركمان استعاد منهم ماأخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنـج فجيشوا وخرجوا في جيش عظيم وشنوا الغـارة على البقاع، والناس غافلـون، فامتلأت أيديهم مـن الغنائم والأسارى، واتصل خبر غـارة الفرنج بنجم الدين أيـوب، وهو في بعلبك وعنـده جماعة مـن عسكر دمشـق وأصحابـه، فقدّم عليهـم ولده شمـس الدولـة ، فخرج وأوقع بـالفرنج، واتفـق أنه كان قـد أصاب الفرنـج ثلج عظيم، فهلـك أكثرهـم، وجاء شمس الـدولة وهم متـورّطون فقتـل فيهم مقتلة عظيمة، وخلص من كان عند الفرنج من الأسارى.

قال: وفي هذه السنـة فارق صلاح الديـن والده وصار إلى خدمـة عمه أسد الـدين بحلـب، فقدّمـه بين يدي نور الـدين فقبلـه وأقطعه إقطـاعا حسنا.

قـال أبو يعلى: وفي ثـاني شوال ، وهـو الثـاني من شبـاط وافت قبيـل

الظهر زلزلة اهتزت لها الأرض ثلاث هزات هائلة، وتحركت الدور والجدران ثم سكنت.

قلت: وفي هذه السنة في غرّة جمادى الأولى كتب أحمد بن منير من حماه إلى نور الدين قصيدة يهينه بوصول الخلع إليه من بغداد من عند الخليفة ، على يد الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، ويصف الفرس الأصفر الاسود القوائم والمعارف والسيف العربي أوّلها:

لعلائك التأييد والتأميل
وللملك التأبيد والتكميل

أبداً تهم وتقتفي فتنال ما
عز الورى إدراكه وتنيل

إما كتاب يستقل به الكتا
ئب أو رسول للنجاح رسيل

لك من أبي سعد زعيم سعادة
فمن تفاءل فيك ليس يفيل (٦٣)

نعم الحسام جلوته وبلوته
يرضيك حين يصل ثم يصول

سهم تعوّد في الكنانة عودة
ويقصر المطلوب وهو طويل

سدّدته فمضى وقرطس صادرا
كالنجم لا وهل ولا تهليل

فثنا القلوب إلى ولائك حوّل
منه بما يجنى رضاك كفيل

وأقام ينشر في العراق ودجلة
آياً تأوّلها لمصر النيل

وكساك من رأي الخليفة جبة
لا النقص يوهيها ولا التقليل

كنت الشريف أفضت في تشريفه
ماء عليه من سناك دليل

أليوسف لما طلعت مقرطقا
طمثت حصان واستخف أبيل
أم عن سليمان يفرج ضاحكا
سجف الرواق وضعضع الكيول (٦٤)
ومملك في السرج أم ملك سطت
لبهائه عقل وتاه عقول
وبرزت في لبس الخلافة كالهلا
ل جلاه في حلل الدجى التهليل
خلع خلعن على القلوب مسرة
سدكاتها (٦٥) التعظيم والتبجيل
نثرت نضارا جامداً أعلامها
وتكاد تجري رقة وتسيل
لقضى لها ان لا عديل لفخرها
ربّ براك فما تلاك عديل
أنت المهند منذ سلته العلى
لم يخل من مهج عليه تسيل
مذهز قائمه الامام تألقت
غرر شدخن لملكه وحجول
واليت دولته فتهت بدولة
متكلل بصعيدها الاكليل
ونصرته فحلاك أبيض دونه
صرف الزمان إذا استكل كليل
قلدته وكلاكما متلهذم
عضب فزان المغمد المسلول
وحبا ركابك حين قرّ بزحفه الـ
قرآن واستخذى له الانجيل
بأقبّ أصفر مشرف الهادي له التـ
حجيل لون واللما تحجيل

قسيم الدجى بين الغدائر والشوى
واعتام رونقه الاصيل أصيل

وتقاسم الراؤوه تحتك أنه
حيزوم مصرف عطفه جبريل

تختال في حبك الحليّ مخيلا
إن الشوامخ للبدور خيول

مرخى الذوائب كالعروس يزينه
طرف باطراف الرماح كحيل

تتصاعق النعرات تحت لبانه
إن شبّ زفر واستجش صهيل

لم يحب مثلك مثله مهد ولم
يشلل على برق سواه شليل (٦٦)

وأنشده في هذه السنة أيضا بحمص قصيدة منها:

الدهر أنت ودارك الدنيا ومن
في العدّ بعده مؤمّل معدود

وأزّمة الاقدار طوع يديك والـ
ـأيام جندك والانام عبيد

فت الورى وعقدت ناصية المدى
بمذمر الشعرى فأين تريد

تال أباك فهل سليمان يرى
في الدست مهد ملكه داود

جلى وسدت مصليا الا يرفع الـ
ـمعدوم ما لم يشفع الموجود

لم يخترم جدّنماك ولا أب
إن النباهة في الخليف خلود

شمخت منارك في اليفاع وأمّها
من لم يسد فأرته كيف يسود

وهبيـــت لــــلاســـلام وهـــو مصـــوّح
فـــاهتــــزهضــــاب ورق نجـــود
وفتــــأت جمرة صــــا الميــــة بصيلــــم
نصــــع الاجنـــة يــــومهــــا المشهــــود
خطمتهــــم فــــوق الخطيــــم لــــوافــــح
نفــــس الاريــــن لــــو أرهــــنّ بــــرود(٦٧)
ورمــــوا على الجولان منــــك بجــــولــــة
تــــوئيــــدهــــا نسر الضــــلال وئيــــد
ولحا عظــــامهــــم بعــــرقــــه عــــارق
مــــازلــــت تمخــــض جــــوّه فيجــــود
وشللــــت بــــالــــروج السروج وفــــوقهــــا
زرع لمحصــــده الــــرمــــاح حصيــــد
وعلى عــــزاز عنــــوا وثــــل عــــروشهــــم
ملــــك مقيــــد مــــن عصــــاه مقيــــد
وبتــــل بــــاشر بــــاشروك فعــــافســــوا
أهــــب الاســــاود حشــــوهــــنّ أســــود
أودوا كما أودى بعــــــــادغيهــــــا
زعقــــوا كما استغــــوى الفصيــــل ثمــــود
إن آلموا عقــــرافــــانــــك صــــالــــح
أو آلموا غــــدرا فــــانــــك هــــود
وزعتهــــم فبكــــل مهبــــط تلعــــة
خــــدّ بــــه مــــن وازع أخــــدود
وعصبتهــــم بعصــــائب مــــل ء الملا
شتــــى وإن خــــلّ البســــالــــة عــــود
أثــــارهــــا محمــــودة وآثــــارهــــا
مشهــــودة وشعــــارهــــا محمــــود
لبســــت مــــن اسمــــك في الكــــريهة ملبســــا
يبلي جــــديــــد الــــدهــــر وهــــو جــــديــــد

قصيرة الآجـــال طـــوّل بـــاعهـــا
بـــوع يســـامـــى هـــامهـــا وقـــدود
مطـــرورة الأســـلاب مـــذ هـــزعتهـــا
تـــاه الهدى وتبختر التـــوحيـــد
أشرعتهـــا فعلى شريعـــة أحمد
ممـــا جنتـــه بـــوارق وعقـــود
ولكـــم نثـــرت نظيمهـــا في مـــوقـــف
تغـــريـــد صـــالى حـــره التغـــريـــد
يجلـــو سنـــاك ظـــلامـــه ويحل مـــا
عقـــدت قنـــاه لـــواؤك المعقـــود
في هبـــوة زحـــم السماء رواقهـــا
والارض تـــرجـــف تحتـــه وتميـــد
ضربـــت مخيمهـــا فكـــان كما تها
أوتـــاده القصـــوى وأنـــت عمـــود
في كـــل يـــوم مـــن فتـــوحـــك صـــادح
هـــزج الغنـــاء وطـــائر غـــرّيـــد
تهدي لعـــانـــة كـــاســـه فـــرغـــانـــة
وتسيـــغ زبـــدة مـــا شـــداه زبيـــد
فغـــرار سيفـــك لـــلاحـــابـــش محبـــس
ومثـــار نقعـــك للصعيـــد صعيـــد
لاتعـــدمـــن هـــذا المقلـــد أمّـــه
ملقـــى إليـــه لـــرعيهـــا الاقليـــد
الـــوردقـــر والمســـارح رحبـــة
والـــرفـــد مـــدّ والظـــلال مـــديـــد
والعيـــش أبلـــج مشرق القسمات والـــ
ـــأشجار غـــروا الاصـــائل غيـــد
والملـــك ممـــدود الـــرواق منـــوّر الـــ
آفـــاق وضـــاء المنـــى محســـود

في دولـــة مـــذهـــب نشر ربيعهـــا
نشر الـــرفـــات وأثمـــر الجلمـــود

محمـــودة الآثـــار محمـــوديـــة
كـــل المواســـم عنـــدهـــا تعييـــد

وقال يهنيه بليلة الميلاد ويصف النازلين في الجبل من قلعة حلب بقصيدة منها:

هنيـــت روزى ذراك صـــومـــك والـــ
ـــميلاد جـــاء والسعـــد في نســـق

فـــذاك انحلـــت فيـــه كـــل يـــد
وذاك أخملـــت فيـــه كـــل تقـــى

وجـــه كصـــدر الحســـام تصبـــولـــه الـــ
ـــعين وينقـــد القلـــب مـــن فـــرق

ومقلـــة شـــوقهـــا ليقظتهـــا
شـــوق لحســـادهـــا إلى الارق

ومـــرتقـــى تعجـــب السماء لـــه
إذا استطـــالـــت إليـــه كيـــف رقـــى

تـــوّجـــت شهبـــاءهـــا بمشرقـــه
مشرفـــة شهبهـــا على الافـــق

جـــوّ تهادى منـــه كـــواكبـــه
طـــرفـــه طـــرف رجـــوم مسترق

فـــوارس تـــذهـــل الفـــوارس إن
تهافتـــت مـــن ارشـــاقهـــا الـــرشـــق

مـــن راكـــض في الهواء أهـــوى
ومـــن الفتـــح مجرّ مـــن تحتـــه لبـــق

شـــا ومـــن الخصر لـــو تحاولـــه الـــ
ـــخضر لـــزلـــت عـــن مـــوطـــىء زلـــق

يقـــول مـــن دينـــه الفـــروســـة مـــا
لاقـــك الاضرب مـــن الالـــق

بـــــــدائع تغبـــــــط السماء بها الأر
ض وتــــذكــــي الاشفـــاق في الشفـــق
في دولـــــة جمعـــــت ايـــــالتهـــا
مــــن بــــــدداالحســــن كـــــل مفترق
تـــــذرّ أطــــــواقهـــــا على ملــــك
مكتفـــــل رزق كــــــل مـــــرتــــــزق
محمــــــــــود اسما وميسما ونــــــــدى
واعتصـــب الـــــدم كــــل مـــرتفــــق
طبـــق طـــوفـــانــــه فلســـت تـــرى
إلاّ مغيثـــــا مشــــــف على غــــــرق
يـــابحــــر لا خلـــق يـــدعـــي شبهـــا
فـــات المدى مـــا حـــويـــت مـــن خلـــق
ملكـــــــك هـــــــذا الــــــذي تملأه
صبـــاه يجري والـــــدهـــــر في طلــــق

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرم بنزول نور الدين على حصن انطرسوس في عسكره وافتتاحه له وقتل من كان فيه من الأفرنج، وطلب الباقون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه، وملك عدّة من الحصون بالسبي والسيف والإخراب والإحراق والأمان.

قال: وورد أيضا ظفر رجال عسقلان بالأفرنج المجاورين لهم بغزة، بحيث هلك منهم العدد الكثير، وانهزم الباقون. قلت: وقرأت في ديوان ابن منير يمدح نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس ويحمور، وعوده عنهما فذكر قصيدة منها:

أبدا تباشر وجه غزوك ضاحكا
وتؤوب منه مؤيدا منصورا

تدني لك الأمل البعيد سواهم
محققت اهلتها وكن بدورا

مثل السهام لو ابتغى ذو أربع
في الجوّ مطلبها لكن طيورا

نبذت علائقها بحمص واعلقت
سحراً بمعرق عرقه الأظفورا

وغدون صافيتا لاح شوارهما
قد اتلعت عنقا اليك مشيرا

القلب أنت فإن تعامى عن هدى
عضو أهاب به فعاد بصيرا

عرفوا مكانك والظهيرة بينهم
يغري بياض أديمها الديجورا

أين الذبال من الغزالة أشرقت
وجها وطبقت البسيطة نورا

غضبـــان اقســم لا يشيــم حســـامـــه
والارض تحمــــل في الكفـــــور كفـــورا
غســل العـــواصـــم أمـــس مـــن أدرانهم
واليــــوم ردّ بــــه الســـواحــــل بـــورا
لم يبـــــــــق بين الحولتين وآمــــــــد
وتــــراً المضطغـــــن ولا مـــــوتــــورا
اخلى ديـــــار الشرك مـــــن أوثــــانها
حتـــى غـــدا ثـــالــوثهــــن نكيرا
رفـــع القصـــور على نضـــائد هـــامهـــم
مـــن بعـــدمـــا جعــل القصـــور قبـــورا
بشـــواحـــب الاليـــاط تقطـــو في الظـــلا
م قطـــــاوتهوى في الصبـــــاح نشـــــورا
غـــادرت انطـــرســـوس كـــالطـــرس انمحـــى
رسما وحمر ردعهـــــــــا يحمـــــــــورا
وهـــي الـــزنـــاد لفتنـــة كـــانـــت على الــــ
ــــــــاسلام أحكــــــــم كسره اكسيرا
هتمـــت طـــرابلســـا فـــاصبـــح ثغـــرهـــا الـــ
ــــبسام مـــــن عـــــز الثغـــور ثغيرا
اقليــــدهــــاكـــــانـــت وقـــد انطيتـــه
واســـــأل بـــــه ممـــــن دهتـــــه خبيرا
إن الاولى امنـــوا وقـــــاعـــك بعـــدهـــا
غـــــرّوا وقـــــد ركبـــوا الاغـــرّ غـــرورا
الـــق العصـــا فيمـــن أطـــاع ومـــن عصـــى
منهــــم ودمـــــر أرضهـــــم تـــــدميرا
لا يلههـــــم إن قـــــد مننـــــت وشنهـــــا
شعــــواء تصلي الكـــــافـــــريـــــن سعيرا
بـــــاكـــــر بـــــركـــــز قنـــــا تنســـــف اسهـــا
والخيـــل صـــــور كـــي تـــزيـــرك صـــورا

وتــريـــك لامعـــة التريـــك بســاحـــة الـــ
ـــــــــأقصى مطهـــــــــرة لها تطهيرا
أولســـت مـــن قـــوم إذا هـــزوا القنـــا
فتلـــوا معـــاصمهـــم لها تســـويـــرا
وإذا هـــم خطبـــوا اليراع عـــزيـــزة
ســاقـــوا الشفـــار على المهـــار مهـــورا
القـــى قسيا هـــم إليـــك أزمـــة الـــ
ـــملك المطـــل على السهـــا تـــأثيرا
ضحكـــت لـــك الأيـــام واكتـــأب العـــدا
قلقـــا فجئـــت مبشرا ونـــذيـــرا
لاملـــك الاملـــك محمـــود الـــذي
تخذ الكتـــاب مظـــاهـــرا أووزيـــرا
تمشي وراء حـــدوده أحكـــامـــه
تـــأتمهـــن فيحكـــم التقـــديـــرا
يقظـــان ينشر عـــدلـــه في دولـــة
جـــاءت لمطـــوى السماح نشـــورا
خلـــف الخلائف قـــائما عنهـــم بما
عيـــوا بـــه ألـــوى الـــدّغيـــورا
البر والمعصـــوم والمهـــدي والـــ
ـــمأمون والسفـــاح والمنصـــورا
بشروا بـــه فعهـــودهـــم وعهـــادهـــم
يمتحـــن تحت لـــوائه منشـــورا

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة أوّلها:

المجـــد مـــا ادّعـــت ثـــراك هضـــابـــه
وتثقفتـــك شعـــوبـــه وشعـــابـــه
ملـــك تكنـــف ديـــن أحمد كنـــه
فـــأضـــاء نيره وصـــاب شهـــابـــه

فالعدل حيث تصرفت احكامه
والأمن حيث تصرمت أسرابه
متهلل والموت في نبراته
يرجى ويرهب خوفه وعقابه
عقد اللواء وسار يقدمه وما
حلت عقود تميمها أترابه
أسد فرائسه الفوارس والظبا
أظفاره والسمهرية غابه
طبع الحديد فكان منه جنانه
وسنانه وإهابه وثيابه
ويهش إن كبت الوجوه كأنها
أعداؤه تحت الوغى احبابه
نشرت بمحمود شريعة أحمد
وأرى الصحابة ما احتذاه صحابه
ما غاب اصلع هاشم فيها ولا الـ
ـفاروق باء بخطبه خطابه
أبناء قيلة قائمون بنصره
إن اجلبت من قاسط أحزابه
صبحوا بمحلقة البرنس بحالق
حرش الضباب من القلوب ضبابه
مازال يغلب من بغاه ضلاله
حتى اتيح من الهدى غلابه
ملقى بوحش الاصرمين تزيلت
آراؤه وتزايلت آلابه
دون الأرنط سخت به نجداته
ونجاده وقرابه وقرابه
سلبته درّة تاجه يد ضيغم
لم تنجه من بأسه اسلابه

واتتـــه تجلـــب جـــوسلين جنـــائب
هبـــت فقـــل إلى القتـــال هبـــابـــه
اسرتـــــه لا امنعـــــت سراه وغـــره
بـــالقـــاع إن رام الـــورود سرابـــه
يمشي فتسمعـــه قعـــاقـــع قيـــده
هـــزجـــاً تقـــي ءدمـــاً لـــه أنـــدابـــه
لا تـــل بـــاشره ولا كيســـونـــه
صـــدّت منـــى عنـــه ولا عنتـــابـــه
ضمنـــت شقـــاوتـــه سعـــادة صـــافـــح
غطـــى على أعنـــاتـــه اعتـــابـــه
مـــازال يغـــدر ثـــم يعـــذر قـــادرا
حتـــى أتـــاه بجـــامـــح أصحـــابـــه
قصر الأمـــاني إن يمـــلأ عصرك الـــ
ـــاسلام مضروبـــا عليـــه حجـــابـــه
مجر يجرّ إلى الغنـــــائم قبـــــه
وحمى يـــزار على الفتـــوح قبـــابـــه

وأنشده بحلب في شوال من هذه السنة قصيدة منها:

لقـــد أوطـــأت ديـــن اللّـــه عـــزا
أديـــم الشعـــريين لـــه رغـــام
دعـــاك وقـــد تنـــاوشـــت الـــرزايـــا
لـــه اهـــب يـــوزعهـــا العـــذام
فقمـــت بنصره والنـــاس فـــوضـــى
قيـــام ذم مـــا اقترفـــت فئـــام
جـــذبـــت بضبعـــه مـــن قعـــريـــم
لـــه مـــن فـــوق مقسمـــه التطـــام
وملـــت على معـــاقلهـــم فخّـــرت
ولاء مثـــل مـــا انتقـــض النظـــام

بصرخـــــدوالخطيـــــم وفي عـــــزاز
وقـــائع هـــز مشهـــدهـــا الانـــام

ولـــــو لم يعترف ويشـــــم لأمســـى
وأصبـــــح لاعـــــراق ولا شـــآم

صبيـــت على الصليـــب صليـــب بـــأس
قـــــواه تحت كلكلـــــه حطـــــام

ويـــوم بـــالعـــريمـــة كـــان حتفـــا
على الاشراك أمقـــــره العـــــرام

لقـــوك كـــأنّ مـــا سلـــوه شيـــح
ومـــا اعتقلـــوه مـــن خـــور ثمام

وهـــاب وقـــورس وبكفـــر لاثـــا
ذممـــت وأنـــت للجليّ ذمـــام

صـــدمتهـــم بـــأرعـــن مـــرجحـــنّ
كـــان مطـــــــارا أنسره غمام

وأيـــة ليلـــة لم تلـــف فيهـــا
لهم طيفـــا يـــروع بـــه منـــام

بنـــور الـــديـــن أنشر كـــل عـــدل
تعفـــت في الثـــرى منـــه الـــرمـــام

وعـــاد الحق بعـــد كـــلال حـــدّ
حمى مـــن أن تـــراع لـــه ســـوام

تـــألـــق عـــدلـــه وذكـــت سطـــاه
فـــلا حيـــف يخاف ولا اهتضـــام

بقـــاؤك خير مـــا يـــرجـــوه راج
وأنفـــع مـــا يبـــلّ بـــه أوام

فصل

وفي هذه السنة ولد بحمص لنور الـدين ابن سماه أحمد وهناه ابن منير في بعض قصـائده، ثم توفي بـدمشق وقبره خلـف قبر معاوية رضـي اللّه

عنه إذا دخل الحظيرة في مقابر الباب الصغير، وقصيدة ابن منير قد تقدّم بعضها في أوّل الكتاب ومنها في ذكر المولود:

تــــوالـــــت الأعيــــاد لازلـــــت لها
تبلي ديـــــابيــــج البقـــــاء وتجد

الفطـــــر والميـــــلاد والمولـــــود لـــــو
قـــابلــــه بـــــدر التمام لسجـــــد

ثـــلاثـــــة تعـــرب عــــن ثــلاثــــة
لمثلهـــــا يـــــذكــــر حمدا مــــن حمد

فتــــح مبين وطـــــلاب مـــــدرك
ودولــــة مــــا تنتهـــــي إلى أمــــد

وله من أخرى يقول:

وجئــــت بــــأحمد فمــــلأت حمدا
مـــوارد كـــان معـــذبها عـــذابـــا

تهلـــل وجـــه ملكــــك يـــوم أهــدت
قـــوابلــــه لـــك الملـــك اللبـــابـــا

شبيهـــك لا يغـــادر منـــك شيئـــا
سنـــا وحيـــا وبـــذلا واستـــلابـــا

قسيـــم الحمــــد الا انّ حـــرفـــا
مـــن اسمـــك زاد للمعنـــى منـــابـــا

ألا للّـــــه يـــــوم فـــــرّ عنــــه
وركـــب نـــص بـــالبشرى الـــركـــابـــا

قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجه مجير الدين في العسكر ومعه مؤيد الدين الوزير إلى ناحية حصن بصرى ونزل عليه محاصرا لسرخاك واليه لمخالفته وجوره، وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صرخد لمشاهدته، فاستأذن مجاهد الدين واليه في ذلك فقال له: هذا المكان بحكمك وأنا

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

فيه وال من قبلك، وأنفذ إلى ولده سيف الدين محمد النائب فيه بإعداد ما يحتاج إليه ويلقى مجير الدين بما يجب له، فخرج في أصحابه ومعه المفاتيح وأخلى الحصن من الرجال ودخل إليه في خواصه وسرّ بذلك وتعجب من فعل مجاهد الدين وشكره على ذلك، وعاد إلى مخيمه على بصرى وحاربها عدّة أيام إلى أن استقرّ الصلح والدخول فيما أراد، وعاد إلى دمشق.

وفيها في شوّال توفي الأمير سعد الدولة أبو عبد اللّه محمد بن المحسن ابن الملحي، ودفن في مقابر الكهف، وكان فيه أدب وافر وكتابة حسنة ونظم جيد، وتقدّم والده في حلب في التدبير والسياسة وعرض الاجناد.

قال ابن الأثير: وفيها توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان، وعهد إلى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له ببلاد الجبل، وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاص بك بن بلنكري، فقام بأمر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة، وكان غرض خاص بك أن يقبض عليه أيضا فيخلو وجهه من منازع من السلجوقية، وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه، فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده وسار إليه وهو بهمذان واجتمع به وخدمه خاص بك خدمة عظيمة، فلما كان الغد دخل عليه خاص بك فقتله محمد وألقى رأسه إلى أصحابه فتفرقوا واستقرّ محمد وثبتت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها، وكان قتل خاص بك سنة ثمان وأربعين، وبقي مطروحا حتى أكلته الكلاب، وكان ابتداء أمره أنه كان من بعض أولاد التركمان، فخدم السلطان، فمال إليه وقدّمه حتى فاق سائر الامراء واستولى على أكثر البلاد، وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من أتباعه لما كان يقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم.

وذكر الوزير يحيى بن هبيرة في كتاب الافصاح أنه لما تطاول على الخليفة المقتفي أصحاب مسعود وأساؤوا الأدب ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة اتفق الرأي على الدعاء على مسعود بن محمد شهراً، كما دعا رسول اللّه صلى اللّه وسلم على رعل وذكوان شهراً فابتدأ هو والخليفة سرا كل واحد في موضعه يدعو سحرا من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة، واستمرّ الأمر على ذلك كل ليلة، فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة كان موت مسعود على سريره لم يزد عن الشهر يوماً ولاينقص يوما، ووصل القصاد بذلك من همذان إلى بغداد في ستة أيام، فأزال اللّه يده ويد أتباعه عن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم فتبارك اللّه رب العلمين، مجيب دعوة الداعين.

قال: وكان الشيخ محمد بن يحيى يقول: لاأدل على وجود موجود أعظم من أن يدعى فيجيب.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ففيها أخذت الفرنج خذلهم اللّه عسقلان، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه اللّه سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى.

قال الرئيس أبو يعلى التميمي: وتواصلت الأخبار من ناحية نور الدين بقوّة عزمه على جمع العساكر والتركمان من سائر الأعمال والبلدان للغزو في احزاب الشرك والطغيان، ولنصرة أهل عسقلان على الأفرنج النازلين عليها وقد ضايقوها بالزحف إليها بالبرج المخذول، وهم في الجمع الكثير، واقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضد على الجهاد في ثالث عشر محرّم ، واجتمع معه في ناحية الشمال وقد ملك نور الدين الحصن المعروف بافليس بالسيف، وهو في غاية المنعة والحصانة وقتل من كان فيه من الأفرنج والأرمن ، وحصل العسكر من المال والسبي الشيء الكثير، ونهضوا طالبين ثغر بانياس، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حماته وتسهلت أسباب ملكته، وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور لدين فقضى اللّه تعالى بالخلف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل فأجفلوا عنها من غير طارق من الأفرنج طرقهم، ولاعسكر رهقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج وعزموا على معاودة النزول على بانياس وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب وتفرّقوا وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالما في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأوّل، وعاد نور الدين إلى حمص ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عسقلان، فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال، وظفروا بعدّة وافرة من مراكب الفرنج في

البحر، وهـم على حالهم في محاصرتها ومضايقتهـا والزحف بـالبرج إليهم، واستمرّ ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم عليهـا من بعض جوانب سورهـا، فهدموه وهجموا البلـد وقتل من الفـريقين الخلق الكثير، وألجأت الضرورة والغلبة إلى طلب الأمان فأجيبوا إليه وخرج من أمكنه الخروج في البرّ والبحر إلى نـاحية مصر وغيرهـا، وقيل إن في هـذا الثغر المفتتـح من العدد الحربيـة والاموال والميرة والغلال مـا لايحصر فيذكر، ولما شـاع هذا الخبر في الأقطـار سـاء سماعه، وضـاقـت الصـدور وتضاعفـت الأفكـار بحدوث مثله، فسبحـان من لايردّ نافـذ قضائه، ولايدفع محتـوم أمره عند نفوذه ومضائه.

فصل

قال: وعـرض بين الرئيس ابـن الصوفي وبين أخويـه عز الدولـة وزين الدولة مشاحنات ومشاجـرات اقتضت المساعاة إلى مجير الدين في جمادى الأولى، فأنفذ مجير الديـن إلى الرئيس يستدعيه للاصـلاح بينهم في القلعة فامتنـع من ذلـك وجلس في داره، وهـمّ بالتحصـن عنه بـأحداث البلـد والغوغاء وآلت الحال إلى تمكن زين الدولـة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرّر بينهما إخراج الرئيس من البلـد وجماعة إلى حصن صرخد مع مجاهد الديـن بزان واليـه، بعد أن قـرر له بقـاء داره وبستانـه وما يخصـه ويخص أصحابـه، وتقلد أخوه زيـن الدولة مكـانه وأمر ونهى ونفـذ الاشغال على عـادتـه في العجـز والتقصير وسـوء الأفعـال، والتماس الـرشـا على أقـل الأعمال، ورأى مجير الدين عقيب ذلك التـوصل إلى بعلبك لتطييب نفس واليهـا عطاء الخادم واستصحـابـه معه إلى دمشـق لينـوب عنه في تـدبير الأمور، وعاد وهو معه واستشعر مجاهد الـدين بزان أن نية مجير الدين قد تغيرت فيه، فـاستوحـش من عـوده إلى البلد بغير يمين يحلـف له بها على أمانـه في نفسه، فـوعد بـالإجابـة ، فعاد إلى داره بـدمشـق، ثـم هجس في خاطره من مجير الـدين وأصحابه ما أوحشه منهـم فدعاه ذلك إلى الخروج

من البلد سراً طـالباً صرخد، فحين عرف خبره أنهض في طلبـه وقص أثره فـأدرك وقد قـرب مـن صرخد، فقبـض عليه وأعيـد إلى القلعـة بدمشـق وأعتقل بها اعتقـالٍا جميلاً، ثـم تجدّد من الـرئيس الـوزير حيـدرة المقدم ذكره أشياء ظهـرت عنه مع ما في نفـس الملك مجير الدين منـه ومن أخيه المسيـب من المعـرفة بـالسعي والفسـاد ما اقتضـت الحال استدعـاءه إلى القلعـة على حين غفلة مـن القضاء النـازل به لسـوء أفعالـه وقبح ظلمـه وخبثـه، ثم عـدل به الجانـداريـة إلى الحمام بالقلعـة مستهل ذي القعـدة وضربت عنقه صبراً وأخرج رأسه ونصب على حـافة الخندق، ثم طيف به والنـاس يلعنـونـه ويصفـون أنـواع ظلمـه وتفننـه في الفسـاد ومقـاسمـة اللصـوص وقطاع الطـريق على أمـوال الناس المستبـاحة بتقـريره وتـدبيره وحمايته، وكثـر السرور بمصرعه، وابتهـج به ثـم زحفت العـامة والغـوغاء ومـن كان مـن أعوانـه على الفساد مـن أهل العيـث إلى منازلـه وخزائنـه ومخازن غلاتـه وأثاثـه وذخائره فانتهبـوا منها مـا لا يحصى، وغلبـوا أعوان السلطان وجنـده عليها بالكثرة فلـم يحصل للسلطان من ذلـك إلاّ النزر اليسير، وورد أمـر الريـاسـة والنظر في البلـد إلى الـرئيـس رضي الديـن أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التميمي في اليوم المقدم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله وسكنت الدهماء وبولغ في إخراب منازل الظالم، ونقل أخشابها.

قال: وكـان عطاء الخادم قد استبد بتـدبير الأمور ومدّ يـده في الظلم، وأطلـق لسانـه بالهجـو وأفرط في الاحتجـاب، وقصر في قضاء الاشغـال، فتقدم مجير الـدين باعتقالـه وتقييده والاستيلاء على ما في داره، ومطـالبته بتسليم بعلبك وما فيهـا من مال وغلال، ثم ضربت عنقـه ونهبت العوام والغوغاء بيوت أسبابه وأصحابه.

قال: وورد الخبر مـن ناحيـة مصر بأن العـادل المعروف بـابن السـلار الذي كان رتبته قد علت ومنزلته في الـوزارة قد تمكنت ، كان لزوجته ولد

يعرف بالأمير عباس قد قدّمه واعتمد عليه في الأعمال، ولعباس هذا ولد قدّمه الوزير وأنعم عليه وأذن له في الدخول بغير أذن إليه، فدخل عليه وهو نائم في فراشه فقطع رأسه، وحصل عباس في منصب العادل، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قلت: هو أبو الحسن علي بن السلار وزير خليفة مصر، وهو الذي بنى مدرسة الشافعية بالاسكندرية للحافظ أبي طاهر السلفي رحمه اللّه ، وكان قتله في سادس المحرّم بمواطأة من الخليفة الملقب بالظافر بن الحافظ.

وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البلخي رئيس الحنفية، ودفن في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الشهداء، وكان من التفقه على مذهبه ما هو مشهور شائع، مع الورع والدين والعفاف والتصوّف، وحفظ ناموس العلم والتودد إلى الناس على طريقة مرضية وسجية محمودة.

قال: وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبي الحسن أحمد بن منير الشاعر في جمادى الآخرة، ووصل في ثاني عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشاعر أبو عبد اللّه محمد بن نصر بن صغير القيسراني من حلب باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام في الثاني والعشرين من شعبان.

قلت: هما شاعرا الشام في وقتهما، وقد شبههما العماد الكاتب في كتاب الخريدة بالفرزدق وجرير، وكذلك كان اتفق موتهما في سنة واحدة ، ومات جرير بعد الفرزدق بقليل، وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمه اللّه قصائد حسنة، وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرض سنذكره، ومما قاله ابن منير من قصيدة له:

أيــا سيفــا أعــز الــديــن منــه الـــ
ــــغرار العضــب والنــوم الغــرار
مــلأت جــوانــح الاقطــار رجفــا
كــأن الأرض خــامــرهــا دوار
عــلاك حلى على الــدنيــا فتــاج
بمفــرقهــا وفي يــدهــا ســوار
أضــاءت شمــس عــدلــك في دجــاهــا
فكــل زمــان ســاكنهــا نهار
فتحــرق مــن عصــاك وأنــت مــاء
وتغــرق مــن رجــاك وأنــت نــار
الا للّـــه وجهــك والمنــايــا
مكلحــة وللبيــض افترار
هتكــت حجــابــه والنصر غيــب
وللهبــوات طــيّ وانتشــار
بطعــن للقلــوب بــه انتظــام
وضرب للــرؤوس بــه انتشــار
تبــادره كــأن الموت غنــم
ومــا مــن عــادة البــدر البــدار
أنخــت على الصليــب مطــا صليبــا
بــه مــن صــك مبركــه هــدار
بمشرفــه المنــاكــب مقــربــات
لهن بمتــن كــل وغــى حصــار
جنين بــإنــب أنــب العنــاصي (٦٨)
وإضــن وللقنــا منهــا ثمار
وفي هــاب أبــت بها فجــاءت
كما أجلى مــن الكســم الصــوار (٦٩)
وكــم في فــج حــارم مــن حــريــم
عفتــه فــلا جــديــر ولا جــدار

وانطـــاكيـــة استنــت إليهـــا
فـــاجفـــل خيطهـــاولـــه عـــرار (٧٠)

وصبـــح في عـــزاز بهاعـــزاز
فـــأمســي وهـــو وعـــث أو خبـــار (٧١)

يشـــق بهادجـــى الغمـــرات عسفـــا
جـــواد لايشـــق لـــه غبـــار

وله من أخرى:

ومـــا يـــوم الفـــرنجـــة منـــك فـــذ
فتحصر عـــده خطـــط الحبـــاب

أجـــاش الاربعـــاء لهم خميســـا
بعيـــد الغـــور ملتطـــم العبـــاب

وأحكـــم بـــالخطيـــم لهم خطـــامـــا
أمـــر بـــريمـــه مـــرّ الضراب

مشـــو متســـانـــديـــن إلى صليـــب
يبرقـــع هبـــوة الصنـــم الصـــلاب

تلفهـــم المنـــايـــا في الثنـــايـــا
وتفجـــأهـــم شعـــوب مـــن الشعـــاب

أطـــاشـــت سهـــم كبشهـــم هنـــاة
فكنـــت ذبـــاب طـــائشـــة الـــذبـــاب

حللـــت التـــاج عنـــه وحـــل تـــاجـــا
مكـــان العقـــد مـــن عقـــد الكعـــاب

أنـــاف على العقـــاب فكـــان أشهـــى
وأبهى منـــه في ظـــل العقـــاب

فـــأشرف وهـــو عـــن شرف معـــوق
واصعـــد وهـــي غـــايـــة الانصبـــاب

تكـــاشره الشـــوامـــت وهـــو مغـــض
ثنـــاه منـــاه عـــن رجـــع الجواب

بعيـــــداً مـــــن قــــراع واقتراع
يـــؤوب لـــــه إلى يـــوم المآب

وكـــم ســوط بخيلــك اقبلــوه الصـ
ــدور فكــان ســوطــا مــن عــذاب

تــركتهــم بــأرض الشــام شــامــا
لظفـــر تتقيـــه أو لنـــاب

هتكــت حجــابهم والشمــس وسنــى
بشمـــس لا تـــوارى بــالحجـــاب

بــأبيــض مــن حبيــك الهنــد صــاف
مصــون المتــن مبتــذل الــذباب

لـــه سمـــة الشيـــوخ صفــاء شيــب
وفي خطـــواتـــه تـــرف الشبـــاب

الا يـــا نـــاظـــر الـــدنيـــا بعين
أرتـــه عـــلابها (٧٢) خـــدع السراب

تبطنهـــا فطلقهـــا ثـــلاثـــا
على عـــز التملـــق والخلاب

فـــلا يـــأوي إلى رأي شعـــاع
ولا يثنـــى إلى أمـــل خـــراب

تـــرفـــع عـــن مجاورة الأمـــاني
وحلـــق عـــن محاضرة التصـــابي

صـــلاة اللّـــه كـــل درور شمـــس
على مثـــوى أبيـــك مـــن التراب

فقـــد ألقـــى إلى الاســـلام عضبـــا
يطبـــق في النـــوائب غير نـــابي

تجيـــش لـــه رواس كـــالـــرواسي
تمدّ لها جفـــان كـــالجوابي

وله من أخرى:

مظفر العزم ممدود الرواق على
معالم الدين يرفيها ويبنيها
ردّ الكنائس كنسا للهدى فخبت
نار الضلال وواراتها أثافيها
وأورد العلم عدامن اياالته
فاستن وافتن عبا في صوافيها
وبث للشرك اشراكا فما درجت
طريدة منه الا استوهقت فيها
يا بدر مذ أشرقت في الدست غرته
غيث الرعية واخضلت مراعيها
أقام أحمد من محمود ها علما
به استقام على البيضاء ساريها
محيي شريعته من بعد ما انهدمت
واستعجمت بعد إفصاح معانيها
شابت مواهبه فيها مهابته
حتى استقرت على سمت سواريها

وله من أخرى:

عزت سيوفك فالعراق عراقها
والشام غير مدافعات شامها
إن أغمدت حل العزائم حلها
أو جردت حرم الكرى احرامها
شجنت [٧٣] عداك بها فلا اشراقها
بمفازة منها ولا إعتامها
سريت فصبحها بها يقظاتها
هدأت فمستها بها أحلامها
كالماء إلا أن في رشفاته
ناراً حشاشات النفوس ضرامها

خفـــــت على أيمانكــــم أوزانها
يـــوم الـــوغـــى واستثقلتهـــا هـــامهـــا
حتـــى أحلـــن الشـــام شـــامـــا صرصرت
فيـــه جنـــاد بها وصـــدّح هـــامهـــا
ورحضـــن أدران الجزيـــرة بعـــدمـــا
غمـــرت بها وهـــداتها وآكـــامهـــا
شطـــراً أبـــرت ومثلـــه أنظـــرتـــه
وقـــع الخطـــوب تكـــرهـــا أيـــامهـــا
بـــالخابطـــات الغـــاب تـــزأر أســـده
والمجفلي الحي اللقـــاح صيـــامهـــا
أورتها أجمات أنطـــاكيـــة
عنقـــا وقـــد شبـــب الصـــدا اجمامهـــا
تلقـــى المشـــافـــر في مـــراشـــف كلما
بـــردت بها الأكبـــاد زادهيـــامهـــا
فغـــدت وقـــد عـــز السراح سراحهـــا
وتـــوزعـــت في كنسهـــا آرامهـــا
ومشـــى الضـــلال القهقـــرى واستـــأصـــل الـــ
ـــاذان مـــن رجـــع الأذان صـــلامهـــا
وغـــدا يخللهـــا الخليـــل ســـواحبـــا
عـــذبـــا يمـــرّ لها العـــذاب غمامهـــا
غضبـــا لـــديـــن اللّـــه حـــص جنـــاحـــه
بغيـــا وأدمـــى صفحتيـــه لـــدامهـــا
فـــالآن رد النـــور فيـــه نـــوره
وانجـــاب مـــن تلـــك الهنـــات ظـــلامهـــا
محمـــودا المحمـــودا قـــدامـــا إذا
خـــام الكماة وزلـــزلـــت اقـــدامهـــا
الفـــارج الكـــرب العظـــام تضـــاجمت
أشـــداقهـــا وفـــرى القلـــوب ضغـــامهـــا[٧٤]

وله من أخرى:

أمـــا الـــــرعـــــايـــــا فـــــإنهارشفـــت
لـــديــك نعمـــى عـــذبـــاثنـــايـــاهـــا
سلكـــــت نهج العـــــدل القـــــويـــم بها
فــــاحمدت دينهـــــا ودنيـــــاهـــــا
وكـــم اميتـــت خـــوفـــا فـــامنهـــا
متـــالـــف الخوف خـــوفـــك اللّـــــه
للّـــــه أقطـــــارك التـــــي قطـــرت
لها منـــاهـــــا إلى منـــايـــــاهـــــا
أنـــــب في إنـــــب فــــــوارسهـــــا
تـــــردي فتردي أولاك أخـــــراهـــــا
أشجـــــت لهاة البرنـــــس هبـــــوتها
وكـــم عتـــاعـــاتيـــافـــأشجـــاهـــا
وجـــــوسلين استســـــاغ نطفتهـــــا
فـــاحتلـــب الـــذل تحت مغـــداهـــا
ردّتـــه صفـــرامـــن كـــل مـــاملكـــت
يـــداه أيـــدمـــاضـــل مسراهـــا
جـــويـــس جـــاستـــك أوجـــه لا رأت
بـــؤســا وجـــاد الحيـــا محيـــاهـــا
في سريـــة لـــو تكـــون فـــارسهـــا
يـــومئـــذمـــا انبعثـــت أشقـــاهـــا
لازال ظـــــل النعماء عـــــن ملـــك
مـــا الشمـــس كفـــؤالـــه إذا بـــاهـــا
واللّـــه جـــازيـــه عـــن مقيـــدة
أعـــزهـــا اللّـــه مـــذ تـــولاهـــا
محمـــــــــودا المعتلي إلى فلـــــــك
الحمـــــد وثيراً لـــــه ولا يـــاهـــا
أعطـــاكـــه جـــدّك المتـــوج بالجـــ
ـــدّ ونفـــس للّـــه مغـــزاهـــا
نفـــس عـــزوف عـــن الخنـــا طبعـــت
نـــزههـــا اللّـــه يـــوم ســـوّاهـــا

أنـــت الـــذي سلـــم الانـــام لـــه
يمنــــى طبـــاق العلى ويسراهـــــا
وأنـــت مـــولى الملـــوك قـــاطبـــة
مـــن كـــل فنـــا خسرو وشـــاهنشـــاهـــا
والشهـــــر هـــــذا الاقـــــول أحمده
أوّه بـــديـــل مـــن قـــولتـــي واهـــا

وله من أخرى:
يـــابـــن الـــذي لم يـــال في نجـــدة الـــ
ـــإسلام ادلاجـــــا وتهجيرا
تكنـــف الشـــام وقـــد شـــام بـــر
ق الخوف انجـــادا وتغـــويـــرا
وكـــف كلـــب الـــروم مـــن بعـــد أن
انشبـــه نـــابـــا واظفـــورا
فـــاهلـــه رقـــك إن انصفـــوا
رقـــا بحـــدّ السيـــف مسطـــورا
بـــدر هـــوى واستخلـــف الشمـــس في
دستـــك اشراقـــا وتـــأثيرا

وله من أخرى:
ملـــك كســـى الاســـلام مـــن ذبـــه
بـــردا بتـــدبيـــح الظبـــى معلما
مـــن أصبـــح الشـــام بـــه شـــامـــة
يقطـــر مـــن قتـــل عـــداه دمـــا
لـــو لم يقـــم منصلتـــا دونـــه
لم تلـــق في أقطـــارهـــا مسلما

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماه واهتمامه بالعرس وعوده إلى حلب:

الـدهـر مـارضتـه بـا لجودوالبـاس
مقسـم بين اغـراس واعـراس
فتـح تعـافيـه فتـح ومطلـب
دانـي المنـال وملـك ثـابـت راسي
نصرا ببصرى وصفحـا عـن حماة لقـد
أحسنـت للـداء حسما أيها الآسي
يـابـن الـذي عنـت الـدنيـا الـدولتـه
مـن فـاطمـي اعـزتـه وعبـاسي

وله فيه أيضا:

غـدا الـديـن بـاسمـك سـامـي العلـم
أمين العماد مكين القـدم
لـذلـك لقبـت نـورا الـه
وقـد أغطـش الظلـم فيـه الظلـم
أضـاءت بعـدلـك آفـاقـه
وفضـت عـرى الـديـن لما ادهـم
ولم تمش رهـوا النصر الـرهـا
ومثلـك أدرك لما عـزم
ويـوم بسـوطـا بسطـت الحما
م على الهضـب مـن ركنهـا فـانهدم
وبصرى وصرخـد لـو لم تثـر
دراكـا الكـانـا رديفـي ارم
ومـذ فـض جيشـك في الغوطتـ
ـين فـض الصليـب لـه مـانظـم
وفي كفـر لاثـا وهـاب حلـ
ـت عقـد البرنـس ببيـض خـذم
معـودة أنها لا تسـ
ـلّ الا مقمقمـة للقمـم

يـــوم بسرفـــــود جـــرّ عتهـــم
أجـــاجــــا أغصهـــم واصطلـــم

وفـــوق العـــريمـــة غشــاهـــم
عـــرام جيـــوشـــك سيـــل العـــرم

وأبـــت بكلبهـــم في الكبـــو
ل مبـــاح الحريـــم مـــذال الحرم

وبـــارتهم أذنـــت انها
ابـــارتهم فليبـــؤ بـــذم

بنـــوهـــا واعلـــوا ولم يعلمـــوا
بما خـــط في اللـــوح منـــك القلـــم

وانـــك خـــارم مـــا أحكمـــو
ه ومـــن ديننـــا راقـــع مـــا انخـــرم

تـــرفـــع مـــن بعـــد خفـــض هـــدى
وتخفـــض مـــن بعـــد رفـــع صنـــم

سمكـــت المدارس فـــوق النجـــو
م فكـــم منجـــم تحتهـــا قـــد نجـــم

وعـــاش الحنيفـــي والشافـــ
ـــعي بما شـــدّت منهـــا وكـــانـــا رمـــم

وإن لم تكـــن هـــاشمـــي الاصـــو
ل فـــانـــك فـــرع الهزبـــر الهشـــم

ومـــن يـــدّعـــى في العلى مـــا ادّعيـــ
ــت وأنـــت ابـــن مـــن عـــز لما احتكـــم

واقســـم مـــا غـــاب ميـــت سقـــت
مغـــارســـه عين هـــذي الشيـــم

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة ، ونفسه فيها طويل، ولم يبق بعد موت القيسراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد الموصلي،وسيأتي شيء من شعره إلى أن قدم العماد الكاتب للشام في سنة اثنتين وستين فتسلم هذا الأمر ،

وعبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات وأتمها نظماً ونثراً، وسيأتي كل ذلك في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

قال ابن الأثير: وفيها توفي صاحب ماردين حسام الدين تمرتاش ووليها بعده نجم الدين ألبي بن تمرتاش بن أرتق.

قلت: وقد مدحه القيسراني والعرقلة وغيرهما من الشعراء.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

قال ابن الأثير: ففيها ملك نور الدين دمشق، وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد، وكان الذي حمل نور الدين على الجدّ في ملكها أن الفرنج ملكوا في السنة الخالية عسقلان، وهي مدينة فلسطين حسنا وحصانة، ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهف ولايقدر على إزعاجهم عنها لأن دمشق في طريقه، وليس له على غيرها معبر لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط، وقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق.

واستضعفوا مجير الدين وتابعو الغارة على أعماله، وأكثروا الفتك بها والنهب والسبي، وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد، ثم أشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم الذين نهبوا من سائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه، ومن أحب وطنه سار إليه، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم كان يقال له مؤيد الدين ابن الصوفي، فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدّو فلجأوا إلى الله تعالى ودعوه أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم وأذن في خلاصهم مما هم فيه، على يد أحب عباده إليه وأحسنهم طريقة، وأمثلهم سيرة، وهو الملك العادل حقا، نور الدين محمود، فحسن له السعي في ملك البلدة وألقاه في روعه، فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقوّة والحصار تعذر عليه لأن صاحبه متى رأى شيئاً من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم.

قلت: وقد كان سبق له بذلك سوابق قد تقدّم ذكر شيء منها، ولذلك قال العرقلة يمدح أتابكه معين الدين أنر من قصيدة:

يظـن صـلاح الـديـن فـرسـان جلـق
كفـرسـانـه ومـا الاسـد مثـل الثعـالـب
رجـال إذا قـام الصليـب تصلبـت
رمـاحهـم في كـل مـاش وراكـب
غـدا يطلـع الشـام الفـرنـج بفيلـق
مسعـودة أبطـالـه للمصـائب
لها الليـل نقـع والأسنـة أنجـم
فما غير أبطـال وغير جنـائب

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور، فإن ذلك لم يكن حينئذ ملكا يقود الجيوش، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني صاحب حماه، أحد أصحاب زنكي وقد تقدّم ذكره مراراً، وكأنه كان في مقدمة الجيش النوري لما قصد دمشق في المرتين الأوليين، أو في إحداهما، أو في زمن حصار زنكي لها، واللّه أعلم.

قال ابن الأثير: وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوي بها وإنضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين فإن الدم كان عنده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل، فلما رأى الحال هكذا عمد إلى إعمال الحيلة، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله، وواصله بالهدايا وأظهر له المودّة حتى وثق إليه، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن فلانا - ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين - قد كاتبني في المخامرة عليك فاحذره، فتارة يأخذ اقطاع أحدهم، وتارة يقبض عليه، فلما خلت دمشق من الأمراء قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهما شجاعا، وفوّض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لايتمكن من دمشق معه، فقبض عليه مجير الدين وقتله، فقال له عند قتله: إن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني فإنه سيظهر لك ما أقول، فلم يصغ إلى قوله وقتله.

قلت: وفي بعض قصائد ابن منير ما يدل على أن عطاء هذا كان له مع نور الدين في دمشق حديث فإنه قال:

ودمشق في دمشق رجال سلم
لحور نسائهم منهم نساء

هي الفردوس أصبح هو عاف
من العافي ومن خال خلاء

جنان تعرف الجنات فيها
ولا رأي هناك ولا رواء

لا سمح صعبها ودنت قصاها
وامكنك إقتياد وامتطاء

ويا نعم العطاء عطاء رب
توسطه فأنشطه عطاء

تفاءل باسمه فالفال وعد
يكون على ظباك به الوفاء

هو السبب الذي شزرت قواه
وهذ به لخدمتك الصفاء

وسيف إن تشمه تشم حساما
وإن يغمد فنار بل ذكاء

جنته لك السعادة قطف رأي
لنقب الخادعيك به هناء

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديث، وإنما هذه الأبيات أو ما في معناها كانت سبب قتله لما بلغ مجير الدين ذلك، وعطاء هذا هو الذي ينسب إليه مسجد عطا ء خارج الباب الشرقي بدمشق، وجوزة عطاء ببيت أبيات وهي أرض فيها أخشاب كبار من الجوز تربى أوتاراً لجامع دمشق، وهي وقف عليه، وقد مدحه العرقلة وغيره من الشعراء.

قال ابن الأثير: فلما قتل عطاء قوي طمع نور الدين في دمشق، فراسل أحداث البلد وزناطرته واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار

إليهم وحاصرهم عشرة أيام، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، فإلى أن جمعوا وجاؤوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق فعادوا بخفي حنين، وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيق عليهم ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقي فدخله بالامان عاشر صفر، وحصر مجير الدين في القلعة وراسله وبذل له الاقطاع الكبير من جملته مدينة حمص فأجاب إلى تسليم القلعة وصار إلى حمص.

وقال ابن أبي طي: أنفذ نور الدين أسد الدين شيركوه رسولا إلى صاحب دمشق فخرج في تجمل عظيم ومعه ألف فارس، فعظم على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة هذه مكيدة ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحد من أمراء دمشق، فاستوحش أسد الدين ونزل بمرج القصب وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفذ إلى نور الدين يعرّفه بما جرى عليه، فسار نور الدين في عساكره وزحف إلى البلد من شرقيه، وكانت الحرب في عاشر صفر ، وتولى أسد الدين القتال وأبلى الجهد فكسر عساكر دمشق إلى الأسوار من قبلي البلد، ولم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لأنّ نور الدين كان من شرقها وجلّ العسكر مقابله، ورأى من كان مع نور الدين من الجاندراية والحلبيين إلى خلوّ السور من المقاتلة فتسرعوا إلى السور وتعلقوا به وحصلوا في الحال على الأسوار، ويقال أن إمراة كانت على السور فدلت حبلا فصعدوا فيه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعد جماعة أخرى، ونصبوا علماً وصاحوا بشعار نور الدين ، فوقع على أهل البلد الخذلان وكسر باب البلد ودخلت الخيالة منه، وملك نور الدين دمشق، وكان لأسد الدين اليد الطولى في فتحها، فولاه نور الدين أمرها وردّ إليه جميع أحوالها، وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرحبة.

قال الرئيس أبو يعلى: في العشر الثاني من المحرم وصل الأمير أسد

الديـن شيركوه رسـولاً من نـور الديـن إلى ظاهـر دمشق، وخيـم بناحيـة القصـب مــن المرج في عسكـر ينـاهـز الألــف، فـأنكـر ذلــك، ووقـع الاستبحـاش منــه واهمال الخروج إليـه لتلقيـه والاختــلاط بـه، وتحرّرت المراسلات فيها اقتضته الحال ولم تسفرعن سـداد ولا نيل مراد، وغلا سعر الأقوات لانقطـاع الواصلين بالغلات، ووصـل نور الديـن في عسكره إلى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفـاسريا عند دومة، ورحل في الغد ونزل بيت الأبـار من الغـوطة ، وزحف إلى البلـد من شرقيـه، وزحف إليـه من عسكـره وأحـداثـه الخلـق الكثيرووقـع الطراد بينهـم، ثـم عـاد كـل مـن الفريقين إلى مكـانه، ثم زحف يـوما بعد يوم ، وتـأكد الزحف يـوم الأحد عاشر صفر، وظهر إليـهالعسكر الدمشقي فاندفع بين أيـديهم حتى قربوا من سور باب كيسـان والدباغة من قبلي البلد وليـس على السور أحد من العسكريـة والبلديـة لسوء تـدبير صاحـب الأمر ، غير نفـر يسير لايؤبـه لهم، فتسرع بعض الـرجالة إلى السـور وعليه امـرأة يهودية، فأرسلـت إليه حبلا فصعـد فيه، وحصل على السـور ولم يشعر بـه أحد وتبعه مـن تبعه وأطلعـوا علما نصبوه على السـور وصاحـوا:نور الـدين يـامنصور، وامتنـع الاجناد والـرعية مـن الممانعة لما هـم عليه من المحبـة لنور الـدين وعـدله وحســن ذكره، وبـادر بعض قطـاعي الخشـب بفأسـه إلى الباب الشرقـي فكسر أغلاقـه، وفتحه فدخل منـه العسكر وسعوا في الطرقـات، ولم يقف أحد بين أيديهم، وفتح بـاب توما، أيضا ودخل الناس منـه، ثم دخل نور الديـن وخواصه ، وسرّ كـافة الناس من الأجنـاد والعسكرية لما هـم عليه من الجوع وغـلاء الاسعار والخوف مـن منازلـة الفرنـج الكفار،وكـان مجير الدين لما أحس بـالغلبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعـة وأنفذ إليه فـأومن على نفسـه ومـالـه، وخرج إلى نـور الـديـن فطيب نفسـه ووعـده الجميـل،ودخـل نور الـدين القلعـة في اليـوم المقدّم ذكـره وأمـر بالمنـاداة بالامان للرعيـة والمنع من انتهاب شيء من دورهم وتسرع قـوم من الرعاع والأوباش إلى سـوق علي وغيره فعاثـوا ونهبوا، وأنفـذ نور الـدين إلى أهـل

البلد بها طيب نفوسهم وأزال نفرتهم، وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدار الأتابكية دار جدّه، وأقام أياما، ثم تقدم إليه بالمسير إلى حمص في خواصه ومن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه بعد أن كتب له المنشور باقطاعه عدّة ضياع باعمال حمص برسمه ورسم جنده، وتوجه إلى حمص على القضية المقررة، ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرعية من القضاة والفقها والتجار وخوطبوا بما زاد في ايناسهم وسرور نفوسهم وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم فأكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله تعالى على ما أصارهم إليه، ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل وضمان الأنهار وأنشأ بذلك المنشور وقرى على المنبر بعد صلاة الجمعة، فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس برفع الدعاء إلى اللّه تعالى بدوام أيامه ونصرة أعلامه.

وقال ابن الاثير: لما استقل نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً عاماً.

قلت: قد تقدم ذكره في أوّل الكتاب، وسيأتي منه أشياء مفّرقة فيما بعد.

قال: وألقى الاسلام جرانه بدمشق، وثبتت أوتاده ، وأيقن الكفار بالبوار، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين، وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فانتهى الأمر إلى نور الدين فخاف أن يحدث ما يشق تلافيه، بل ربما تعذر لاسيما مع مجاورة الأفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعوّضه عنها مدينة بالس، فلم يرضها، وسار عن الشام إلى العراق، فأقام ببغداد وابتنى دارا تجاور المدرسة النظامية وتوفي بها.

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج وعلموا أنه لايقعد عنهم وعن غزو بلادهم والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص

وتقرّبوا إليه، ثم إن من بتل باشر راسلـوه وبذلوا له تسليمها إليه، فأرسل إلى الأمير حسان المنبجي وهـو من أكابر أمـراء نور الدين واقطـاعه منبج فأمره أن يتسلمها منهم، فسار إليهـا وتسلمها وحصنها ورفع إليها ذخائر كثيرة.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الـدين بزان أطلق يوم الفتح من الاعتقال وأعيد إلى داره، ووصـل الرئيس مؤيد الديـن المسيب إلى دمشق مع ولده النـائب عنه في صرخد إلى داره معوّلا على لزومهـا وترك التعرّض لشيء من التصرفات والأعمال ، فبـدا منه من الأسباب المعـربة عن إضمار الفساد، والعـدول إلى خلاف منـاهج السـداد والإرشـاد ما كـان داعيا إلى فساد النية فيـه، وكان في إحدى رجليه فتـح قد طال به ونسيـه ، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه وأسقط قوّته مع فهاق متصل وقلاع في فيه زائد، فقضـى نحبه في رابع ربيع الأوّل ودفـن في داره، واستبشر الناس بهلاكه والرحمة من سوء أفعاله.

قال: ووردت الأخبـار بقتل خليفـة مصر الملقب بالظـافر بـن الحافظ، وأقيم ولده عيسى مقـامه وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقبـوه بالفائز ، وعباس الوزيـر، ثم ورد الخبر بأن الامير فارس الدين طـلائع بن رزيك ، وهو من أكـابر الأمراء المقدّمين الشجعان المذكوريـن لما انتهى إليه الخبر وهو غـائب عن مصر قلق لذلـك وامتعض وجمع واحتشد، وقصـد العود إلى مصر، فلما عـرف عـاس بما جمع خـاف الغلبـة فتـأهـب للهـرب في خواصه وأسبابه وحرمه وما تهيـأ من ماله، وسار مغذاً فلما قرب من أعمال عسقلان وغزة خـرج إليه جماعة من خيالـة الأفرنج فاغتر بكثـرة من معه، وقلة مـن قصده، فلماحملوا عليـه فشل أصحابـه وأعانوا عليـه وانهزم أقبح هزيمـة هو وابنـه الصغير وأسر ابنه الكبير الذي قتـل العادل بـن السلار

مع ولده وحرمه وماله وكراعه، وحصلوا في أيدي الفرنج ومن هرب لقي من الجوع والعطش شدّة، ومات العدد الكثير من الناس والدواب ووصل في أثرهم فارس الدين فوضع السيف فيمن ظفر به، من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة، وتدبير الأمور موضعه، ووصل إلى دمشق منهم من ألجأه الهرب على أشنع صفة من العدم والعري في آخر ربيع الآخر .

قلت: وفي ذلك يقول عمارة اليمنى من قصيدة له:

لكم يا بني رزيك لازال ظلكم
مواطن سحب الموت فيها مواطر
سللتم على عباس بيض صوارم
قهرتم بها سلطانه وهو قاهر

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن نصر بن عباس لما قتل ابن السلار وتوزر أبوه عباس، كان نصر يعاشر الخليفة الظافر ويخالطه، وعباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم وضرب بعض الناس ببعض حتى يفنوهم، وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على أبيه ومواصلته بالعطايا الكثيرة، ففاتحني في ذلك فنهيته فاطلع والده على الأمر، فاستماله أبوه ولطف به وقرّر معه قتل الظافر، وكانا يخرجان متنكرين وهما تربان سنهما واحد فدعاه إلى داره ورتب من أصحابه معه في جانب الدار نفراً، ثم لما استقرّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك سلخ محرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ورموه بجب الدار، وأصبح عباس جاء القصر، ضحوة نهار للسلام، وجلس في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظافر ، فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى صاحب زمام القصر، وقال: ما لمولانا ما جلس للسلام، فتبلد الاستاذ في الجواب، فصاح عليه وقال: ما لك لاتجاوبني؟ قال: يامولاي مولانا ما ندري أين

هو، قال: مثل مولانا يضيع ارجع واكشف الحال، فمضى ورجع فقال: ما وجدنا مولانا، فقال: يبقى الناس بلا خليفة ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد لنبايعه، فمضى وعاد، وقال: الموالى يقولون لك: ما لنا في الأمر شيء والدنا عزله عنا، وجعله في الظافر والأمر لولده بعده، قال: أخرجوه حتى نبايعه وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول لأخوته أنتم قتلتموه ويقتلهم ، فخرج الظافر ولعل عمره خمس سنين يحمله الأستاذ، فأخذه عباس فحمله وبكى وبكى الناس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه وهو حامله وفيه أولاد الحافظ.

قال ابن منقذ: ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين فما راعنا إلاّ قوم قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة فإذا السيوف تختلف على إنسان، فقلت لغلام لي أرمني: انظر من هذا المقتول، فمضى وعاد وقال: ما هؤلاء مسلمين هذا مولاي أبو الأمانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه، ثم إن واحداً شق بطنه يجذب مصارينه، ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربة سيف والدم يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر، ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي الخزانة ألف سيف مجرّد.

قال: وكان ذلك اليوم من أشدّ الايام التي جرت عليّ لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره اللّه سبحانه، وجميع خلقه.

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في ديوانه قال: كان لعباس أربعمائة جمل تحمل أثقاله ومائتا جنيب، فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين وخمسمائة وقد قام عليه أهل مصر وعسكريتها فارسهم وراجلهم، تقدّم بشدّ خيله وبغاله وجماله ليتحمل ويخرج، فلما صار الجميع على باب داره وقد ملأت ذلك الفضاء إلى

قصر السلطان إلى الإيوان، خرج غلام يقال له عنبر كان على أشغاله وغلمانه كلهم تحت يديه فقال للجمالين والخربندية والركابية: روحوا إلى بيوتكم وسيبوا الدواب، ففعلوا ذلك وانحاز هو إلى المصريين يقاتله معهم، وكان ما جرى من تهميل الدواب لطفا من اللّه تعالى به فإنها سدّت الطريق بينه وبين المصريين، ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في خلق كثير، ونحن في قلة ما نبلغ خمسين رجلا، وغلمان عباس ومماليكه في ألف ومائتي غلام بالخيول الجياد والسلاح التام، وثمانمائة فارس من الأتراك خرجوا كلهم من باب النصر ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطابية فراراً من القتال، فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال

والبغال ، فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عباس من باب النصر وجاؤوا في أثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره، وكان عباس قد أحضر من العرب نحوا من ثلاثة آلاف فارس يتقوّى بهم على المصريين، واستحلفهم ووهبهم هبات عظيمة فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدّ قتال ستة أيام يقاتلهم من الفجر إلى الليل، فإذا نزل أمهلوه إلى نصف الليل ثم يركبون ويهدّون خيلهم على جانب الناس، ويصيحون صيحة واحدة فتجفل الخيل وتقطع، ويخرج إليهم منها ما فيه منعة وقوة، فيأخذونه، فكان ذلك سبب هلاك خيله وتمكن الأفرنج منه واشتغاله عن سلوك طريق لايقصده الفرنج إليه.

قال: ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضحى نهار إلى آخر يوم الخميس، ثم جاؤوا إليهوأخذوامنه حسباً على أموالهم وأنفسهم وبيوتهم ظنا منهم أن له عودة إليهم وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس، ويوم الأحد صبحهم الأفرنج، وقد هلك الناس من الجوع والعطش، وماتت خيلهم فقتلوا ابنه الأوسط وابنه الأكبر، وقتلوا خلقا كثيرا، وأخذوا نساء عباس وخزائنه، وأسروا أولاداً له صغاراً وانصرفوا.

قلت: عباس هذا هو عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن المعزبن باديس الحميري، ويلقب بالأفضل ركن الدين ويكنى بأبي الفضل، ورأيت علامته في الكتب أيام وزارته « الحمد لله وبه أثق» وفيه يقول أسامة بن منقذ:

لقد عم جود الأفضل السيد الورى
وأغنى غناء الغيث حيث يصوب(٧٥)

ومن أبيات لابن أبي أسعد فيه لما قتل الظافر:

وأنفق من انعامهم في هلاكهم
وأظهر ما قد كان عنه تنافق
ومدّ يداً قد طوّلوها إليهم
وحلت بأهل القصر منه البوائق
سقى ربه كاس المنايا وما انقضى
له الشهر إلا وهو للكأس ذائق

وكان عباس قد تخيل من أسامة عند خروجه من مصر، لما يعلمه بينه وبين الملك الصالح من المودّة والمصافاة فأحضره واستحلفه أنه لاينفصل عنه، ثم لم يقنعه ذلك حتى أنفذ من أستاذي داره من يدخل على حرمه إلى داره فأخذ أهله وأولاده فتركهم عند أهله وأولاده.

وقال: قد حملت ثقلهم عنك لهم أسوة بوالدة ناصر الدين ، يعني ولده ناصر الدين وبأخواه ، فلما خرجوا ونهبت دورهم ودوابهم عجز عن حمل من يخصه، فأعادهم أسامة من بلبيس، وأنفذ إلى الملك الصالح يقول له: قد أنفذت أهلي وأولادي إليك، وأنت ولي ما تراه فيهم، فأنزلهم في دار وأجرى عليهم الجاري الواسع وأحسن إليهم غاية الأحسان ، وكان يكاتبه في الرجوع إلى مصر وهو يلطف الأمر معه قصداً لخلاص أهله وأولاده، فلما عرف ذلك منه نسب إلى وحشة قلبه من القصور ونفوره من المصريين، فأنفذإليه يقول له: تصل إلى مكة في الموسم

ويلقاك رسولي إليها يسلم إليك مدينـة أسوان، وأنفذ إليك أهلك وأمدك بالأموال وهـي كما علمت الثغر بيننا وبين السودان، وما يسـدّ ذلك الثغر مثلك وأكثـر من الوعـد وذكر رغبته في قـربه ورعايتـه وما بينه وبينـه من قديم الصحبـة، فاستأذن أسامة في ذلـك الملك العادل نور الـدين، وكان في خدمته فقـال: يافلان ما تسـاوي الحياة الشتات والرجـوع إلى الأخطار والبعـد عن الأوطـان، ومنعـه من ذلـك بإحسـانـه ووعده أن يستخلـص أهله، فكتب أسامة إلى الملك الصالح يعتذر ويسأله تسيير أهله وتردّدت بينهما مكـاتبات وأشعـار متصـلات إلى أن سيرهـم وهم نيـف وخمسـون نسمة في الاكرام والاحترام إلى آخر ولايته .

وذكر أن أهـل القصور والأمـراء أنكروا تسييرهـم وقالـوا: يكون أهلـه رهائن عندنا لنأمن ما يكون منـه، ووصله بعض أصحابه من دمشق وهو في العسكـر النـوري بحلـب فـأخبره أن من كـان لـه بمصر مـن الأهـل والأولاد والأصحاب وصلـوا، وأن المركب انكسرت بهم في سـاحل عكـا، ونهب الفرنج كـل ما فيه ولم يصلوا إلى دمشق إلاّ بـأنفسهم، وأن متملك الافرنـج أعطاهـم خمسمائة دينار أصلحـوا منها حـالهم، وأكتروا ظهـراً إلى دمشق قال أسامة:

إلى اللّـه أشكـو فـرقـة دميـت لها
جفـوني واذكـت بـالهمـوم ضميري
تمادت إلى أن لاذت النفـس بـالمنـى
وطـارت بها الاشـواق كـل مطير
فلما قضـى اللّـه اللقـاء تعـرضـت
مسـاءة دهـري في طـريـق سروري(٧٦)

فصل

قال أبـو يعلى: وفي آخر ربيـع الأوّل وصل الأمير مجد الـدين أبـو بكر

محمد نائب نور الدين في حلب إلى دمشق عقيب عوده من الحج،وأقام أياما وعاد إلى منصبه في حلب وتدبير أعمالها.

قلت: مجد الدين هذا هو ابن الداية، وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى أخوته وسيتكرر ذكرهم في هذا الكتاب، ومجد الدين أكبر أخوته، وقد مدحه الشعراء قال القيسراني من بعض ما قاله فيه:

دعوا ما مضى من قبل هذا المابعد
فأقسم لولا المجد ما عرف المجد
كريم سمت أوصافه لعفاته
قرائن كل اثنين بينهما عقد
محياه والبشرى ويمناه والندى
ونجواه والدنيا وتقواه والزهد
ففي قربه الزلفى وفي وعده الغنى
وفي نيله الحسنى وفي رأيه الرشد
إذا وجه نور الدين قابل مجده
فقل في كمال البدر قابله السعد

وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم بن فليته، وولي الحرمين ابنه قاسم بن هاشم، وهو الذي أرسل عمارة اليمني الفقيه الشاعر إلى الديار المصرية، وسيأتي ذكره.

قال أبو يعلى: وفي ثامن من جمادى الأولى ورد الخبر من ناحية مصر أن عدة وافرة من مراكب الفرنج من صقلية وصلت إلى مدينة تنيس على حين غفلة من أهلها، فهجمت عليها وقتلت وأسرت وسبت ونهبت، وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام وتركتها صفراً، وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في البحر بعد الحادثة، ومن سلم واختفى وضاقت الصدور عند استماع هذا الخبر المكروه.

- ٧٧٧٣ -

قال: وفي شهر رمضـان ورد الخبر من ناحية حلب بوفـاة القاضي فخر الديـن أبي منصور محمـد بن عبـد الصمد بـن الطرسـوسي، وكان ذا همة ماضيـة ويقظة ومـروءة ظاهـرة، وفي داره وولده ومـن يلم بـه من غـريب ووافد، وقـد نفذ أمـره وتصرفه في أعمال حلب في الأيـام النوريـة، وأثر في الوقوف أثراً حسنا، توفر به ارتفاعها، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال.

- ٧٧٧٤ -

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

وفيها تسلم نور الدين بعلبك من واليها ضحاك، ذكر ابن الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين، وقال: كان الضحاك البقاعي ينوب ببعلبك عن صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج، فلطف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها واستولى عليها.

وقال ابن أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتب نور الدين في تسليم بعلبك فأنفذ إليه وتسلمها منه وألحقه بأصحابه.

قال: ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة، وجعله في البلد، وولى القلعة رجلاً يقال له ضحاك، فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضحاكا وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعا وسيره إلى دمشق، فأقام فيها ورد نظر دمشق إليه، وولى ولده تور انشاه شحنكية دمشق، فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن توفي، فولى صلاح الدين شحنكية دمشق .

قلت: هذا وهم، تورانشاه هو الملك المعظم شمس الدولة الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين،فكيف يقول إنه مات قبل أن يلي صلاح الدين شحنكية دمشق، وأما كونه ولي الشحنكيةبدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيت ما يؤكده ، قرأت في ديوان العرقلة وقال يهنيه بالشحنكية بدمشق، وهو في دار عمه أسد الدين شيركوه بن شاذي:

قلت لحسادك زيدوا في الحسد
قد سكن الدار وقد حاز البلد
لا تعجبوا إن حل دار عمه
أما تحل الشمس في برج الأسد

وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنكية:

لصوص الشام تابوا من ذنوب ... تكفرها العقوبة والصفاد

لئن كان الفساد لكم صلاحا ... فمولاي الصلاح لكم فساد

وله فيه أيضا:

رويدكم يا لصوص الشام إني لكم ناصح في مقالي

وإياكم وسمي النبي يوسف رب الحجى والجمال

فذاك مقطع أيدي النساء وهذا مقطع أيدي الرجال

قال ابن ابى طيّ: وولي صلاح الدين شحنكية دمشق والديوان فأقام فيه أياما، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان أبي سالم بن همام ، فأنفذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته، وطيف به في دمشق.

قلت: وابن همام هذا هو الذي ذكره الشنباسي في قصيدته، وأشار إلى حلق لحيته بقوله:

كأبي سالم بن همام لما ... قام للنصح عاديمشي ملثم

ثم قال ابن أبي طيّ: واستخص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخواصه، فكان لايفارقه في سفر ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعا في لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعب الكرة .

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصة بالملك قليج

أرسلان بن الملك مسعود بن سليمان بن قتلمش ملك قونية وما والاها ، فملك عدّة من حصونها وقلاعها بالسيف والأمان، وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذو النون ودولات مشتغلين بمحاربة أولاد الدانشمند، ونصروا عليهم في وقعة كانت بأقصرا في شعبان، فلما عاد قليج أرسلان وعرف ما كان من نور الدين في بلاده عظم عليه هذا الأمر، واستبشعه مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصهر، وراسله بالمكاتبة والانكار والوعيد والتهديد فأجابه نور الدين بحسن الاعتذار وجميل المقال، وبقي الأمر بينهما مستمراً على هذه الحال، وعاد نور الدين من حلب إلى دمشق.

قال: وولي الاسطول المصري مقدّم شديد البأس. بصير باشغال البحر، فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج، وألبسهم ثيابهم، ونهض بهم في عدّة من المراكب الاسطولية، وأقلع في البحر ليكشف الأماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرّف أحوالها، ثم قصد ميناء صور وقد ذكر له أن فيه شختورة رومية كبيرة فيها رجال كثير، ومال وافر، فهجم عليها وملكها، وقتل من فيها واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم أحرقها وعاد منها في البحر فظفر بمراكب حجاج الفرنج، فقتل وأسر وانتهب وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى.

قلت : وفي هذه السنة ورد أمر الخليفة ببغداد، وهو المقتفي ، إلى أمير الحرمين قاسم بن هاشم يأمره أن يركب على باب الكعبة المكرّمة باب ساج جديدا، قد ألبس جميع خشبه فضة وطلي بذهب، وأن يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه ويسير إليه خشب الباب القديم مجرّداً ليجعله تابوباً يدفن فيه عند موته. وذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفضة التي أخذها من الباب في اليمن، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم فتوجهت إلى زبيد، وعدت من مكة في صفر سنة إحدى وخمسين، وحججت في الموسم منها فدفعت لأمير

الحرمين ماله، وألزمني الترسل عنه إلى مصر، يعنـي مرة ثانية بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها حاصر نور الدين قلعة حارم، وهي حصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية ، وضيق على أهلها وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين، فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد، وساروا نحوه لمنعه، وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه ،فأرسل إليهم يعرّفهم قوّتهم وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه، بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه، ففعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصة من حارم، فأبى أن يجيبهم إلاّ على مناصفة الولاية فأجابوه إلى ذلك فصالحهم وعاد.

وفي ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة وذكر أبياتا من قصيدة لابن منير ، وقد سبق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين، فأما أن يكون ابن منير قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة، وقد قرأت في ديوان ابن منير، وقال يمدحه ويهنيه بالعود من غزاة حارم:

مافوق شأوك في العلى مزداد
فعلام يقلق عزمك الاجهاد
همم ضربن على السماء سرادقا
فالشهب أطناب لها وعماد
أنت الذي خطبت له حساده
والفضل ما اعترفت به الحساد
قام الدليل وسلم الخصم اليلند
وانجلى للآثر الاسناد
زهرت لدولتك البلاد فروحها
ارج المهب ودوحها مياد

أحيا ربيع العدل ميت ربوعها
فالبرض نسج والهشيم مراد
فالعيش إلا في جنابك ميتة
والنوم إلا في حماك سهاد
وإذا العدى زرعوا النفاق واحصدوا
كيدا فعزمك ناقض حصاد
بالمقربات كأن فوق متونها
جن الملا وكأنها أطواد
تدأى ومن وحي الكماة صفورها
فالزجر قيد والندى قياد
سحب إذا سحبت بأرض ذيلها
فالحزن سهل والهضاب وهاد
يهدي النواظر في دجنة نقعها
بندر بسرجك نير وقاد
ألبست دين محمد يا نوره
عزّا له فوق السُها إسناد
ما زلت تسمكه بمياد القنا
حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه
عدد يراع به ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تكلما
حمدتك عن خطبائها الاعواد
ولئن حمت منك الأعادي مهلة
فلهم إلى المرعى الوبيّ معاد
ولكم لكم في أرضهم من مشهد
قامت به لظباكم الاشهاد

ملق بأطراف الفرنجة كلكلا
طرفاه ضرب صادق وجلاد

حـــامـــوافلماعـــاينـــواحـــوض الـــردى
حـــامـــوابـــرائش كيـــدهـــم أوكـــادوا
ورجـــاالبرنـــس وقـــدتبرنـــس ذلـــة
حـــرمـــابحـــارم والمصـــادمصـــاد
ضجـــت ثعـــالبـــه فـــأخـــرس جـــرسهـــا
بيـــض تنـــاســـب في الحديـــدحـــداد
وســـواعـــدضربـــت بهنّ وبـــالقنـــا
مـــن دون ملـــةأحمدالاســـداد
يـــركـــزن في حلـــب ومـــن افنـــانها
تجنـــي فـــواكـــه أمنهـــابغـــداد
يـــامـــن إذا عصفـــت زعـــازع بـــأســـه
خمدت جحيـــم الشرك فهـــي رمـــاد
عجبـــا لقـــوم حـــاولـــوك وحـــاولـــوا
عـــودا فـــواتـــاهـــم إليـــه مـــراد
ورأوا النصر فـــوقـــك خـــافقـــا
فـــأقـــام منهـــم في الضلـــوع فـــؤاد
مـــن منكـــر أن ينســـف السيـــل الـــربـــا
وأبـــوه ذاك العـــارض المدّاد
أو أن يعيـــدالشمـــس كـــاسفـــةالسنـــا
نـــارلهاذاك الشهـــاب زنـــاد
لا ينفـــع الآبـــاء مـــا سمكـــوا مـــن الـــ
ـــعلياء حتـــى تـــرفـــع الأولاد
ملـــك يقيـــدخـــوفـــه ورجـــاؤه
ولقلما تتضـــافـــر الاضـــداد

وقال يهنيه بالنصر يوم حارم قصيدة أوّلها:
للمكـــك مـــاتشـــاءمـــن الـــدوام

يقول فيها:

حظيت من المعالي بالمعاني
ولاذ الناس بعدك بالاسامي
عزيز المنتمى عالي المراقي
بعيد المرتمى غالي المسامي
فما أحد إلى العلياء يدلي
بمحتدك القسيمي القسامي
أبوك المعتلي قمم الأعادي
إذا استعرت مذامرة القهام
زكا عرق العراق وقد تكنى
به وأطال من شمم الشآم
وجدك جدّ حتى قال قوم
على الفلك ابتنى عمد الخيام
فخرت ففت أبناء عظاما
إذا فخر المنافر بالعظام
وقفنا والنواظر مسجدات
وروح العز ذاريّ الختام
أساطر كالزبور مفصلات
كأنا من صلاة في نظام
لدى ملك سجاياه سجال
تعاقب بين عفو وانتقام
كريم أكثرت يده أيادي ال
عفاة وقللت عدد الكرام
فأهللنا السالفتي هلال
وكفرنا الضاحكتي حسام
ذهلنا والسماط تخال سمطا
وقد سجد المقاول للسلام
هل الدست استقل بليث غاب
أم الفلك ارتدى ببدر التمام

يطـــــر بـــــه إلى العليـــــاء نفـــس
غـــــروب عـــــن مـــــلاء مـــــة الملام

وخير سماعـــــــه ضرب مـــــــدام
إذا طـــــــرب الملـــــــوك إلى المدام

سقـــى اللّـــه العـــوامـــل مـــن جبـــان
شققـــن النقـــع عـــن نقـــع الاوام

فكـــم انتجـــت مـــن أمـــل عقيـــم
بها وحسمـــت مـــن داء عقـــام

بـــإنـــب والـــرعـــال كـــأن ثـــولا
تطـــاوح تحت عير مـــن أيـــام

مقـــام كنـــت قطـــب رحـــاه أرجـــى
مقـــام بين زمـــزم والمقـــام

رميتهـــم بـــأرعـــن مـــرجحـــنّ
ابـــارهـــم وكنـــت أبـــرّ رام

وقمـــت وقـــد تنـــاعـــس كـــل راع
وقـــام وقـــد تقـــاعـــس كـــل حـــام

فـــأيـــدي الخيـــل تـــذرع بحـــر لـــج
مـــن الـــدم مـــن يـــد التثخين طـــام

أحلـــت الـــديـــن فيـــه وكـــان هما
عـــزيـــز القـــوم معتـــدل القـــوام

وفي شجـــراء حـــارم شـــاجـــرتهم
ســـواهـــم كـــالسهـــام بكـــالسهـــام

نظـــائر حممـــت لهم حمامـــا
تطـــايـــر تحتـــه مثـــل الحمام

فلـــو قـــد مثـــل الاســـلام شخصـــا
لـــرشـــف مـــا وطئـــت مـــن الســـلام

فـــاكـــذب مـــدّعين هفـــوا وغـــرّوا
بـــأن الأرض تخلـــو مـــن همام

أولى لابصاركم هذا التعاشي
عن النور المبين بل التعامي
عن القمر الذي يجلوه ظل الـ
ـعواصم في ضيا الليل التهامي

هو المهدي لا من ضل فيه
كثير واستخف سوى هشام
وقائم عصرنا لاما تمنى
به من صوغ أضغاث المنام
بنور الدين أنشر كل حق
أطيل ثواؤه تحت الرجام
وطالت قبة الاسلام حتى اسـ
ـتوت بين الفوارس والنعام
تطابق لاسمه لفظ ومعنى
أحلاه الطباق على الأنام
جرى قدّامه ابن سبكتكين
وقبل الوبل هينمة الرهام
وكان من النجوم بحيث تومى
إليه من عنايات التكامي
وجئت فصار أشمخ ما بناه
لما شيدت الطأمن رغام
أطاعك إذ أطعت اللّه جدّ
ركبت به الزمان بلا زمام
ألا يا ربما اتفق الاسامي
وفاضل بينها درج التسامي
جنى شرفا من استغواه حتف
إليك وكم حياة من حمام
ترشفك الكماة وأنت موت
كأنك من طعان في طعام

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: توجه نور الدين إلى ناحية حلب في بعض عسكره في الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيثهم في أعمال حلب وإفسادهم وصادفه في طريقه المبشر بظفر عسكره الحلبي بالافرنج المفسدين على حارم وقتل جماعة منهم وأسرهم، ووصل مع المبشر عدّة وافرة من رؤوس الأفرنج المذكورين وطيف بها في دمشق.

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق في بعض أيام رمضان سالماً بعد تهذيب حلب وأعمالها وتفقد أحوالها، واستقرّت الموادعة بينه وبين ولد السلطان مسعود صاحب قونية وزال ماكان حدث بينهما، وفي شوال تقرّرت الموادعة والمهادنة بينه وبين ملك الأفرنج مدّة سنة كاملة، أوّلها شعبان وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية، وكتبتا المواصفة بذلك بعد أن تأكيدها بالأيمان والمواثيق المشدّدة.

قال: وفي العشر الآخر من ذي الحجة غدر الفرنج ونقضوا ما كان استقر من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدّة وافرة من الفرنج في البحر وقوّة شوكتهم بهم، ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس، وقد اجتمع فيها من جشارات الخيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحي الضياع ومواشي الجلابين والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لايحصى فيذكر للحاجة إلى الرعي بها، والسكون إلى الهدنة المستقرّة، ووقع للمندوبين وبحفظها تقصير فانتهزوا الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه، وأقفروا أهله منه مع من أسروه من التركمان وغيرهم وعادوا غانمين ظافرين أمنين، واللّه عادل في حكمه يتولى المكافأة لهم والادالة منهم، وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السنة الآتية.

وفيها توفي القـاضي أبو الفتح محمود بـن اسماعيل بن قادوس، كـاتب الانشـاء بالحضرة المصريـة، وأصلـه من دميـاط، ذكـره العماد الكاتـب في الخريـدة وأثنـى عليـه، ومـن شعره في رجـل كـان يكثـر التكبير في آخـر الصلاة.

وفـاتـر النيـة عنينهـا
مـع كثـرة الـرعـدة والهمـزه
مكبر سبعين في مـرة
كـأنـه صلى على حمزه

وله في وصف كتاب:

مـداده في الطـرس لما بـدا
قبلـه الصـب ومـن يـزهـد
كـأنما قـد حـلّ فيـه اللما
أو ذاب فيـه الحجـر الأسـود

وبلغني أن القـاضي الفاضل كـان يعظمه كثيراً ويسميـه ذا البلاغتين، وهو أحد مـن اشتغل الفاضل عليـه، وكان لايتمكن من اقتبـاس فوائده غـالبا إلاّ في ركـوبه مـن القصر إلى منـزله بمصر، ومـن منزلـه إلى القصر فيسايره الفاضل ويجاريه في فنون الكتابة والآداب والشعر.

قال: وفيها في يوم الثـلاثاء الثالث من ربيع الأوّل مـن هذه السنة توفي الفقيه الزاهد أبـو البيان نبأبن محمد المعروف بـابن الحوراني، وكان حسن الطريقـة مذ نشأ صبيـا إلى أن قضى متدينا نقيـا عفيفا سخيا محباً للعلم والأدب والمطالعة للغـة العرب، وكان له عند خروج سريـره لقبره في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الصحابة مـن الشهداء رضي الله عنهم يوم مشهود من كثرة المتأسفين له والمثنين عليه.

قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزلازل بالشام.

قال أبو يعلى: في ليلة الثاني والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار، وفي الليل ثم جاء بعد ذلك ثلاث دونهنّ بحيث أحصين ست مرات، وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع الناس منها في أوّل النهار وآخره، وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماه بانهدام مواضع كثيرة وانهدام برج من أبراج افامية، بهذه الزلازل المباركة، وذكر أن الذي أحصي عدده منها تقدير الأربعين، وما عرف مثل ذلك في السنين الماضية والأعصار الخالية، وفي التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار وبالليل ثانية في آخره، وفي أوّل شهر رمضان زلزلة مروعة وثانية وثالثة، وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأخرى هائلة أيقظت النيام وروّعت القلوب انتصاف الليل ، وفي ليلة نصف رمضان زلزلة هائلة أعظم مما سبق، وعند الصباح أخرى، وفي الليلة التي تلتها زلزلتان أوّلها وآخرها، وفي اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة، وفي ثاني شوّال زلزلة أعظم مما تقدّم، وفي سابعه وسادس عشره، ، وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه، ودفع اللّه تعالى عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من توالي ذلك وتتابعه برأفته بهم ورحمته لهم، فله الحمد والشكر، لكن وردت الأخبار من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها وانهدام مساكنها، وأما شيزر فإن الكثير من مساكنها انهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير، وأما كفر طاب فهرب أهلها منها خوفاً على أرواحهم، وأمّا حماه فكانت كذلك، وأمّا باقي الأعمال الشامية فما عرف ما حدث فيها من هذه القدرة الباهرة ، واللّه أعلم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلـزلة عظيمة، وتلاها أخرى وكذا في ليلة العشريـن واليوم بعدهـا، وتواصلت الأخبـار من الشام بعظيـم تأثير هذه الزلازل ، وفي ليلـة الخامس والعشرين من جمادى الأولى وافـت أربع زلازل، وضج الناس بـالتهليل والتسبيح والتقديـس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان وترادفت الأخبـار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازل أثـرت في حلـب تـأثيرا أزعـج أهلها وأقلقهـم وكـذا في حمص وهـدمـت مواضـع فيها، وفي حماه وكفـر طاب وأفاميـة ، وهدمت مـا كان بنـي من مهدوم الزلازل، وحكـي أن تيماء أثرت فيها هذه الـزلازل تأثيرا مهولا، وفي رابـع رجب نهاراً وافـت بـدمشـق زلزلـة عظيمـة لم يـر مثلها فيما تقـدّم، ودامـت رجفاتها حتـى خاف النـاس على أنفسهـم ومنازلهم وهـربوا مـن الـدور والسقائف وانـزعجوا وأثـرت في مـواضع كثيرة، ورمـت من فـص الجامع الشيء الكثير الذي يعجـز عن إعادته، ثم وافت عقيبهـا زلزلة في الحال، ثـم سكنتـا بقدرة مـن حـركهـا،ثـم تبـع ذلك في أول ليلـة اليـوم المذكور زلـزلة، وفي وسطـه زلزلة، وفي آخـره زلزلة،وفي ليلـة الجمعة ثـامن رجب زلزلة مهـولة أزعجت الناس ، وتلاها في النصف منهـا ثانية، وعند انبلاج الصبـح ثالثة، وكـذلك في ليلـة السبت وليلة الأحـد وليلة الاثنين، وتتابعت بعـد ذلك بما يطول الشرح ، ووردت الاخبار مـن ناحية الشمال بما يسـوء سماعـه، ويرعـب النفـوس ذكـره بحيث انهدمـت حماه وقلعتهـا وسائر دورها ومنازلها على أهلها مـن الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان، وهم العـدد الكبير والجم الغفير، بحيث لم يسلم منهـم إلاّ القليل اليسير، وأمّا شيزر فـان ربضها سلم الا ما كان خرب أوّلا، وأمّـا حصنها المشهور فإنـه انهدم على واليها تاج الـدولة بن أبي العساكـربن منقذومـن تبعه إلاّ اليسير ممن كان خارجـا، وأمّا حمص فانّ أهلها كانوا قـد قد اختلفوا منها إلى ظـاهرهـا فسلمـوا، وتلفـت مساكنهـم، وتلفـت قلعتهـا، وأمّا حلـب

فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، وكفر طاب وأفامية وما والاها ودنا منها وبعد عنها من الحصون والمعاقل إلى جبلة وجبيل ، وأتلفت سلمية وما اتصل بها إلى ناحية الرحبة وما جاورها،ولولم يدرك العباد والبلاد رحمة اللّه تعالى ولطفه لكان الخطب أفظع، وقد نظم في ذلك من قال:

روّعتنا زلازل حادثات
بقضاء قضاه رب السماء

هدمت حصن شيزر وحماة
أهلكت أهله بسوء القضاء

وبلادا كثيرة وحصونا
وثغورا موثقات البناء

وإذا مارنت عيون إليها
أجرت الدمع عندها بالدماء

وإذا ما قضي من اللّه أمر
سابق في عباده بالمضاء

حار قلب اللبيب فيه ومن كا
ن له فطنة وحسن ذكاء

وتراه مسبحا باكي العيـ
ـن مروعاً من سخطه وبلاء

جل ربي في ملكه وتعالى
عن مقال الجهال والسفهاء

قال: وأما أهل دمشق فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها وأجفلوا من منازلهم والأماكن المسقفة إلى الجامع والاماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى ففتح البلد وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء وأقاموا عدّة ليال وأيام على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم.

قال: وفي الرابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة عظيمة روعت الناس وأزعجتهم لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشام من تتابع الزلازل فيها، ووافت الأخبار من ناحية حلبٰ بأنّ هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجدرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماه أعظم مما كانت في غيرها وأنها هدمت ما كان عمر فيها من بيوت يلتجىء إليها وأنها دامت أياما كثيرة في كل يوم عدّة وافرة من الرجفات الهائلة يتبعها صيحات مختلفات توفي على أصوات الرعود القاصفة المزعجة، فسبحان من له الحكم والأمر، وتلا ذلك ردفات متوالية أخف من غيرهنّ، فلما كانت ليلة السبت العاشر من شوال، وافت زلزلة هائلة بعد صلاة العشاء، الآخرة، أزعجت وأقلقت، وتلاها في إثرها، هزة خفيفة، وكذا في ليلة العاشر من ذي القعدة وفي غدها زلازل ، وليلة الثالث والعشرين والخامس والعشرين منه أيضا زلازل نفرالناس من هولها إلى الجوامع والأماكن المنكشفة، وضجوا بالتكبير والتهليل والتسبيح والدعاء والتضرع إلى الله تعالى، وفي يوم الجمعة انسلاخ ذي القعدة وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس.

قال ابن الأثير: في سنة اثنتين وخمسين كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدها بمدينة حماه وحصن شيزر فإنهما خربا بالمرّة، وكذا ما جاورهما كحصن بارين والمعرّة، وغيرها من البلاد والقرايا، وهلك تحت الهدم من الخلق ما لايحصه إلاّ اللّه تعالى، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، ولولا أن اللّه منّ على المسلمين بنور الدين جمع وحفظ البلاد، وإلاّ كان دخلها الأفرنج بغير حصار ولا قتال.

وقال: ولقد بلغني من كثرة الهلكى أنّ بعض المعلمين بحماه ذكر أنه فارق المكتب لمهمّ فجاءت الزلزلة فأخربت الدور، وسقط المكتب على

الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

قلت: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ابن منقذ، وقال في الزلازل التي أهلكت كثيرا من أهل الشام وكان ابتداؤها في شهر اللّه رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وهلك بها من هلك من الخلق وكان نحوا من عشرة آلاف نسمة، قال وكتب هذا المكتوب والزلازل إلى الآن تتعاهد البلاد:

نمنا عن الموت والمعاد وأصبحـ
ـنا نظن اليقين احلاما
فحركتنا هذي الزلازل أي
تيقظوا كم ينام من ناما(٧٧)

وقال أيضا:

أيها الغافلون عن سكرة المو
ت وإذ لا يسوغ في الحلق ريق
كم إلى كم هذا التشاغل والغفـ
ـلة حار الساري وضل الطريق
إنما هزت الزلازل هذي الـ
ـلارض بالغافلين كي يستفيقوا(٧٨)

وقال في الزلازل أيضا وقد سكن الناس بعد الدور النزهة في أكواخ عملوها بالأخشاب لئلا تهدّها الزلازل:

يا أرحم الراحمين أرحم عبادك من
هذي الزلازل فهي الهلك والعطب
ماجت بهم أرضهم حتى كأنهم
ركاب بحر من الانفاس يضطرب
فنصفهم هلكوا فيها ونصفهم
لمصرع السلف الماضين يرتقب

تعـوّضـــوا مـــن مشيـــدات المنـــازل بـــالـــ
ـــلاكواخ فهـــي قبـــور سقفهـــا خشـــب

كـــأنها سفـــن قـــد أقبلـــت وهـــم
فيهـــا فـــلا ملجـــأ منهـــا ولا هـــرب (٧٩)

وقال: يرثي أهله الذين هلكوا بالزلازل بحصن شيزر قصيدة منها:

مـــا استـــدرج الموت قـــومـــي في هـــلاكهـــم
ولاتخرمهـــم مثنـــى ووحـــدانـــا

فكنـــت اصبر عنهـــم صبر محتســـب
وأحمد الخطـــب فيهـــم عـــز أو هـــانـــا

واقتـــدي بـــالـــورى قبلي فكـــم فقـــدوا
أخـــا وكـــم فـــارقـــوا أهـــلا وجيرانـــا

لكـــن سقـــب المنـــايـــا وسـط جمعهـــم
رغـــا فخـــروا على الاذقـــان اذعـــانـــا

وفـــاجـــأتهم مـــن الأيـــام قـــارعـــة
سقتهـــم بكـــؤوس الموت ذيفـــانـــا

مـــاتـــوا جميعـــا كرجـــع الطـــرف وانقـــرضـــوا
هـــل مـــا تـــرى تـــارك الحين إنســـانـــا

اعـــزز علـــي بهم مـــن معشر صبروا
على الحفيظـــة إن ذو لـــوثـــة لانـــا

لم يترك الـــدهـــر لي مـــن بعـــد فقـــدهـــم
قلبـــا أجشمـــه صبرا وسلـــوانـــا

فلـــو رأوني لقـــالـــوا مـــات أسعـــدنـــا
وعـــاش للهـــم والاحـــزان اشقـــانـــا

لم يترك الموت منهـــم مـــن يخبرني
عنهـــم فيـــوضـــح مـــا قـــالـــوه تبيـــانـــا

بـــادوا جميعـــا ومـــا شـــادوا فـــواعجبـــا
للخطـــب أهلـــك عمارا وعمـــرانـــا

هـذي قصورهم أمست قبورهم
كذاك كانوا بها من قبل سكانا

ويح الزلازل أفنت معشري فإذا
ذكرتهم خلتني في القوم سكرانا

لا ألتقي الدهر من بعد الزلازل ما
حييت إلا كسير القلب حيرانا

أخنت على معشري الادنين فاصطلمت
منهم كهولا وشبانا وولدانا

لم يحمهم حصنهم منها ولا رهبت
بأسا تناذرة الأقران أزمانا

إن اقفرت شيزر منهم فهم جعلوا
منيع أسوارها بيضا وخرصانا

هم حموها فلو شاهدتهم وهم
بها لشاهدت آسادا وخفانا

تراهم في الورى أسد ويوم ندى
غيثا مغيثا وفي الظلماء رهبانا

بنو أبي وبنو عمي دمي دمهم
وإن أروني مناواة وشنأنا

يطيب النفس عنهم انهم رحلوا
وخلفوني على الاثار عجلانا(٨٠)

وكتب إليه الصالح بن رزيك قصيدة يعزيه عن أهله منها:

بأبي شخصك الذي لا يغيب
عن عياني فهو البعيد القريب

يا أخلاي بالشام إن غبـ
ـتم فشوقي إليكم لا يغيب

غصبتنا الايام قربكم منـ
ـا ولا بد أن تردّ الغصوب

كـــــره الشــــــام أهلـــــه فهـــــو محقـــــو
ق بـــــأن لا يقيـــــم فيـــــه لبيـــــب

إن تجلـــــت عنـــــه الحروب قليـــــلا
خلفتهـــــا زلازل وخطـــــوب
رقصـــت أرضـــه عشيـــة غنـــى الـــ
ـــرعد في الجوّ والكـــريـــم طـــروب
وتثنـــت حيطـــانـــه إذا مـــالتـــ
ـــها شمال بـــزمـــرهـــا وجنـــوب
لا هبـــوب لنـــائم مـــن أمـــانيـــ
ـــه وللعـــاصفـــات فيهـــا هبـــوب
وأرى البرق شـــامتـــا ضـــاحـــك الســـ
ـــن وللجـــوّ بـــالغمام قطـــوب
ذكـــروا أنـــه يـــذوب بـــه السحـــ
ـــب فما للصخـــور أيضـــا تـــذوب
أبـــذنـــب أصـــابها قـــدر اللـــ
ـــه فللأرض كـــالأنـــام ذنـــوب
إن ظنـــي والظـــن مثـــل سهـــام الـــ
ـــرمي منهـــا المخطـــى ومنهـــا المصيـــب
إن هـــذا الآن غـــدت ســـاحـــة القـــد
س ومـــا لـــلاســـلام فيهـــا نصيـــب
منـــزل الـــوحـــي قبـــل بعـــث رســـول اللـــ
ـــه فهـــو المحجـــوج والمحجـــوب
نـــزلـــت وسطـــه الخنـــازيـــر والخمـــ
ـــر وبـــارى النـــاقـــوس فيـــه الصليـــب
لـــو رآه المسيـــح لم يـــرض فعـــلا
ذكـــروا أنـــه لـــه منســـوب
لهف نفسي على ديـــار مـــن السكـــ
ـــان أقـــوت فليـــس فيهـــا مجيـــب

أن تخصيصكم نوائب مازا
لت لكم دون من سواكم تنوب

أبعد الناس عن عبادة رب النـ
ـاس قوم إلههم مصلوب

فاحتسب ما أصاب قومك مجد
الدين واصبر فالحادثات ضروب
فكذاك القناة يكسر يوم الـ
ـروع منها صدر وتبقي الكعوب

وقرأت في ديوان العرقلة كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عبيد غلام المولى، وكان عبيد هذا موصوفا بالثقل في بيت بمدينة حماه يوم الزلزلة فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذي هما فيه، فقال العرقلة:

قل لصلاح الدين رب الندى
بلغ عبيدا كل ما أمله
بثقله لما تصاحبتما
سلمك اللّه من الزلزلة

قرأت في بعض كتب أبي الحسين الرازي عن شيوخه أنه وقع بدمشق في ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمة، حكى عنها نحو مما مضى ذكره، وأكثر ، نسأل اللّه تعالى تمام العافية.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: في ثالث عشر ربيع الأوّل توجه نور الدين إلى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها، وتقرير أمر المستحفظين لها، وتواصلت الأخبار من ناحية حمص وحماه باغارة الفرنج الملاعين على تلك الأعمال،

وفي خامس عشر ربيع الأوّل ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بأن ناصر الدين أمير أميران لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتقويتها، أسرع النهضة إليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس، وقد خرج إليهم من كان فيها من حماتها فأوقع بهم، وقد كان كمن لهم في مواضع كمناء من شجعان الأتراك ، واندفع المسلمون بين أيديهم في أوّل المجال ، وظهر عليهم الكمناء فأنزل اللّه نصره على المسلمين، بحيث لم ينج منهم إلا القليل ، وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لا يحد كثرة، ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الأفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين إليهم، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوما مشهوداً، وأنفذ نور الدين إلى بعلبك جماعة من أسرى المشركين، فأمر بضرب أعناقهم صبراً.

قال: وتبع هذا الفتح ورود البشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنه قد ظفر من المشركين بسرية وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال فانهزمت ، وتخطف التركمان منهم من ظفروا به،

قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدّمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجم الغفير، واجتمعوا بنور الدين وتقرّرت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها، والابتداء بالنزول على بانياس، وقدم نور الدين دمشق في إخراج آلات الحروب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياما يسيرة ويتوجه، وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين، فتبعه من الأحداث والمطوّعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأوّل، وفي

سابع ربيع الآخر عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس يتضمن كتابه الاعلام بورود المبشر من معسكر أسد الدين بناحية هونين في التركمان والعرب، بأنّ الافرنج خذلهم اللّه تعالى أنهضوا سرّية من أعيان مقدّميهم وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم لكبس المذكورين ظنا منهم بأنهم في قل، ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنوا منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب، ولم يبق منهم إلاّ اليسير، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبة والطوارق والقنطاريات إلى دمشق، وطيف بهم فيه يوم الإثنين تالي اليوم المذكور.

قال: وتلا هذه الموهبة المتجدّدة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهرا على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور عند تناهي النقب وإطلاق النار فيه وسقوط البرج المنقوب، وهجوم الرجال فيه وبذل السيف في قتل من فيه ونهب ما حواه، وانهزام من سلم إلى القلعة وانحصارهم بها، وأن أخذهم بمشيئة اللّه تعالى لايبطىء، والله يسهله ويعجله.

قال: واتفق بعد ذلك أن الفرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة باتياس، وقد أشرفوا على الهلاك وبادروا وبالغوا في السؤال لنور الدين الأمان ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وماحوته لينجوا سالمين، فلم يجبهم إلى ما سألوه ورغبوافيه، فلما وصل ملك الأفرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازل على بانياس لحصارها، والنازل على الطريق لمنع الواصل إليها، اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستخلصوا من كان فيها،

وحين شاهدوا ماعم بانياس من إخراب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى سقطت الاطيار بالكتب من المعسكر النوري تتضمن الاعلام بأنّ الملك العادل نور الدين أعز الله نصره لما عرف أنّ معسكر الكفرة الأفرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس، نهض في عسكره المنصور، من الاتراك و العرب، وجدّ في السير فلما شارفهم وهم غارون وشاهدوا راياته قد اظلتهم بادروا بلبس السلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين فترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحمام، فأنزل اللّه نصره على المسلمين وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسرا، واستأصلت السيوف الرجالة ، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم لعنه اللّه فيهم، وقيل إنه في جملة القتلى، ولم يعرف له خبر، ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين، وقتل عند حضور أجله إلى رحمة الله، والآخر غريب لايعرف، وكل منهما مضى شهيدا مثابا مأجورا رحمهما الله، وقتل أربعة من شجعان الكفرة، وامتلأت أيدى العساكر من خيولهم وعددهم وكراعهم وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحا مبينا ونصراً عزيزاً، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عدّة، والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرس، وعليه الزردية والخوذة، وفي يده راية، والرجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لايحصى لهم من عدد:الشيوخ والشبان والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المبين وأكثروا شكر الله تعالى والدعاء لنور الدين المحامي

عنهم المرامي دونهم، والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنة ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى:

مــــارأينــــا فيما تقــــدّم يــــومــــا
كــــامــــل الحســــن غــــايــــة في البهــــاء

مثــــل يــــوم الفــــرنــــج حين علتهــــم
ذلــــة الاسر والبــــلا والفنــــاء

وبــــرايــــاتهم على العيــــس زفــــوا
بين ذلّ وحسرة وعنــــاء

بعــــد عــــزلهم وهيبــــة ذكــــر
في مصــــاف الحروب والهيجــــاء

هكــــذا هكــــذا هــــلاك الأعــــادي
عنــــد شــــنّ الاغــــارة الشعــــواء

شــــؤم أخــــذ الجشــــار كــــان وبــــالا
عمهــــم في صبــــاحهــــم والمســــاء

نقضــــوا هــــدنــــة الصــــلاح بجهــــل
بعــــد تــــأكيــــدهــــا بحســــن الــــوفــــاء

فلقــــوا بغيهــــم بما كــــان منهــــم
مــــن فســــاد بجهلهــــم واعتــــداء

لاحمى اللّــــه شملهــــم مــــن شتــــات
بمــــواض تفــــوق حــــدّ المضــــاء

فجــــزاء الكفــــور قتــــل وأسر
وجــــزاء الشكــــور خير الجزاء

ولــــرب العبــــاد حمد وشكــــر
دائم مــــع تــــواصــــل النعماء

قال: وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملكها وتدويخها، والله المعين والموفق.

وقـال ابن أبي طـي: في سنـة اثنتين وخمسين أغـارت الفرنـج على بلـد حمص وحماة، وأفسدوا وأكثـروا العيث، واتصل ذلـك بنور الديـن فأنهض إليهـم عسكرا كثيفـا فأوقـع بهم وهزمهـم إلى أرض بانيـاس، وخرج نـور الديـن حتى نـزل على بانيـاس وحاصرهـا أشدّ حصـار حتى افتتحهـا في الثامن والعشرين من ربيع الأوّل، وأخذ جميـع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمـة والأسارى مـع أسد الـدين إلى دمشـق، وأنفذ معـه مقدار ألـف رأس، واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معـارضة أسد الدين قطعة من خيالتها ، واتصل هذا بأسد الديـن وقد دهمته الفرنج فلبس لأمته، وتقدّم في جماعـة من ممـاليكه بين يـــدي العسكر، وأمـر الـرجال بلقـاء الفرنـج وناجـزهم الحرب فلم يتماسكـوا بين يديـه ورجعوا على أدبارهـم، وتبعـهم مقـدار فـرسخين يقتـل ويـأسر، وغنـم منهـم غنيمـة حسنـة ، وعـاد إلى أصحابه ظافراً، وتــوجه في وجهته مؤيدا.

فصل

قال الـرئيس أبـو يعلى: وفي الثاني عشر مـن جمادى الآخرة، تـواصلت الأخبار بوصـول ولد السلطان مسعود في خلق كثير للنـزول على أنطاكية، وأوجبت الصورة تقـرير المهادنة بين نـور الدين وملك الأفـرنج، وتكرّرت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشـاجرات بحيث فسد الأمـر، ولم يستقرّ على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقرّ عزه في بعض عسكره، وأقر باقيه ومقدّميه مع العرب بازاء أعمال المشركين.

قـال: وفي ثالـث رجب تـوجه نـور الـدين إلى نـاحية حلـب وأعمالها، لتجديد مشاهدتها، وإمعان النظر في حمايتهـا عندما عاث المشركون فيها، وقربت عســاكر الملك ابن مسعود منهـا ثم قال بعد ذلك: قـد تقدّم من ذكر نور الديـن ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بـلاد الشأم عند إنتهاء الخبر إليـه بتجمع أحـزاب الفرنـج خـذلهم اللّٰه وقصـدهم لها وطمعهـم

بحكم ما حدث من الزلازل والرجفات المتتابعة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثغورها لحمايتها والذب عنها، وايناس من سلم من أهل حمص وشيزر وكفر طاب وحماه وغيرها، بحيث اجتمع إليه، العدد الكثير والجم الغفير من رجال المعاقل والأعمال والتركمان، وخيم بهم بازاء جمع الفرنج بالقرب من أنطاكية، وحصرهم بحيث لم يقدر فارس منهم على الإقدام على الفساد، فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد، فلما اشتد به وخاف منه على نفسه، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين شيركوه، وأعيان الأمراء والمقدّمين وأوصى إليهم بما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرّر معهم كون أخيه نصرة الدين القائم في منصبه من بعده، والساد لثلمة فقده، لاشتهاره بالشهامة ، وشدّة البأس، ويكون مقيما بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة، فلما تقرّرت اشتدّ به المرض فتوجه في محفة إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها، من فساد الأفرنج، وتواصلت الأراجيف بنور الدين فقلقت النفوس، وازعجت القلوب فتفرّقت جموع المسلمين واضطربت الأعمال وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهجموها وحصلوا فيها، فقتلوا وأسروا ونهبوا، وتجمع من عدّة جهات خلق كثير من رجال الاسماعيلة وغيرهم وظهروا عليهم ، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزر، واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب، فأغلق والي القلعة مجد الدين في وجهه الأبواب وعصى عليه، فثارت أحداث حلب وقالوا : هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه،فزحفوا في السلاح إلى باب البلد وكسروا أغلاقه، ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد وقامت الأحداث على والي القلعة باللوم والانكار والوعيد واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها إعادة رسمهم في التأذين بحي على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسن القول لهم والوعد ونزل في داره، وأنفذ والي القلعة إليه وإلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حيّ في نفسه، وما

كان إلى ما فعل حاجة، فقيل: الذنب في ذلك للوالي، وصعد إلى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهم ما يقول وما يقال له، فأنكر ما جرى وقال: أنا أصفح للاحداث عن هذا الخطل ولا أؤاخذهم بالزلل، وما طلبوا إلاّ صلاح حال أخي وولي عهدي من بعدي، وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته، فأنست القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتزايدت العافية، وصرفت الهمم إلى مكاتبات المقدّمين بالعود إلى جهاد الملاعين، وكان نصرة الدين قد ولي مدينة حران وما أضيف إليها وتوجه نحوها، ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الاسلامية للجهاد سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب ووصل إليها في خيله، فاجتمع بنور الدين، فأكرم لقياه وشكر مسعاه وشرعوا في حماية الأعمال من شرّ عصب الكفر والضلال.

قال: ونظمت هذه الأبيات في هذا المعنى:

لقد حسنت صفاتك يا زماني
وفزت بما رجوت من الأماني
فكم أصبحت مرتاعا لخوف
فبدلت المخافة بالأمان
وجاءتنا أراجيف بملك
عظيم الشأن مسعود الزمان
فروّعت القلوب من البرايا
وصار شجاعها مثل الجبان
وثارت فتنة تخشى أذاها
على الاسلام في قاص ودان
ووافى بعد ذاك بشير صدق
بعافية المليك مع التهاني
فولى الخوف منهدم المباني
وعاد الأمن معمور المغاني

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شيزر، فخرج نور الدين وأخذها من بني منقذ، وسلمها إلى مجد الدين بن الداية، وسار إلى سرمين، لأنه بلغه حركة الفرنج فاعترضه هناك مرض أشفى منه ، فأحضر شيركوه وأوصاه بالعساكر وأن يكون الأمر بعده لأخيه نصرة الدين أمير ميران، ، فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام بمرج الصفرخوفا أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين، فغاد إلى خدمته مهنئا بالعافية، وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مدّة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضه سيره إلى حران، وجعل ولي عهده أخاه قطب الدين صاحب الموصل.

قال: وكان مجد الدين طمع في الملك لنفسه فتحزم لامره وتقرب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار ، وشحن الطرقات والسبل بالرجال بتفتيش الخارجين من خلب وغيرها، والداخلين إليها.

قلت: ولابن منير تهنئة لنور الدين من مرض غير هذا:

يا شمس لاكسف ولاتكدار ... ولاخلت من نورك الانوار

البدر منقوص وأنت كامل ... لك السرايا وله السرار

برؤك للاسلام من أدوائه ... برو في اعدائه بوار

ما أنت إلّا السيف صد صدأ ... عن متنه مضربه البتار

لو كان محمولا أذى عن منفس ... لحملته دونك الابصار

ولو فدت أرض السماء ساقت الـ ... ـملوك في فدائك الامصار

أنــت غيــاث محلهــم إن أجــدبــوا
وخيرهــــم إن ذكــــر الخيـــار
وفي سريـــرا الملـــك منهـــا ملـــك
للّـــــــــــه في سرائه اسرار
خير ملـــوك الأرض جـــداً وأبـــا
إن هـــز عطفـــي مـــاجـــد نجـــار
مـــد على الـــديـــن رواق دولـــة
تنـــازعـــت أسمارهـــا السمار
علـــت بنـــايـــاه وحلـــت في يـــده
فهـــني عليـــه الســـور والســـوار
محمـــود المحمـــود عصر ملكـــه
فللحيـــامـــن مـــزنـــه اعتصـــار
يـــانـــور ديـــن أظلمـــت آفـــاقـــه
لـــولم تبلـــج هـــذه الاثـــار
للّـــه أيـــامـــك مـــا تخطـــه
بـــا لمســـك مـــن اسفـــارهـــا الاسفـــار
سلمـــت لـــلاســـلام تـــرعـــى سرحـــه
إذاونـــى رعـــاتـــه وجـــاروا
شكـــوت فـــالـــدنيـــا على سكـــانها
قـــرارة جـــانبهـــا القـــرار
كـــادت تموت الأرض مـــن اشفـــاقهـــا
لـــولا شفـــاء ردّهـــا تمار
زرّت عليـــك الترك حبيـــب نســـب
يحســـدهـــا بـــزيـــه نـــزار
لاعـــدمـــت منـــك الأمـــاني ريها
معطـــى مـــن الاقبـــال مـــا تختـــار
مـــاسمـــح الـــدهـــر بـــان تبقـــى لنـــا
فكـــل جـــرح مسنـــا جبـــار

وله من قصيدة أخرى

لا نـؤدي لانعـم اللّـه شكـرا
بـك يـا أعظـم البريـة قـدرا
زور عشر وافى لاقـلاع ذا
جعـلا المنـة المنـاة عشرا
أم مغنـاك ضـامنـا أن أيـا
مـك تفنـي الأحقـاب عصرا فعصرا
في محل لـه السماكـان سمـك
وجـدود لها المجـرة مجرى
أيها العـادل المظفـر لاقـ
ـصت شبا الـدهر مـن شبـاتـك ظفـرا
جعـل اللّـه مـا استهـل مـن الأشـ
ـهرينهـل في مغـازيـك نصرا
أبـدا ينشر التهـاني على سـا
حتـك الـزهـر في المواسـم نشرا
أنـت أسرى الملـوك نفسـا وقنسـا(٨١)
وإلى أسرهـم مـن الطيـف اسرى
ملـك عنـده المشـارب تستمـ
ـري واخـلاف الجود تمرى فتفـرى
فلـك اللّـه مـن مثمـر بـذر
يصطفـي صـالحا ويحصـد أجـرا
عـش لملـك أصبحـت في الـدسـت منـه
فـوق كسرى عـدلا وشعبـا وكسرا
تفطـر الطيبـات للفطـر فطـرا
وتعـم الاعـداء في النحـر نحـرا
يقتنـي مـن كسـاك أنفـس ملبـو
س ويقنيـك منـه أطـول عمـرا

أنـــت تملي ونحـــن ننظـــم مـــا تنـــ
ـــشره الغـــر مـــن مســاعيــك نثـــرا
صرف اللّـــه عنـــك عين زمـــان
بـــك صـــارت بعـــد الاصـــابـــة عبرى
وتـــوالـــت لـــك الفتـــوح إلى أن
تملا الخافقين نهيـــا وأمـــرا
كلما انهجـــت مـــلابـــس نعمـــى
وتمليتهـــن جـــدّدت أخـــرى

وقال القيسراني من قصيدة:

أشرق البـــدر يـــا جبين الهلال
فجـــلاه لـــوجهـــك المتـــلالي
عـــن ليـــال حجبـــن عنـــا سنـــاهـــا
إنما غيبـــة الهلال ليـــالي
لم يكـــن مـــا ألم يـــا نجـــم شكـــوى
فتهنـــى لـــوافـــد الاقبـــال
لا ولا كـــان زائرا مـــن سقـــام
إنما كـــان طـــائفـــا مـــن خيـــال
وعكـــة أقلعـــت وأنـــت صحيـــح
ويصـــح النسيـــم بـــالاعتـــلال
أو مـــا هـــذه السماء سرار الـــ
ـــبدر فيهـــا على طـــريـــق الكمال
نعمـــة اللّـــه لا يخص بها الخا
لـــق الا مـــن كـــان منـــه ببـــال
ولبـــاس مـــن المثـــوبـــة والغفـــ
ـــران ألبســـت صـــافي الاذيـــال
فهنيئـــا لـــك البقـــاء وإن كـــا
ن هنـــاء يخص فيـــه المعـــالي

والتقـــى والنـــدى ومعــــربـــة الخيــــ
ــــل وبيــض الظبـــى وسمــر العـــوالي

والخلال التـــــي إذا مــــا تجلـــت
صـــدرت منـــك عـــن كـــريـــم الخلال
إن وقتـــك النفـــوس مـــا تتـــوقـــى
فحقيـــــق فـــــدى الموالي الموالي
أو تحصنـــت في شعـــار مـــن التقـــ
ــوى فما زلـــت منـــه في سربـــال
فشفـــى اللّـــه مـــن أجـــل دوائـــ
ــيه صريـــح الـــدعـــاء والابتهـــال
ملكـــا أبـــدل المخـــافـــة بـــالامـــ
ــن وأضحـــى يعـــدّ في الابـــدال
وهـــو تـــاج الملـــوك فـــا الملـــك العـــا
طـــل حـــال بـــه على كـــل حـــال
وإذا النيران غـــابـــا فنـــور الـــديـــ
ــن شمـــس فجـــرتـــه الاصـــال
قـــد أرت وجهـــك العلى مـــا يـــريها
وهـــي مـــرآة صـــالـــح الأعمال
وقضـــى اللّـــه أن نجمـــك في الأنجـــ
ــم ســـام وأن جـــدّك عـــال
كـــل يـــوم هـــذا المحيـــا محيـــى
بـــالتهـــاني على يـــد الاقبـــال

فصل

في ذكر حصن شيزر وولاية بني منقذ

قال ابن الأثير: وهو حصن قريب من حماه بينهما نحو من نصف نهار، وهـو من أمنـع القلاع وأحصنهـا على حجر عـال ، له طـريق منقـور في طرف الجبل، وقـد قطع الطريق في وسطه وجعل عليـه جسر من خشب، فـإذا قطع ذلـك الجسر تعـذر الصعود إليـه، وكـان لآل منقذ الكنـانيين يتوارثـونه من أيـام صالح بـن مرداس إلى أن انتهى الأمـر إلى الأمير أبى المرهف نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقـذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي، فبقـي به مدّة طويلة إلى أن مات بشيـزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وكان شجـاعا كـريما صوامـا قوامـا، فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبـا سلامة مرشـد بن علي وهو والد أسـامة، فقال: واللّـه لا وليتها ولأخـرجـن من الـدنيـا كما دخلتها، وكـان عـالما بالقـرآن والأدب ، كثير الصلاح، فولاهـا أخاه أبا العساكر سلطـان بن علي، وكان أصغر منه فاصطحبا أجمل صحبة مدّة من الزمـان، فولد أبو سلامة مرشد عدّة أولاد ذكور فكبروا وسـادوا منهم: عز الدولة أبو الحسـن علي، ومؤيد الدولة أسـامة بن مرشـد وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطـان ولد ذكر إلى أن كبر فجـاءه أولاد ، فحسـد أخاه على ذلـك، فكـان كلما رأى صغـر أولاد أخيه وسيـادتهم ساءه ذلك وخـافهم على أولاده، وسعـى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيـه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيـه شعراً يعـاتبه على أشياء بلغته عنـه، فأجابه بأبيـات جيدة في معناها، وكلهـم كان أديبا شاعراً فمنها:

ظلــــوم أبـــــت في الظلـــــم إلاّ تماديـــــا
وفي الصــــدّ والهجــــران إلاّ تنــــاهيـــــا
شكــــت هجــــرنـــا في ذاك والـــذنـــب ذنبهـــا
فيـــاعجبـــا مـــن ظـــالم جـــاء شـــاكيـــا

وطـــاوعــــت الــــواشين في وطـــالما
عصيـــت عـــذولاً في هـــواهـــا وواشيـــا
ومـــــال بهاتيـــــه الجمال إلى القـــــلا
وهيهـــات أن أمسي لها الـــدهـــر قـــاليـــا
ولا نـــاسيـــا مـــا أودعـــت مـــن عهـــودهـــا
وإن هـــي أبـــدت جفـــوة وتنـــاسيـــا
ولما أتـــاني مـــن قـــريضـــك جـــوهـــر
جمعـــت المعـــالي فيـــه لي والمعـــانيـــا
وكنـــت هجـــرت الشعـــر حينـــا لأنـــه
تـــولى بـــرغمـــي حين ولى شبـــابيـــا
وأيـــن مـــن الستين لفـــظ مفـــوف
إذا رمـــت أدنـــى القـــول منـــه عصـــانيـــا
وقلـــت أخـــي يـــرعـــى بنـــي واسرتي
ويحفـــظ عهـــدي فيهـــم وذمـــاميـــا
ويجزيهم مـــا لم أكلفـــــه فعلـــــه
لنفسي فقـــد أعـــددتـــه مـــن تـــراثيـــا
فمالـــك لما أن حنـــى الـــدهـــر صعـــدتـــى
وثلـــم منـــي صـــارمـــا كـــان مـــاضيـــا
تنكـــرت حتـــى صـــار بـــرك قســـوة
وقـــربـــك منـــي جفـــوة وتنـــائيـــا
فـــأصبحـــت صفـــر الكـــف مما رجـــوتـــه
كـــذا اليـــأس قـــد عفـــى سبيـــل رجـــائيـــا
على أننـــي مـــا حلـــت عما عهـــدتـــه
ولا غيرت هــــذي السنـــــون ودادیـــــا
فـــلا غـــرو عنـــد الحادثـــات فـــإننـــي
أراك يمينـــــى والانـــــام شماليــــــا
تهن بها عـــــذراء لـــــو قـــــرنـــت بها
نجـــوم سماء لم تعـــــد دراريــــا

تحلت بـدر مـن صفـاتـك زانها
كما زان منظـوم اللآلي الغـوانيا
وعـش بـانيـا للجـود مـاكـان واهنـا
مشيـداً مـن الاحسـان مـاكـان واهيـا

قـال: وكان الأمـر فيه في حيـاة الأمير مرشـد، بعض الستر فلما مـات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخـوه لأولاده ظهر المجن وباداهم بما يسوءهم ، وتمادت الأيـام بينهم إلى أن قوي عليهم، فأخرجهـم من شيزر، وكان أعظم الاسباب في إخراجهـم ما حدثت به عن مؤيد الـدولة أسامة ابن مرشد، قـال: كنت من الشجاعة والاقدام على مـا علمه الناس، فبينا أنا بشيـزر، وإذا قد أتاني إنسان أخبرني أن بـدحلة بغار بها أسد ضـاريا، فركبـت فرسي وأخـذت سيفي وسرت إليـه لأقتله، ولم أعلـم أحداً مـن الناس لئلا أمنع من ذلك، فلما قربت مـن الأسد نزلت عن فرسي وربطته ومشيـت نحـوه، فلما رآني قصـدني، ووثب فضربتـه بـالسيـف على رأسـه فانفلق، ثـم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاه فـرسي وعدت إلى شيزر، ودخلت على والـدتي وألقيت الرأس بين يـديها وحدثتها الحال، فقـالـت : يابنـي تجهز للخـروج من شيـزر، فواللّـه لايمكنك عمـك من المقـام ولا أحداً مـن أخوتـك وأنتم على هـذه الحال من الاقـدام والجرأة ، فلما كان الغد أمر عمي باخراجنا من عنده وألـزمنا به إلزاما لامهلة فيه، فتفرّقنا في البلاد، فقصدوا الملك العادل نور الديـن وشكوا إليه ما لقوا من عمهـم ، فلـم يمكنه قصـده ولا الأخـذ بثأرهـم وإعـادتهم إلى أوطـانهم لاشتغالـه بجهاد الفـرنج ولخوفه مـن أن تسلم شيـزر إلى الفرنج، وبقـي في نفسه، وتوفي الأمير سلطـان وولي بعده أولاده، فبلـغ نور الـدين عنهـم مراسلـة الفـرنج، فـاشتدّ مـا في نفسه، وهـو ينتظر الفـرصة، فلما خـربت القلعـة بالـزلزلة ولم يسلم منهـا أحد كان بالحصـن، فبادر إليها وملكها وأضـافها إلى بلاده وعمـرها وأسـوارها وأعادهـا كأن لم تخرب، وكـذلك أيضـا فعل

بمدينة حماه وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

قلت: وسيأتي ذكر اسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين، وهي السنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق، وذلك أنه لما خرج من شيزر استوطن دمشق، ثم فارقها إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين الدين أنر أتابك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدة أوّلها:

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مر يوما بفكري ما يريبهم
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعت لهم عهدا ولا أطلعت
على ودائعهم في صدري التهم
فليت شعري بم استوجبت هجرهم
ملوا فصدّهم عن وصلي السأم
حفظت ما ضيعوا أغضيت حين جنوا
وفيت إذ غدروا واصلت إذ صرموا
حرمت ما كنت أرجو من ودادهم
ما الرزق إلا الذي يجري به القسم
وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا القلت هم
لهم مجال الكرى من مقلتي ومن
قلبي محل المنى جاروا أو اجترموا
تبدّلوا بي ولا ابغي بهم بدلا
حسبي هم انصفوا في الحكم أو ظلموا
بلغ أميري معين الدين مألكة
من نازح الدار لكن ودّه أمم
وقل له أنت خير الترك فضلك الـ
ـحياء والدين والاقدام والكرم

هــــلاّ انفـــت حيـــاء أو محافظـــة
مــن فعــل مــا انكــرتــه العــرب والعجــم
اسلمتنــــا وسيــــوف الهنــــد مغمــــدة
ولم يـــــروّ سنــــــان السمهـــــري دم
وكنــت أحســب مـــن والاك في حـــرم
لا يعتريـــــه بـــــه شيـــــب ولا هـــــرم
ومــا طُمان بــأولى مــن أســامــة بــالـــ
ـــوفاء لكـــن جـــرى ابالكائن القلـــم
هبنــا جنينــا ذنــوبــاً لا يكفــرهــا
عـــذر فما ذا جنـــى الأطفـــال والحرم
القيتهـــم في رضـــى الأفـــرنـــج متبعـــاً
رضـــى عـــدى يسخـــط الـــرحمن فعلهـــم
جـــرّبهم مثـــل تجريبـــي لتخبرهـــم
فللـــرجـــال إذا مـــا جـــربـــوا قيـــم(٨٢)

وهي طـويلة، وطُمان المذكـور خادم تركـي كان لأتـابك ملـك الأمراء زنكي بن أق سنقر، هرب من خدمتـه إلى دمشق فطلبه ولج فيه، فاشتمل عليه معين الدين للجنسية وحماه، فلما لـج فيه سيره إلى العرب وقام له بما يحتاج إلى أن ردّه لخدمتـه بدمشق، وبقـي أسامة بمصر إلى أن خـرج منها مع عبـاس كما سبق ذكـره، وأسر الفر نـج أخاه نجـم الدولـة محمد بـن مرشد، وطلب من ابن عمه ناصر الـدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الاعانـة في فكاكه، فلـم يفعل ، قال: وادّخـر الله سبحـانه أجر خـلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه اللّـه فوهبه فارساً من مقدمي الـداويـة يقال لـه المشطـوب، قـد بـذل الافـرنج فيـه عشرة آلاف دينـار فاستخلـص به أخاه مـن الأسر، وبلغ أسامـة أن القاضي كمال الديـن بن الشهزوري أنشد نور الدين:

ملـــك بنـــي منقـــذ تـــولى
وكــــان فــــوق السماك سمكـــــه

فـــــاعتبروا وانظـــــروا وقـــــولـــــوا
سبحـــــان مـــــن لا يـــــزول ملكـــــه

والمعروف ملك بني برمك فغيره المنشد لما تمثل به في غرضه فأجازهما أسامة بهذه الأبيات:

وكـــــل ملـــــك إلى زوال
لا يعتري ذا اليقين شكـــــه
إن لم يـــــزل بـــــانتقـــــال حـــــال
أزال ذا الملـــــك عنـــــه هلكـــــه
واللّـــــه رب العبـــــاد بـــــاق
وهـــــالـــــك نـــــده وشركـــــه
فقـــــل لمن يظلـــــم البرايـــــا
غـــــرك امهـــــالـــــه وتـــــركـــــه
تنســـــى ذنـــــوبـــــا عليـــــك تحصـــــى
يحصرهـــــا نقـــــده وحكمـــــه
كـــــم نـــــاســـــك نسكـــــه ريـــــاء
أو بقـــــه في المعـــــاد نسكـــــه
فـــــاحـــــذر فما يختفـــــي عليـــــه
مـــــن عنـــــده صـــــدقـــــه وافكـــــه

وما أحسن ما قال أسامة في كبره:

مـــع الثمانين عـــاث الضعـــف في جلـــدي
وســـاءني ضعـــف رجلي واضطـــراب يـــدي
إذا كتبـــت فخطـــي خـــط مضطـــرب
كخـــط مـــرتعـــش الكفين مـــرتعـــد
فـــاعجـــب لضعـــف يـــدي عـــن حملهـــا قلما
مـــن بعـــد حطـــم القنـــا في لبـــة الأســـد
و إن مشيـــت وفي كفـــي العصـــا ثقلـــت
رجلي كـــأني أخـــوض الـــوحـــل في الجلـــد

فقـــل لمن يتمنـــى طـــول مـــدتـــه
هـــذي عـــواقـــب طـــول العمـــر والمدد (٨٣)

فصل

في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: تناصرت الأخبار بظهور أمير المؤمنين المقتفي على عسكر السلطان المخالف لأمره ومن انضم إليه من عسكر الموصل وغيره بحيث قتل العدد الكثير، ورحلوا عن بغداد مفرقين مفلولين خاسرين بعد المضايقة والتناهي في المحاصرة والمصابرة.

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجب بوفاة السلطان غياث الدين أبي الحارث سنجر بن أبي الفتح بن ألب أرسلان، سلطان خراسان، عقيب خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي حصل فيه، وكان يحب العدل والانصاف للرعايا وحسن السيرة ، جميل الفعل، وقد علت سنة وطال عمره، وكان قد ورد كتابه في أواخر صفر من هذه السنة إلى نور الدين بالتشوق إليه والإحماد لخلاله، وما ينتهي إليه من جميل أفعاله، وإعلامه ما منّ الله عليه به من خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي بلي به في أيدي الأعداء الكفرة من ملوك التركمان، ، بحيلة دبرها وسياسة أحكمها وقررها، بحيث عاد إلى منصبه من السلطنة المشهورة واجتماع العساكر المتفرقة عنه إليه.

قال: وفيها في شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الشيخ مخلص الدين أبي البركات عبد القاهر بن أبي جرادة الحلبي، وهو الأمين على خزائن مال نور الدين، وكان كاتبا بليغا حسن البلاغة نظما ونثرا مستحسن الفنون من التذهيب البديع وحسن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة، مع صفاء الذهن، وتوقد الفطنة والذكاء.

قال: وفي رابع عشر شوال ورد الخبر من ناحية بصرى بأن واليها فخر الدين سرخاك قتل غيلة بموافقة من أعيان خاصته، وكان فيه إفراط في التحرز واستعمال التيقظ، ولكن القضاء لايغالب ولايدافع.

قال: وفيها في أوائل ذي القعدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير الملقب بصلاح الدين، وكان في أيام شبيبته قد حظي في خدمة عماد الدين زنكي وتقدم عنده بالمناصحة وسداد التدبير، وحسن السفارة، وصواب الرأي، ولما علت سنة ضعف عن ركوب الخيل وألجأته الضرورة إلى الحمل في المحفة لتقرير الأحوال، والنظر في الأعمال ولم ينقص من حسه وفهمه ما ينكر عليه إلى حين وفاته، وخلفه من بعده أولاده في منصبه وولايته.

قال: وورد إلى دمشق إمام من أئمة فقهاء بلخ في عنفوان شبابه وغضارة عوده، ما رأيت أفصح من لسانه ببلاغتيه العربية والفارسية، والإسراع في جوابه ببراعته، ولا أطيش منه قلما في كتابته أبو الحياة محمد ابن أبي القاسم بن عمر السلمي،ووعظ في جامع دمشق عدة أيام والناس يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلاطة لسانه وسرعة جوابه، وحدة خاطره، وصفاء حسه.

قال ابن الأثير: وفيها في ذي الحجة توفي الأمير عز الدين أبى بكر الدبيسي، صاحب جزيرة ابن عمر، وكان من أكابر الأمراء يأخذ نفسه مأخذ الملوك، وكان عاقلا حازما ذا رأي وكيد ومكر، وملك الجزيرة قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل أخو نور الدين.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشام، خذلهم اللّه تعالى بمضايقتهم لحصن حارم، ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق إلى أن ضعف، وملك بالسيف، وتزايد طمعهم في شن الغارات في الأعمال الشامية، وإطلاق الأيدي في العيث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرق العساكر الاسلامية، والخلف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له، وللّه المشيئة التي لاتدافع، والأقضية التي لاتمانع.

قال: وفي صفر ورد الخبر والمبشر بنزول نور الدين من حلب للتوجه إلى دمشق ، واتفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شن الغارات على أعمال حوران والاقليم، وإطلاق أيدي الفساد والعيث والإحراق والاخراب في الضياع، والنهب والسبي والأسر، وقصدوا داريا للنزول عليها في انسلاخ صفر، واحراق منازلها وجوامعها والتناهي في إخرابها ، وظهر إليهم العسكرية والأحداث، وهموا بقصدهم والاسراع إلى لقائهم وكفهم، فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم، وحين شاهد الكفار، خذلهم اللّه تعالى كثرة العدد الظاهر إليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الاقليم، ووصل نور الدين إلى دمشق، وحصل في قلعته سادس ربيع الأول سالماً في نفسه وجملته، ولقي بأحسن زي وترتيب وتجمل، واستبشر العالم بمقدمه المسعود وابتهجوا وبالغوا في شكر اللّه تعالى على سلامته وعافيته والدعاء له بدوام أيامه، وشرع في تدبير أمر الأجناد والتأهب للجهاد.

قال: وفي أوائل ربيع الأوّل ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غزة وعسقلان وأغاروا على أعمالها، وخرج إليهم من كان بها من الفرنج الملاعين، فأظهر اللّه تعالى المسلمين عليهم قتلا وأسراً

بحيث لم يفلت منهم إلاّ اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين، وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنج، فقتل وأسر منهم العدد الكثير، وحاز من أموالهم وعددهم وأثاثهم ما لايكاد يحصى، وعاد ظافرا غانما.

قلت : وأرسل إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ من مصر وزيرها الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك قصيدة، يشرح فيها حال هذه الغزاة، ويحرض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكره بها منّ اللّه تعالى عليه به من العافية والسلامة من تلك المرضة المقدم ذكرها، وكان كثيرا ما يكاتبه طالباً منه إعلام نور الدين بالغزاة لحثه عليها وأول هذه القصيدة:

ألا هكذا في اللّه تمضي العزائم
وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم

وتستنزل الأعداء من طول عزهم
وليس سوى سمر الرماح سلالم

وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها
ويوطى حماها والأنوف رواغم

ويوفى الكرام الناذرون بنذرهم
وإن بذلت فيها النفوس الكرائم

نذرنا مسير الجيش في صفر فما
مضى نصفه حتى انثنى وهو غانم

بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا
مفاوز وخد العيس فيهن دائم

فما هاله بعد الديار ولا ثنى
عزيمته جهد الظما والسمائم

يهجر والعصفور في قعر وكره
ويسري إلى الأعداء والليل نائم

يبــــارى خيـــــولا مـــــا تـــــزال كـــــأنها
إذا مـــاهـــي انقضـــت نســـور قشـــاعـــم
يسير بها ضرغـــــام في كـــــل مـــــارق
ومـــــا يصحـــب الضرغـــام إلاّ الضراغـــم
ورفقتـــــه عين الـــــزمـــــان وحـــــاتـــم
ويحيـــى وإن لاقـــى المنيـــة حـــاتـــم
وواجههـــــم جمع الفـــــرنـــــج بجملـــــة
تهون على الشجعـــــان فيهـــــا الهزائم
فلقـــــوهـــــم زرق الاسنـــــة وانطـــــووا
عليهـــم فلـــم يـــرجـــع مـــن الكفـــر نـــاجـــم
ومـــــا زالـــت الحرب العـــــوان أشـــدّهـــا
إذا مـــاتـــلاقـــى العسكـــرا المتضـــاجـــم
يشبههـــــم مـــــن لاح جمعهـــــم لـــــه
بلجـــة بحـــر مـــوجهـــا متـــلاطـــم
وعـــادوا إلى ســـل السيـــوف فقطعـــت
رؤوس وحـــزت للفـــرنـــج غـــلاصـــم
فلـــم ينـــج منهـــم يـــوم ذاك مخبر
ولا قيـــل هـــذا وحـــده اليـــوم ســـالم
نقتلهـــم بـــالـــرأي طـــورا وتـــارة
تـــدوسهـــم منـــا المذاكـــي الصـــلادم
فقـــولـــوا النـــور الـــديـــن لافـــل حـــدّه
ولا حكمـــت فيـــه الليـــالي الغـــواشـــم
تجهـــــز إلى أرض العـــــــدوّ ولا تهن
وتظهـــر فتـــورا ان مضـــت منـــك حـــارم
فما مثلهـــا تبـــدي احتفـــالا بـــه ولا
يعـــض عليهـــا للملـــوك الابـــاهـــم
فعنـــدك مـــن ألطـــاف ربـــك مـــابـــه
علمنـــا يقينـــا أنـــه بـــك راحـــم

أعـــادك حيـــا بعـــد أن زعـــم الـــورى
بـــأنـك قـــد لاقيـت مـــا اللّـــه حـــا تـــم
بـــوقـت أصـــاب الارض مـــا قـــد أصـــابها
وحلـــت بها تلـــك الـــدواهـــي العظـــائم
وخيـــم جيـــش الكفـــر في أرض شيـــزر
فسيقـــت سبـــا يـــا واستحلـــت محارم
وقـــد كـــان تـــاريـــخ الشـــام وهلكـــه
ومـــن يحتـــويـــه أنـــه لـــك عـــادم
فقـــم واشكـــر اللّـــه الكـــريـــم بنهضـــه
إليهـــم فشكـــر اللّـــه للخلـــق لازم
فنحـــن على مـــا قـــد عهـــدت نـــروعهـــم
ونحلـــف جهـــدا أننـــا الانســـالم
وغـــاراتنـــا ليســـت تفتر عنهـــم
وليـــس ينجـــي القـــوم منـــا الهزائم
فـــاسطـــولنـــا أضعـــاف مـــا كـــان ســـائرا
إليهـــم فـــلا حصـــن لهم منـــه عـــاصـــم
ونـــرجـــو بـــأن يجتـــاح بـــاقيهـــم بـــه
وتحوى الأســـارى منهـــم والغنـــائم

وكتب إليه أيضا:

يـــا سيـــدا يسمـــو بهمـــ
ـــته إلى الـــرتـــب العليـــه
فينـــال منهـــا حين يحر
م غيره أوفى مـــزيـــه
أنـــت الصـــديـــق وإن بعـــد
ت وصـــاحـــب الشيـــم الـــرضيـــه
ننبيـــك إن جيـــوشنـــا
فعلـــت فعـــال الجاهليـــة

سـارت إلى الأعـداء مـن
أبطـالها مـائتـا سريـه
فتغير هـذي بكـرة
وتعـاود الأخـرى عشيـه
فـالـويـل منهـا للفـرنـ
ـج فقـد لقـوا جهـد البليـة
جـاءت رؤوسهـم تلـو
ح على رؤوس السمهـريـة
وقـلائع قـد قسمـت
بين الجنـود على السـويـه
وخـلائق كثرت مـن الـ
ـلأسرى تقـاد إلى المنيـة
فـانهض فقـد أنبيـت مجـ
ـد الـديـن بـالحال الجليـه
وألم بنـور الـديـن واعـ
ـلمه بها تيـك القضيـة
فهـو الـذي مـازال تخـ
ـلص منـه أفعـالا ونيـه
ويبيـد جمع الكفـر بـالـ
ـبيض الـرقـاق المشرفيـه
فعسـاه ينهـض نهضـة
يفنـي بها تلـك البقيـة
إمـا النصرة دينـه
أو ملكـه أو للحميـه

وكتب إليه أيضا يقول:

أيها المنقـذي أنـت على البعـ
ـد صـديـق لنـا ونعـم الصـديـق


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

ليــــس فيماتـــــأتيـــــه مـــــن بـــــر أفعـــــا
لـــــك للطـــــالـــــب الحقـــــوق عقـــــوق

فلهـــــذا نـــــرى مـــــواصلـــــة الكتـــــ
ـــــب تبـــــاعـــــاً إليـــــك ممـــــا يليـــــق

ونـــــاجيـــــك بـــــالمهمات إذ أنـــــ
ـــــت بـــــالقـــــائهـــــا إليـــــك خليـــــق

وأهـــــم المهـــــم أمـــــر جهـــــاد الـــــ
ـــــكفر فـــــا سمع فعنـــــدنـــــا التحقيـــــق

واصلتهـــــم منـــــا السرايـــــا فـــــأشجـــــا
هـــــم بكـــــور منـــــا لهم وطـــــروق

وأبـــــاحـــــت ديـــــارهـــــم فـــــأبـــــاد الـــــ
ـــــقوم قتـــــل مـــــلازم وحـــــريـــــق

وانتظـــــرنـــــا بـــــزحفنـــــا بـــــرء نـــــور الـــــديـــــ
ـــــن علما منـــــا بـــــأن سيفيـــــق

وهـــــو الآن في أمـــــان مـــــن اللّـــــ
ـــــه ومـــــا يعتريـــــه أمـــــر يعـــــوق

مـــــا لهذا المهـــــم مثلـــــك مجد الـــــديـــــ
ـــــن فـــــانهض بـــــه فـــــأنـــــت حقيـــــق

قـــــل لـــــه لاعـــــداه رأي ولا زا
ل لـــــديـــــه لكـــــل خير طـــــريـــــق

أنـــــت في حســـــم داء طـــــاغيـــــة الكـــــ
ـــــفار ذاك المرجـــــوّ والمرمـــــوق

فـــــاغتنـــــم بـــــالجهـــــاد أجـــــرك كـــــي يلـــــ
ـــــقى رفيقـــــاً الـــــه ونعـــــم الـــــرفيـــــق

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يـــــا أمير الجيـــــوش مـــــا زال لـــــلاســـــ
ـــــلام والـــــديـــــن منـــــك ركـــــن وثيـــــق

أسمعـــــت دعـــــوة الجهـــــاد فلبـــــا
هـــــا مليـــــك بـــــالمكـــــرمـــــات خليـــــق

ملــــك عـــــادل أنـــــار بـــــه الـــــديـــــ
ـــــن فعـــــم الاســـــلام منـــــه الشروق
مـــــالـــــه عـــــن جهـــــاده الكفـــــر والعـــــد
ل وفعـــــل الخيرات شغـــــل يعـــــوق
هـــــو مثـــــل الحســـــام صـــــدر صقيـــــل
لين مســـــه وحـــــد زليـــــق
ذو أنـــــاة يخالها الغـــــراهما
لا وفيهـــــا حتـــــف الأعـَــــادي المحيـــــق
فـــــاسلما الـــــلاســـــلام كهفين مـــــاطـــــ
ـــــرز ثـــــوب الظـــــلام بـــــرق خفـــــوق (٨٤)

وكتب إليه أيضا:

قـــــل لابـــــن منقـــــذ الـــــذي
قـــــد حـــــاز في الفضـــــل الكمالا
فلـــــذاك قـــــد أضحـــــى الأنـــــا
م على مكـــــارمـــــه عيـــــالا
كـــــم قـــــد بعثنـــــا نحـــــوك الـــــ
ـــــلأشعار مسرعـــــة عجـــــالا
وصـــــددت عنهـــــا حين را
مـــــت مـــــن محاسنـــــك الـــــوصـــــالا
هـــــلا بـــــذلـــــت لنـــــا مقـــــا
لا حين لم تبـــــذل فعـــــالا
مـــــع أننـــــا نـــــوليـــــك صبـــــ
ـــــرا في المودّة واحتمالا
ونبثـــــك الأخبـــــار إن
أضحـــــت قصـــــارا أو طـــــوالا
ســـــارت سرايـــــانـــــا القصـــــ
ـــــد الشـــــام تعتســـــف الـــــرمـــــالا
تـــــزجـــــي إلى الأعـــــداء جـــــر
د الخيـــــل اتبـــــاعـــــاتـــــوالا

تمضي خفــــــافــــــا للمغــــــا
ر بها وتـــــأتينـــــا ثقـــــالا
حتـــــى لقـــــد رام الاعــــــا
دي مـــــن ديـــــارهــــم ارتحالا
وعلى الـــــــــــــــوعيرة معشر
لم يعهـــــدوا فيهـــــا القتــــالا
لما نـــــــأت عمـــــــن يحـ
ـــــــف بها يمينـــــــا أو شمالا
نهضـــــت إليهـــــا خيلنــــا
مـــــن مصر تحتمـــــل الـــــرجـــــالا
والبيـــــض لامعـــــة وبيـــــ
ـــــض الهنـــــد والاســـــل النهـــــالا
فغـــــدت كـــــأن لم يعهـــــدوا
في أرضهـــــا حيـــــا حـــــلالا
هـــــذا وفي تـــــل العجـــــو
ل مـــــلأن بـــــالقتلى التـــــلالا
إذ مـــــر مـــــري ليـــــس يلـــــ
ــــوي نحـــــور رفقتـــــه اشتغـــــالا
واستـــــاق عسكـــــرنـــــا الـــــه
أهـــــلا يحبهـــــم ومـــــالا
وسريـــــة ابـــــن فـــــرنـــــج الطـــــا
ئي طـــــال بهم وصـــــالا
ســـــارت إلى أرض الخليـــــ
ـــــل فلـــــم تـــــدع فيهـــــا خـــــلالا
فلـــــو أن نـــــور الـــــديـــــن يجـ
ـــــعل فعلنـــــا فيهـــــم مثـــــالا
ويسير الاجنـــــاد جهـــــ
ــــراً كـــــي ينـــــازلهم نـــــزالا
ووفى لنـــــا ولأهـــــل دولـــــ
ــــته بما قـــــد كـــــان قـــــالا

لــــــرأيـــــت لـــــلافــــــرنــــــج طـــــــ
ــــــــراًفي معــــــاقلهـــــــا اعتقــــــــالا
وتجهـــــــــــــزوا للسير نحـــــــــــــ
ــــــــو الغــــــــرب أو قصـــــــدوا الشمالا
وإذا أبـــــــــــــى الا اطـــــــــــــرا
حـــــــاً للنصيحــــــــة واعتـــــــزالا
عـــــدنـــــا بتسليـــــم الأمـــــو
ر لحكــــــم خــــــالقنـــــا تعــــــالى

فأجابه ابن منقذ بقصيدة منها:

يـــــــا أشرف الـــــــوزراء أخـــــــ
ـــــــلاقا وأكـــــــرمهـــــــم فعـــــــالا
نبهـــــــت عبـــــــداطــــــــالما
نبهتـــــــه قـــــــدرا وحـــــــالا
وعتبتـــــــه فـــــــانلتـــــــه
فخـــــــرا ومجدا الـــــــن ينـــــــالا
لكـــــــن ذاك العتـــــــب يشـــــــ
ـــــــعل في جـــــــوانبـــــــه اشتعـــــــالا
أسفـــــــا لجد حـــــــال عنـــــــ
ـــــــه إلى مســـــــاءتـــــــه ومـــــــالا
أمـــــــا السرايـــــــا حين تـــــــر
جـــــــع بعـــــــد خفتهـــــــا ثقـــــــالا
فكـــــــذاك عـــــــادوفـــــــود بـــــــا
بـــــــك مثقلين ثنـــــــا ومـــــــالا
ومسيرهـــــــا في كـــــــل أر
ض تبتغـــــــي فيهـــــــا المجـــــــالا
فكـــــــذاك فضلـــــــك مثـــــــل عـــــــد
لـــــــك في الـــــــدنـــــــا ســـــــارا وجـــــــالا
فـــــــاسلـــــــم لنـــــــا حتـــــــى نـــــــرى
لـــــــك في بنـــــــي الـــــــدنيـــــــا مثـــــــالا

واشــــدديـــــديـــك بـــودنــــو
رالــــديــــن والــــق بــــه الــــرجـــالا
فهـــو المحـــامـــي عـــن بـــلا
دالشـــام جمعــــا أن يـــــذالا
ومبيد املاك الفرنـ
ـــــج وجمعهــــم حــــالا فحـــالا
ملـــك يتيــــه الـــــدهـــر والـــدنـــ
ـــــيا بــــدولتـــــه اختيــــالا
جمع الخلال الصـــــــــــــالحا
ت فلــــم يـــدع منهـــا خـــلالا
فـــإذا بـــــدا للنـــاظـــريــــ
ــــن رأت عيـــــونهم الكمالا
فبقيتما للمسلمـــــــــــــــ
ـــــين حما وللـــــدنيـــا جمالا (٨٥)

وكتب إليه الصالح من قصيدة تقدّم ذكرها في الزلازل:
ولعمـــري إن المنـــاصـــح في الـــديـــ
ـــــن على اللّــــه أجـــره محســــوب
وجهــــاد العــــدوّ بـــالفعــــل والقــــو
ل على كــــل مسلـــــم مكتـــــوب
ولــــك الـــرتبـــة العليـــة في الامــــ
ــــرين مـــذ كنـــت إذ تشـــب الحروب
أنـــت فيهـــا الشجـــاع مـــالـــك في الطعـــ
ـــن ولا في الضراب يـــومـــا ضريـــب
وإذا مـــا قـــرضـــت فـــالشـــاعـــر المفـــ
ـــلق فيما يقــــولـــه والخطيــــب
وإذا مـــا أشرت فـــالحزم لا ينــــ
ـــكر إن التـــدبير منـــك مصيـــب

لـــــك رأي بقظـــــان إن ضعـــــف الــــــرأ
ي على حــــــاملي الصليــــــب صليــــــب
فـــــانهض الآن مسرعــــا فبــــأمثــــا
لـــــك مـــــازال يـــــدرك المطلـــــوب
ألـــق منـــا رســـالـــة عنـــد نـــور الـــديـــ
ـــــن مـــا في القـــائهــا مـــا يـــريـــب
قـــــل لـــــه دام ملكـــــه وعليـــــه
مـــــن لبـــاس الاقبـــال بـــرد قشيـــب
أيها العـــادل الـــذي هـــو للـــديـــ
ـــــن شبـــاب وللحـــروب شبيـــب
والـــذي لم يـــزل قـــديما عـــن الاســـ
ـــلام بـــالعـــزم منـــه تجلى الكـــروب
وغـــــدا منـــــه للفـــرنـــج إذا لا
قـــوه يـــوم مـــن الـــزمـــان عصيـــب
إن يـــرم نـــزف حقـــدهـــم فـــلا شطـــا
ن قنـــاه في كـــل قلـــب قليـــب
غيرنـــا مـــن يقـــول مـــا ليـــس يمضيـــ
ــــه بفعـــل وغيرك المكـــذوب
قـــد كتبنـــا إليـــك مـــا وضـــح الآ
ن بها ذا عـــن الكتـــاب تجيـــب
قصـــدنـــا أن يكـــون منـــا ومنكـــم
أجـــل في مسيرنـــا مضروب
فلـــدينـــا مـــن العســـاكـــر مـــا ضـــا
ق بـــأدنـــاهـــم الفضـــاء الـــرحيـــب
وعلينـــا أن يستهـــل على الشـــا
م مكـــان الغيـــوث مـــال صبيـــب
أو تـــراهـــا مثـــل العـــروس ثـــراهـــا
كلـــه مـــن دم العـــدا مخضـــوب

لطنين السيوف في فلق الصبـ
ـح على هام أهلها تطريب
ولجمع الحشود من كل حصن
سلب مهمل لهم ونهوب
وبحول الإله ذاك ومن غا
لب ربي فإنه مغلوب

وكتب إليه أيضا:

أيها السائر المجدّ إلى الشا
م تباري ركابه والخيول
خذ على بلدة بها دار مجد الـ
ـدين لا ريع ربعها المأهول
وتعرف أخباره واقرة منـ
ـا سلاما فيه العتاب يجول
قل له أنت نعم ذخر الصديق الـ
ـيوم لكنك الصديق الملول
ما ظننا بأن حالك في القر
ب ولا البعد بالملال يحول
لا كتاب ولا جواب ولا قو
ل به لليقين منه حصول
غير أنا نواصل الكتب إذ قصـ
ـر منك البر الكريم الوصول
ذاكرين الفتح الذي فتح اللّـ
ـه علينا فالفضل منه جميل
جاءنا بعد ما ذكرناه في كتـ
ـب أتاكم بهن منا رسول
أن بعض الاسطول نال من الأفـ
ـرنج ما لا يناله التأميل

ســـــار في قلـــــة ومـــــازال بـــــاللّـــــ
ـــــه وصـــــدق النيـــات تنمــــى القليـــــل
ويقـــايـــــا الاسطـــول ليـــس لـــه بعـــــ
ـــــد إلى جـــانـــــب الشـــآم وصـــــول
فحـــوى مـــن عكـــا وانطـــرســـوس
عـــــدّة لم يحط بها التحصيـــــل
جمع ديـــويـــة بهم كـــانـــت الافـــــ
ـــرنج تسطـــو على الـــورى وتصـــول
قيـــد في وسطهـــم مقـــدّمهـــم يهـــ
ـــدى إلينـــا وجيـــده مغلـــول
بعـــد مثـــوى جماعـــة هلكـــوا بـــالـــ
ـــسيف منهـــا الغـــريـــق والمفلـــول
هـــذه نعمـــة الالـــــه وتعـــديـــ
ـــد أيـــادي الالـــه شيء يطـــول
أبلغـــن قـــولنـــا إلى الملـــك العـــا
دل فهـــو المرجـــوّ والمأمـــول
قـــل لـــه كـــم تماطـــل الـــدين في الكفـــ
ـــار فـــاحـــذر أن يغضـــب المطـــول
سر إلى القـــدس واحتســـب ذاك في اللّـــ
ـــه فبـــالسير منـــك يشفـــى الغليـــل
وإذا مـــا أبطـــا مسيرك فـــاللّـــ
ـــه إذا حسبنـــا ونعـــم الـــوكيـــل

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يـــا أمير الجيـــوش يـــا أعـــدل الحـــ
ـــكام في فعلـــه وفيما يقـــول
أنـــت حليـــت بـــالمكـــارم أهـــل الـــ
ـــعصر حتـــى تعـــرف المجهـــول

وقسمت الفرنج بالغزو شطريـ
ـن فهذا عان وهذا قتيل
بالغ العبد في النيابة والتحـ
ـريض وهو المفوّه المقبول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا
دت له الأرض والجبال تميل
وإذا عاقت المقادير فالـلّـ
ـه إذا حسبنا ونعم الوكيل (٨٦)

وكتب الصالح إليه جوابا قصيدته الطائية التي أوّلها:
هي البدر لكن الثريا لها قرط
ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

ثم قال بعد وصف السيوف:
ذخرنا سطاها للفرنج لأنها
بهم دون أهل الأرض أجدر أن تسطو
وقد كاتبوا في الصلح لكن جوابهم
بحضرتنا ما ينبب الخط الا الخط
سطور خيول لا تغب ديارهم
لها بالمواضي والقنا الشكل والنقط
إذا أرسلت فرعا من النقع فاحما
أثيثا فأسنان الرماح لها مشط
رددنا به ابن الفنش عنا وإنما
يثبته في سرجه الشدّ والربط
فقولوا النور الدين ليس لجائف الـ
ـجراحات إلا الكي في الطب والبط (٨٧)
وحسم أصول الداء أولى بعاقل
لبيب إذا استولى على المدنف الخلط
فدع عنك ميلا للفرنج وهدنة
بها أبدا يحظى سواهم ولم يحظوا

تأمل فكم شرط شرطت عليهم
قديماً وكم غدر به نقض الشرط
وشمر فانا قاعد بكل ما
سألت وجهزنا الجيوش ولن يبطوا(٨٨)

قال العماد في كتاب الخريدة: الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك سلطان مصر في زمان الفائز، وأوّل زمان العاضد، ملك مصر، واستولى على أمر صاحب القصر، ونفق في زمانه النظم والنثر، وقرب الفضلاء، واتخذهم جلساء، ورحل إليه ذوو الرجاء، وأفاض على الداني والقاصي العطاء، وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الاسلام، وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته، وإحكام معاني حكمته، وأقسام معاني بلاغته، فيقال إن المهذب ابن الزبير كان ينظم له وأن الجليس بن الحباب كان يعينه، وله ديوان كبير وإحسان كثير، ولما جلس في دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة:

انظر إلى ذي الدار كم
قد حل ساحتها وزير
ولكم تبختر آمنا
وسط الصفوف بها أمير
ذهبوا فلا والله ما
يبقى الصغير ولا الكبير
ولمثل ما صاروا إليه
من الفناء غداً نصير (٨٩)

فصل

قال أبو يعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيع الأوّل من ناحية حلب بحدوث زلزلة هائلة روّعت أهلها وأزعجتهم، وزعزعت مواضع من

مساكنها، ثم سكنت بقدرة محركها سبحانه وتعالى، وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة في دمشق روعت واقلقت ثم سكنت.

وفي التاسع من ربيع الآخر برز نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفر، وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعه من فرسان التركمان، أغار بهم على أعمال صيدا وما قرب منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها، وقد كمنوا لهم، فغنموهم، وقتل أكثرهم، وأسر الباقون، وفيهم ولد المقدّم المتولي حصن حارم، وعادوا سالمين بالأسرى ورؤوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارس واحد.

قال: وفي أوائل شهر تموز الموافق لأوّل جمادى الآخرة من السنة وافى البقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر، كما جرت به العادة في تنبوك الشتاء، ووصل إلى بردى، ووصل إلى دمشق، وكثر التعجب من أثار قدرة اللّه تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

قال: وفي الليلة الثالثة والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغداة ، وورد الخبر من العسكر المنصور بأن الفرنج تجمعوا وزحفوا إلى العسكر، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر والتقى الجمعان، واتفق أن عسكر الاسلام حصل فيه فشل لبعض المقدمين فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتا في مكانه في عدّة يسيرة من شجعان غلمانه وأبطال خواصه في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولوا منهزمين خوفا من كمين يظهر عليهم من عسكر الاسلام، ونجى اللّه وله الحمد نور الدين من بأسهم بمعونة اللّه تعالى،

وشدّة بـأسه وثبـات جاشه ومشهـور شجاعتـه، وعاد إلى مخيمـه سالماً في جماعته، ولام مـن كان السبب في انـدفاعـه بين يدى الفرنـج، وتفرق جمع الفـرنـج إلى أعمالهم، وراسـل ملكهـم لنـور الـديـن في طلـب الصلـح والمهادنة، وحـرص على ذلك، وتردّدت بين الفريقين مـراسلات ولم يستقر بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالما.

قلت: وذكـر أبو الفتح بحـر بن أبـى الحسن بن بحـر الاشتري المعيد كان بالمدرسـة النظامية في سيرة مختصرة جمعها لنور الديـن وقد تقدّم شيء منها رحمهما اللّه قـال: وبلغنا أن نور الدين خرج إلى الجهـاد في سنة ست وخمسين وخمسمائة، فقضـى اللّـه بـانهزام عسكـر المسلمين وبقـي الملـك العادل مع شرذمـة قليلة وطائفة يسيرة واقفـا على تل يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكفار، فـوقف الملـك العادل بحـذائهم مـولياً وجهـه إلى قبلة الـدعاء، حـاضراً بجميع قلبه مناجيـاً ربه يقول: يارب العباد، أنا العبـد الضعيف ملكتني هـذه الولايـة، واعطيتني هـذه النيابـة، وعمرت بـلادك ونصحت عبـادك وأمـرتهم بما أمرتنـي به، ونهيتهـم عما نهيتني عنـه، فرفعـت المنكرات مـن بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهـم، وقد إنهزم المسلمون وأنا لاأقدر على دفع هـؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيـك محمد صلى اللّه عليـه وسلم، ولا أملـك إلاّ نفسي هـذه وقـد سلمتهـا إليهم ذابـا عـن دينـك ونـاصراً لنبيـك، فاستجـاب الله دعـاءه وأوقع في قلـوبهم الرعـب وأرسل عليهـم الخذلان، فوقفوا مواضعهم ومـا جسروا على الاقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكـر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكـر المسلين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد فـوقفوا وما قدموا عليه.

قال: ولولا أن ذلك إلهام من الله تعـالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كـان ينفلت واحـد من المسلمين، فـوقف عسكـر الكفار وبـرز اثنان

منهم يجولان بين الصفين يطلبان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل لخطلخ الزاهد مولى الشهيد بالخروج إليهما فخرج وجال بينهما ساعة وعمل حيلة وخدعة ورجع إلى قريب صف الكفار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه السلام قال: كان أعطاني ملك القدس بغلة كنت راكبا عليها، يعني في ذلك اليوم واقفا مع الملك العادل، فلما وصل الكفار، وقربوا منا شمت البغلة رائحة خيل الكفار فصهلت تطلب خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي فقالوا: هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف، ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشرذمة القليلة والطائفة اليسيرة، فتحقق ذلك في قلوبهم فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه.

قال فترجل كل من كان مع الملك العادل وتشفعوا إليه وباسوا الأرض بين يديه وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع، وفي هذا الاقليم فإن جرى والعياذ بالله وهن وضعف من استيلاء الكفار على المسلمين فمن الذي يقدر على تداركه؟ قال: وحلف هذ الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان فرسه كرها ورحلوا من ذلك الموضع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع، فلما عرف الكفار ذلك وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين ندموا على ذلك ندامة عظيمة ، قال: وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسر الملك العادل الكفار وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم خلقا كثيراً، على ما حكي عن صلاح الدين صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصل في الجريدة ألف أسير مع التركمان، هذا ما جاز على بلد حمص وحده، وكان قد انفلت ملك القدس، ودخل إلى قلعته فلما جن عليه الليل خرج من القلعة ومضى.

فصل

قال أبو يعلى: وفي رجب تجمع قوم من السفهاء العوام وعزموا على التحريض لنور الدين على إعادة ما كان أبطل وسامح به أهل دمشق من رسوم دار البطيخ، وعرصة البقل والأنهار، وصانهم من اعنات شرار الضمان، وحوالة الاجناد، وكرروا لسخف عقولهم الخطاب، وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بيض، وكتبوا بذلك حتى أجيبوا إلى ما راموا، وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك من المقدمين والأعيان والرعايا، فلما اهتدوا إلى صواب ولا نجح لهم قصد في خطاب ولا جواب، وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا وأكثروا الضجيج والاستغاثة إلى نور الدين، فصرف همه إلى النظر في هذا الأمر، فنتجت له السعادة وإيثار العدل في الرعية لاعادة على ما كان عليه،فأمر في عاشر رمضان باعادة الرسوم المعتادة إلى ما كانت عليه من إماتتها، وتعفية أثر ضمانها، وأضاف إلى ذلك تبرعاً من نفسه إبطال ضمان الهريسة والجبن واللبن ، ورسم بكتب منشور يقرأ على كافة الناس بإبطال هذه الرسوم جميعها وتعفية ذكرها، فبالغ العالم عند ذلك في مواصلة الأدعية والثناء عليه والنشرلمحاسنة .

قال: وفي الحادي والعشرين من رمضان وصل الحاجب محمود المسترشدي من ناحية مصر بجواب ما تحمله من المراسلات من الملك الصالح متولي أمرها، ومعه رسول من مقدمي أمرائها ، ومعه المال المنفذ برسم الخزانة النورية، وأنواع الثياب المصرية، والجياد العربية، وكانت فرقة من الفرنج خذلهم الله قد ضربوا لهم في المعابر ، فأظفر الله بهم فلم يفلت منهم إلاّ القليل النزر، ثم تلا ذلك ورود الخبر من العسكر المصري بظفرة بجملة وافرة من الفرنج تناهز أربعمائة فارس وتزيد على ذلك في ناحية العريش من الكفار بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلب.

قال: وقد كانت الاخبار تناصرت من ناحية القسطنطينية في ذي الحجة ببروز ملك الروم منها في العدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقل الاسلامية، ووصوله إلى مروج الديباج وتخييمه فيها، وبث سراياه للأغارة على أعمال أنطاكية وما والاها، وأن قوما من التركمان ظفروا بجماعة منهم، هذا بعد أن أفتتح من أعمال لاوين ملك الأرمن عدّة من حصونه ومعاقله، ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبة الولاة بالأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، وبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم.

قال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود فحصر بغداد، وبها الخليفة المقتفي لأمر اللّه ، ومعه وزيره عون الدين بن هبيرة، فكاتب أصحاب الأطراف فتحركوا ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه ملك شاه قصد همذان ودخلها في عسكر كبير ونهب، وأخذ نساء الأمراء الذين معه واولادهم، فاختلط العسكر وتفرقوا،.وعاد محمد نحو همذان وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين، وشعثوا دار السلطان.

قلت: وفي هذه السنة توفي أبو الوقت عبد الأوّل المحدّث المنفرد بعلو رواية كتاب الجامع الصحيح للبخاري، رحمه اللّه تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين

قال أبو يعلى: في أوّل يوم منها وافت زلزلة عظيمة ضحى نهاره، وتلاها ثنتان دونها، وكان قد عرض لنور الدين مرض تزايد به بحيث أضعف قوّته، ووقع الإرجاف به من حساد دولته والمفسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرعايا وأعيان الأجناد، وضاقت صدور قطان الثغور والبلاد، خوفا عليه، وإشفاقا من سوء يصل إليه، لاسيما مع أخبار الروم والفرنج، ولما أحس من نفسه بالضعف تقدّم إلى خواص أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمت على وصية إليكم بما وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين، إني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين والظلمة الجائرين، وإن أخي نصرة الدين أعرف من أخلاقه وسوء أفعاله ما لاأرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي قطب الدين مودود متولي الموصل، لما يرجع إليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد، فحلفوا له وانفذ رسله إلى أخيه باعلامه صورة الحال، ليكون لها مستعدا، ثم تفضل اللّه تعالى بابلاله من المرض وتزايد القوّة في النفس والحس، وجلس للدخول إليه والسلام عليه، وكان الأمير مجد الدين النائب في حلب قد رتب في الطرقات من يحفظ السالكين فيها، فظفر المقيم في منبج برجل حمال من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولي حلب، فلما وقف عليها أمر بصلب متحملها ، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم متولي ديوانه، ومن عز الدين والي القلعة مملوكه، ومن محمد بن جفري أحد حجابه إلى أخيه نصرة الدين أمير أميران صاحب حران بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، ويحضونه على المبادرة والاسراع إلى دمشق لتسلم إليه، فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين، وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جعبر يخبر بقطع نصرة

الدين الفراة مجداً إلى دمشق فانهض أسـد الدين في العسكر المنصور لردّه ومنعه مـن الوصـول، فاتصـل به خبر عوده إلى مقـرّه عند معـرفته بعـافية أخيـه، فعاد أسـد الديـن إلى دمشق، ووصلـت رسل الملـك العادل مـن ناحية الموصل بجـواب ما تحملوه إلى أخيه قطب الدين، وفـارقوه وقد برز في عسكره متـوجها إلى نـاحية دمشـق، فلما فصل عـن الموصل اتصـل به خبر عافيته، فأقـام بحيث هو ، وأنفذ وزيره جمال الديـن أبا جعفر محمد ابن علي لكشف الحال، فوصل إلى دمشق يـوم السبت الثامن من صفر في أحسن زي وأبهى تجمل، وخرج إلى لقائه الخلق الكثير.

قـال: وهذ الـوزير قـد ألهمه اللّـه تعـالى من جميـل الأفعال وحميـد الخلال وكـرم النفـس، وإنفـاق أمـوالـه في أبـواب البر والصـدقـات والصـلات، ومستحسن الآثار في مـدينة الـرسول عليـه السلام، ومكـة ذات الحرم والبيت المعظـم شرفه الله تعـالى، ما قـد شاع ذكره وتضـاعف عليه حمده وشكره، واجتمـع مع نور الدين، وجرى بينهما مـن المفاوضات والتقريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته بعـد الاكرام له، وتوفيته حقه من الاحترام، وأصحبه بـرسم قطـب الديـن أخيه وخـواصه مـن الملاطفة مـا اقتضته الحال الحاضرة، وتوجه معه الأمير أسد الدين.

وقـال ابن أبي طـي: لما وصـل الوزيـر جمال الـديـن إلى حلب تلقـاه موكـب نور الـدين وفيـه وجوه الـدولة وكبراء المدينـة، وأنزل في دار ابـن الصوفي وأكـرم غايـة الإكرام، وأعيـد إلى صاحبه شـاكراً عـن نور الـدين وسير معه الأمير أسـد الدين شيركـوه رسولا إلى قطب الـدين بالشكـر له والثناء عليـه، وأنفذت معـه هدايـا سنية، فسـار وعاد إلى حلـب مكرمـا فوجد نور الـدين عازما على الخروج إلى دمشق لما بلغه مـن إفساد الفرنج في بلد حـوران ، فسار في صحـابته، ووصل نـور الديـن إلى دمشق فـأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج، ثم أنهض أسد الدين في قطعة من العسكر لـلاغارة على بلـد صيـدا ، فسـار وسار معـه أخـوه نجـم الديـن أيـوب

وأولاده، ولم يشعر الفرنج إلاّ وهو قد عـاث في بلد صيدا وقتل وأسر عالماً عظيماً، وغنم غنيمة جليلة ، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلت: وهـذا هو ما تقـدم ذكره بعـد المرضة الأولى، وكأن ابـن أبي طي جعل المرضتين واحـدة بحلب، وأبو يعلى ذكـر أن الأولى بحلب والثـانية بدمشق، وهو أصح، واللّه أعلم

فصل

قال أبو يعلى: وكان قـد وصل من ملك الروم رسول مـن معسكره ومعه هدية أتحف بها الملك العادل من أثـواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وفعـال ، وقوبل بمثـل ذلـك، وحكي عـن ملـك الفرنـج خـذله اللّـه أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقرّرت، والمهـادنة انعقدت، واللّه يردِ بأس كل واحد منهما إلى نحره ، ويذيقه عاقبة غدره ومكره.

قـال ووردت أخبار مـن ناحـة ملك الـروم بـاعتزامـه على أنطاكيـة ، وقصد المعـاقل الاسلاميـة، فبادر نور الـدين بالتـوجه إلى البلاد الشـامية لايناس أهلها من استيحاشهم من شر الـروم والأفرنج خذلهم اللّه تعالى، فسار في العسكر صوب حمص وحماه وشيزر.

قال: وفي ثالث ربيع الأوّل وافت زلزلة هـائلة ما جت أربع موجات ، وأيقظت النيام، وأزعجت اليقظى، وخـاف كل ذي مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى هبت ريح عاصفـة شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلفت أكثر الثمار صيفيهـا وشتويها، وأفسدت بعض الأشجار ، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت.

قال: وتجدّدت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعد تكرّر المراسلات والاقتراحات في التقريرات، وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدّمي الأفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم، وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه،من الاتحاف بأثواب الديباج الفاخرة المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، ومن الجوهر النفيس، وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية، ثم رحل عقيب ذلك في عساكره من منزله عائدا إلى بلاده مشكوراً محموداً، ولم يؤذ أحداً من المسلمين في العشر الأوسط من جمادى الأولى، فاطمانت القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قطب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدّمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروم والأفرنج سماطاً عظيماً هائلا، تناهى فيه، وفرّق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير، ومن الخلع من أنواع الديباج المختلفة وغيره، والتخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة، وكان يوماً مشهودا في الحسن والتجمل، واتفق أن جماعة من غرباء التركمان وجدوا من الناس غفلة باشتغالهم بالسماط وانتهابه، فغاروا على العرب من بني اسامة وغيرهم واستاقوا مواشيهم ، فلما ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين في إثرهم فريقا وافرا من العسكر فأدركوهم، ثم إنهم استخلصوا منهم جميع ما أخذوه وأعيد إلى أربابه .

قال: وتقرّر الرأي النوري على التوجه إلى مدينة حران لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نصرة الدين حسبما رآه في ذلك من الصلاح، فرحل في عسكره أوّل جمادى الآخرة، فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرر الحال على أمان من بها، وسلمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقررت أحوالها، وأحسن النظر في

أحوال أهلهـا، وسلمها لـلأمير زين الديـن على سبيل الإقطـاع ، وفوض إليه تدبير أمورها.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: في صفر توفي الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدمي أمراء الاكراد، وهو من ذوي الوجاهة في الدولة ، موصوف بالشجاعة والبسالة والسماحة مواظب على بث الصلات والصدقات في المساكين والضعفاء والفقراء مع الزمان في كل عصر ينقضي وأوان ، جميل المحيا حسن البشر في اللقاء، وحمل من داره بباب الفراديس إلى الجامع للصلاة عليه، ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه، فدفن فيها في اليوم، ولم يخل من باك عليه ومؤبن له ومتأسف على فقده لجميل أفعاله وحميد خلاله.

قلت: وله أوقاف على أبواب البرّ منها: المدرستان المنسوبتان إليه إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدّد، والأخرى قبالة باب دار سيف الغربي في صف مدرسة نور الدين رحمه الله، وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق وغير ذلك، وقد مدحه العرقلة وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهل صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القرشي قاضي دمشق إلى الملك العادل نور الدين رقعة يسأله فيها الإعفاء من القضاء والاستبدال به، فأجاب سؤاله وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين بن الشهرزوري ، وهو المشهور بالتقدّم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام ، وشروط استعمال الانصاف والعدل والنزاهة، وتجنب الهوى والظلم، واستقام له الأمر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه على أن القضاء، من بعض أدواته، واستقرّ أن يكون النائب عنه عند اشتغاله ولده.

قلت: ولكمال الدين رحمه اللّه تعالى الصدقة الجارية بعده على الفقراء

كل جمعة، وإليه ينسب الشباك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مدّة، ويصلون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى هاهنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التميمي، فإنه أخر كتابه، وفي هذه السنة توفي رحمه الله.

قال ابن الأثير: وفيها توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله بن المستظهر بأمر الله، ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين، وبويع ولده أبو المظفر يوسف، ولقب بالمستنجد بالله، فأقرّ ابن هبيرة على وزارته،

قال: وفيها حج زين الدين علي، وأحسن إلى الناس في طريق مكة ، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالّله ، فلما لبس الخلعة كانت طويلة وكان قصيرا جدا، فمدّ يده إلى كمرانه وأخرج ما شدّ به وسطه وقصر الجبة، فنظر المستنجد بالّله إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الامير والجندي لامثلكم.

قلت: وفيها توفي المستخلف بمصر الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ، وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ، وهو آخر خلفاء مصر، ووصل من الصالح بن رزيك كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك، فكتب إليه.

هناء عن نعمى قل عن قدرها الشكر
وصبراً لرزء لا يقوم به الصبر
مضى الفائز الطهر الامام وقام بالـ
ـلإمامة فينا بعده العاضد الطهر
اماما هدى للّه في نقل ذا إلى
كرامته وفي إقامة ذا سر

- ٧٨٤٢ -

فعـــش أبـــدا واسلـــم لهم يـــا كفيلهـــم
تـــدافـــع عنهـــم كـــل حـــادثـــة تعـــرو (٩٠)

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

قال ابن أبي طي: في هذه السنة حج أسد الدين من الشام ، وخرج في تجمل عظيم وشارة رائعة واستصحب معه من الأزواد والكسى أشياء عظيمة ، ويقال إنه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب، وحج على كوجك المعروف بزين الدين من العراق ، وحج ملهم أخو ضرغام وزير مصر، فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير، واستغنى بسببهم أهل الحجاز، وعاد أسد الدين سالماً وخرج نور الدين إلى لقائه وكان يوم وروده يوما عظيما

وقال أيضا: وفيها قتل الصالح بن رزيك بمصر، وكان سبب قتله أن عمة العاضد عملت على قتله وأنفذت الأموال إلى الأمراء، فبلغ ذلك الصالح فاستعاد الأموال واحتاط على عمة العاضد.

قال.وإنما كرهته عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحفظه للأموال، وقتل الصالح بسببها جماعة من الأمراء ونكبهم ، وتمكن من الدولة تمكنا حسناً، ثم إن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقوم من السودان مالاً جزيلا حتى أوقعوا به الفعل، جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر، ودخله وسلم على العاضد، وخرج من عنده فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصيحة فعثر الصالح بأذياله فطعنه أحدهم بالسيف في ظاهر رقبته فقطع أحد عمودي الرقبة، وحمل إلى باب القصر، وأصيب ولده رزيك في كتفه،ولما حصل الصالح في داره أوصى ولده رزيك ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل ، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاق فضاء الفضل، وعم رزء ابن رزيك، وملك

صرف الدهر ذلك المليك، فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ منحوسة الجدّ، منكوسة الراية معكوسة الآية إلى أن ملكها يوسفها الثاني، وجعلها معان المعاني وأنشر رميمها، وعطر نسيمها، وتسلم قصرها والتزم خصرها(٩١).

قال زين الدين الواعظ: عمل فارس المسلمين أخو الصالح دعوة في شعبان من السنة التي قتل فيها، فعمل هذه الأبيات وسلمها إليّ:

انست بكم دهرا فلما ظعنتم اســ
ــتقرت بقلبي وحشة للتفرق
وأعجب شيء أنني يوم بينكم
بقيت وقلبي بين جنبي ما بقي
أرى البعد ما بيني وبين أحبتي
كبعد المدى ما بين غرب ومشرق
ألا جدّدي يا نفس وجداً وحسرة
فهذا فراق بعده ليس نلتقي

قال: فلم يبق بعدها لهم اجتماع في مسرة، وقتل في شهر رمضان(٩٢).

قلت: ولعمارة اليمني ولغيره مدائح في الصالح ومراث جليلة، وقد أثنى عليه كثيرا في كتاب الوزراء المصرية، ولم يكن مجلس أنسه ينقطع إلاّ بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته.

قال: وكان مرتاضا قد شم أطراف المعارف، وتميز عن أجلاف الملوك ، وكان شاعراً يحب الأدب وأهله، يكرم جليسه ويبسط أنيسه، ولكنه كان مفرط العصبية في مذهب الإمامية، وكان مرتاضاً حصيفا قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم.

قال: ودخلت عليه قبل أن يموت بثلاث ليال وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة:

نحن في غفلة ونوم وللمو
ت عيون يقظانة لاتنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينا
ليت شعري متى يكون الحمام

قال: ومن عجيب الاتفاق أني أنشدت ابنه مجد الاسلام في دار سعيد السعداء ليلة السادس عشر من شهر رمضان، أو السابع عشر قصيدة أقول فيها:

أبوك الذي تسطو الليالي بحدّه
وأنت يمين إن سطا وشمال
لرتبته العظمى وإن طال عمره
إليك مصير واجب ومآل
تخالسك اللحظ المصون ودونها
حجاب شريف لا انقضى وحجال

قال: فانتقل الملك بعد ثلاث إليه(٩٣)

قال: ومما رثيته به قولي:

أفي أهل ذا النادي عليم أسائله
فإني لما بي ذاهب اللب ذاهله
سمعت حديثا أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه ويخرس قائله
فقد رابني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوبا وما فيه كافله
وأني أرى فوق الوجوه كآبة
تدل على أن الوجوه ثواكله

دعــــوني فما هــــذا بــــوقــــت بكــــائه
سيــــأتيكــــم طــــل البكــــاء ووابلــــه
ولم لانبكيــــه ونــــنــــدب فقــــده
وأولادنــــا أيتــــامــــه وأراملــــه
فيــــاليــت شعــــري بعــد حســن فعــالــه
وقــد غــاب عنــا مــا بنــا الــدهــر فــاعلــه
ايكــــرم مثــــوى ضيفكــــم وغــــريبكــــم
فيسكــــن أم تطــــوى ببين مــــراحلــــه

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه:
طمــــع المرء في الحيــــاة غــــرور
وطــــويــــل الآمــــال فيهــــا قصير

ومنها:
ولكــــم قــــدّر الفتــــى فــــأتتــــه
نــــوب لم يحط بها التقــــديــــر

ومنها:
فــــض ختــــم الحيــــاة عنــــك حمام
لا يــــراعــــي أذنــــا ولا يستشير
مــــا يخطــــى إلى جــــلالــــك اليــــوم إلا
قــــدر أمــــره علينــــا قــــديــــر
يــــا أمير الجيــــوش هــــل لــــك علــــم
أن حــــر الاســــى علينــــا أمير
إنّ قبراً حللتــــه لغنــــي
إن دهــــرا فــــارقتــــه لفقير
انطــــوى ذلــــك البســــاط وعهــــدي
وهــــو بــــالعلــــم والنــــدى مغمــــور
لا تظــــن الأيــــام أنــــك ميــــت
لم يمــــت مــــن ثنــــاؤه منشــــور

إن مضى كافل فهذا كفيل
أو وزير يغب فهذا وزير
دولة صالحية خلفتها
دولة عادلية لا تجور
ما شكونا كسر النوائب حتى
قيل في الحال كسركم مجبور
نصر الناصر العُلى بالعوالي
ولنعم المولى ونعم النصير

قال أيضا يرثيه ويذكر الظفر بقاتليه، ويصف نقل تابوته إلى مشهده بالقرافة، قصيدة طويلة منها:

قد كنت أشرق من ثماد مدامعي
أسفا فكيف وقد طمى التيار
عم الورى يوم الخميس وخصني
خطب بأنف الدهر منه صغار
ما أوحش الدنيا غدية فارقت
قطبا رحى الدنيا عليه تدار
خربت ربوع المكرمات لواحد
عمرت به الاجداث وهي قفار
نعش الجدود العاثرات مشيع
عشيت برؤية نعشه الابصار
نعش يودّ بنات نعش لو غدت
ونظامها أسفا عليه نثار
شخص الأنام إليه تحت جنازة
خفضت لرفعة قدرها الاقدار
سار الامام أمامها فعلمت أن
قد شيعتها الخمسة الأبرار
ومشى الملوك بها حفاة بعدما
حفت ملائكة بها أطهار

فكــأنها تــابــوت مــوســى أودعــت
في جــانبيــه سكينــة ووقــار
لكنــه مــاضــم غير بقيــة الاســـ
ـــلام وهــو الصــالــح المختــار
اقطنتــه دار الــوزارة ريثما
بنيــت لنقلتــه الكــريمــة دار
وتغــايــر الهرمــان والحرمــان في
تــابــوتــه وعلى الكــريــم يغــار
آثــرت مصراً منــه بــالشرف الــذي
حســدت قــرافتهــا لــه الأمصــار
وجعلتهــا أمنــابــه ومثــابــة
تــرجــو مثــابــة قصــدهــا الــزوّار
قــد قلــت إن نقلــوه نقلــة ظــاعــن
نــزحــت بــه دار وشــط مــزار
مــاكــان إلاّ السيــف جــدّد غمــده
بســواه وهــو الصــارم البتــار
والبــدر فــارق بــرجــه متبــدّلا
بــرجــابــه تتشعشــع الأنــوار
والغيــث روّى بلــدة ثــم انتــحى
أخــرى فنــوء سحــابــه مــدرار
يــامسبــل الأستار دون جــلالــه
مــاذا الــذي رفعــت لــه الاستــار
مــالي أرى الــزوّار بعــد مهــابــة
فــوضــى ولا أذن ولا استئهار
غضــب الالــه على رجــال أقــدمــوا
جهــلاً عليــك وآخــريــن أشــاروا
لاتعجبــا لقــذار نــاقــة صــالــح
فلكــل دهــر نــاقــة وقــذار

واخجلتا للبيض كيف تطاولت
سفهاً بأيدي السود وهي قصار
واحسرتا كيف انفردت لأعبد
وعبيدك السادات والأحرار
رصدوك في ضيق المجال بحيث لا الـ
ـخطيّ متسع ولا الخطار
ما كان أقصر باعهم عن مثلها
لو كنت متروكاً وما تختار
ولقد ثبت ثبات مقتدر على
خذلانهم لو ساعد المقدار
وتعثرت أقدامهم بك هيبة
لو لم يكن لك بالذيول عثار
أحللت دار كرامة لا تنقضي
أبدا وحل بقاتليك بوار
ياليت عينك شاهدت أحوالهم
من بعدها ورأت إلى ما صاروا
وقع القصاص بهم وليسوا مقنعا
يرضي وأين من السماء غبار
ضاقت بهم سعة الفجاج وربما
نام العدوّ ولا ينام الثار
وتوهموا أن الفرار مطية
تنجي وأين من القضاء فرار
طاروا فمدّ أبو الشجاع لصيدهم
شرك الردى فكأنهم ما طاروا
فتهنّ بالأجر الجزيل وميتة
درجت عليها قبلك الأخيار
مات الوصي بها وحمزة عمه
وابن البتول وجعفر الطيار

نلـــــت السعـــــادة والشهـــــادة والعلى
حيـــــا وميتـــــا إن ذا الفخـــــار
ولقـــــد أقـــــر العين بعـــــدك أروع
لـــــولاه لم يـــــك للعلى استقـــــرار
النـــــاصر الهادي الـــــذي حسنـــــاتـــــه
عـــــن سيئـــــات زمـــــاننـــــا أعـــــذار
ولما استقـــــام لحفـــــظ أمـــــة أحمد
عمـــــرت بـــــه الأوطـــــان والأوطـــــار

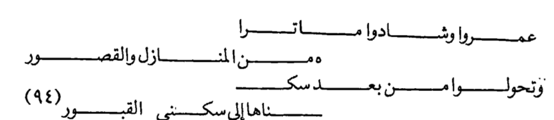
ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين العساكر، وسار إلى قلعة حارم وجصرها، وجدّ في قتالها، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من الفرسان الفرنج وشجعانهم ، واجتمع الفرنج من سائر البلاد وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه إلى ذلك وراسلوه وتلطفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده، وممن كان معه في هذه الغزاة الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لامزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شيرين وكان قد دخله العام الماضي سائرا إلى الحج، فلما دخله عامئذ كتب على حائطه:

لك الحمد يا مولاي كم لك منة
علّي وفضل لايحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلا
من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت اللّه ذي الركن والحجر
فأدّيت مفروضي وأسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

قلت: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضا بمدينة صور وقد دخل دار ابن عقيل فرآها وقد تهدمت وتغيرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات:

احذر من الدنيا ولا
تغتر بالعمر القصير
وانظر إلى آثار من
صرعته منا بالغرور



عمروا وشادوا ما ترا ... ء من المنازل والقصور

وتحولوا من بعد سكـ ... ـناها إلى سكنى القبور (٩٤)

قلت : قال ابن أبي عقيل هذا هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن أبي عقيل، صاحب صور، ويلقب عين الدولة ، مات سنة خمس وستين وأربعمائة، واستولى على صور ابنه النفيس. والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نـور الدين عساكره ودخل بـلاد الفرنج، فنزل بالبقيعـة تحت حصن الأكـراد، وهو للفرنـج عازمـا على دخول بـلادهـم، ومنـازلـة طرابلـس، فبينما النـاس في بعـض الأيـام في خيامهـم في وسـط النهـار، لم يرعهـم إلاّ ظهور صلبـان الفرنـج من وراء الجبـل الذي عليـه الحصن، فكبسـوهم،فأراد المسلمـون دفعهم فلـم يطيقوا فانهزمـوا ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر، وقصـدوا خيمة الملك العادل، فخرج عن ظهر خيمتـه عجلا بغير قباء، فركب فـرساهناك للنوبة،ولسرعته ركبه وفي رجليه شبحـه فنزل إنسان من الأكراد فقطعهـا فنجا نور الدين، وقتل الكردي، فسأل نور الـدين عن مخلفي ذلك الكردي فـأحسن إليهم جزاء لفعله، وكان أكثـر القتلة في السوقة والغلمان، وسـار نور الدين إلى مـدينة حمص، وبينها وبين مكان الـواقعة أربعة فراسخ، وكان النـاس يظنون أنه لايقف دون حلـب، وكان رحمه اللّـه أشجع مـن ذلك وأقـوى عزمـا، ولما نـزل على بحيرة قدس اجتمـع إليه كـل من نجـا مـن المعركـة، فقال لـه بعض أصحابه : ليـس من الرأي أن نقيم هاهنا، فـإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينـا، ونحن على هذه الحال، فوبخـه وأسكته، وقال: إذا كان معـي ألف فـارس فلا أبالي بهم قلـوا أو كثروا، وواللّـه لاأستظل بجدار حتـى أخذ بثار الإسـلام وثأري، ثـم إنه أرسل إلى حلـب ودمشق وأحضر الأموال والـدواب والأسلحة والخيام وسـائر ما يحتاج إليـه الجند، فأكثر وفرق ذلك جميعه على من سلم، وأمـا من قتل فإنه أقر اقطاعه على أولاده، فإن لم يكـن له ولد فعلى بعض أهلـه، فعاد العسكر كأنـه لم يفقد منه أحد، وأمـا الفـرنج فإنهم كانوا عازمين على قصـد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البـلاد إليهم، فلما بلغهم مقـام نور الدين عنـدها قالـوا إنه لم يفعل هذا، إلاّ وعنده مـن القوّة أن يمنعنا، وكان نور الديـن رحمه اللّه قد أكثر الخرج إلى أن قسـم في يوم واحد مائتـي ألف دينار سوى غيرهـا من الدواب والخيـام والسلاح وغير ذلك، وتقـدم إلى ديوانـه أن يحضروا الجند

ويسألو كل واحد منهم عن الذي أخذ منه ، فكل من ذكر شيئا أعطوه عوضه فحضر بعض الجند وادّعى شيئا كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادّعاه ، لمعرفتهم بحالهم، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون إليه القضية ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما إدّعاه، فأعاد الجواب لاتكدروا عطاءنا فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره، وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدارارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا، وقال: واللّه إني لأرجو بأولئك النصر، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لاتخطىء، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم ، فسكتوا.

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة ، فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه،وعادوا إلى بلادهم، وتفرقوا.

قلت: وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد يقول أبو الفرج عبيد اللّه ابن سعد الموصلي نزيل حمص من جملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه اللّه أوّلها:

ظبى المواضي وأطراف القنا الذبل
ضوامن لك ما حازوه من نفل

وكافل لك كاف ما تحاوله
عمرو عزم وبأس غير منتقل

وما يعيبك ما حازوه من سلب
بالختل قد تؤسر الآساد بالحيل

وإنما أخلدوا جبنا إلى خدع
إذا لم يكن لهم بالجيش من قبل

واستيقظوا وأراد اللّه غفلتكم
لينفذ القدر المحتوم في الأزل

حتـــى أتـــوكـــم ولا الماذي مـــن أمـــم
ولا الظبـــى كثـــب مـــن مـــرهـــق عجـــل

قنـــا ألقـــى وقسيّ غير مـــوتـــرة
والخيـــل عـــازبـــة تـــرعـــى مـــع الهمـــل

مـــا يصنـــع الليـــث لا نـــاب ولا ظفـــر
بما حـــواليـــه مـــن عفـــر ومـــن وعـــل

هـــلا وقـــد ركـــب الأســـد الصقـــور وقـــد
سلـــوا الظبـــى تحت غـــابـــات مـــن الاســـل

وإن هـــم أضـــاعـــوا حـــزمهـــم ثقـــة
بجمعهـــم ولكـــم مـــن واثـــق خجـــل

وبني الأصـــافـــر مـــا نلتـــم بمكـــركـــم
والمكـــر في كـــل إنســـان أخـــو الفشـــل

ومـــا رجعتـــم بـــأسرى خـــاب سعيكـــم
غير الأراذل والأتبـــاع والسفـــل

سلبتـــم الجرد معـــراة بـــلا لجم
والسمـــر مـــركـــوزة والبيـــض في الخلـــل

هـــل آخـــذ الخيـــل قـــد أردى فـــوارسهـــا
مثـــال آخـــذهـــا في الشكـــل والطـــول

أم ســـالـــب الـــرمـــح مـــركـــوزا كســـالبـــه
والحرب دائرة مـــن كـــف معتقـــل

جيـــش أصـــابتهـــم عين الكمال ومـــا
يخلـــو مـــن العين إلاّ غير مكتمـــل

لهم بيـــوم حنين أســـوة وهـــم
خير الأنـــام وفيهـــم خـــاتـــم الـــرســـل

سيقتضيكـــم بضرب عنـــد أهـــونـــه
البيـــض كـــالبيـــض والأدراع كـــالحلـــل

ملـــك بعيـــد مـــن الإدنـــاس ذو كلـــف
بـــالصـــدق في القـــول والإخـــلاص في العمـــل

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

ومنها:

فالسمر ما أصبحت والشمس ما أفلت
والسيف ما فل والأطواد لم تزل

وكم تجلت بنور الدين من ظلم
وانجاب ما كان للاضلال من ظلل

قل للمولين: كفوا الطرف من جبن
عند اللقاء وغضوا الطرف من خجل

طلبتم السهل تبغون النجاة ولو
لذتم بملككم لذتم إلى الجبل

أسلمتموه ووليتم فأسلمكم
بثبتة لو بغاها الطود لم ينل

فقام فرداً وقد ولت جحافله
فكان من نفسه في جحفل زجل

في مشهد لو ليوث الغيل تشهده
خرّت لأذقانها من شدّة الوهل

وسط العدى وحده ثبت الجنان وقد
طارت قلوب على بعد من الوجل

يعود عنهم رويداً غير مكترث
بهم وقد كرّ فيهم غير محتفل

يزداد قدماً إليهم من تيقنه
أن التأخر لا يحمي من الأجل

ما كان أقربهم من أسر أبعدكم
لو أنهم لو يكونوا منه في شغل

ثباته في صدور الخيل أنقذكم
لا تحسبوا وثبات الضمر الذلل

ما كل حين تصاب الأسد غافلة
ولا يصيب الشديد البطش ذو الشلل

واللّه عونك فيما أنت مزمعه
كما أعانك في أيامك الأول

كم قد ملكت لهم ملكاً بلا عوض
وحزت من بلد منها بلا بدل
وكم سقيت العوالي من طلى ملك
وكم قريت العوافي من قرا بطل
لا نكبت سهمك الأقدار عن غرض
ولا ثنت يدك الأيام عن أمل

قلت: حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبي في قوله:(غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع) القصيدة، فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم، وهم المنهزمون، وقد أحسنا معا عفا اللّه عنهما، وعبيد اللّه بن أسعد هذا فقيه فاضل وشاعر مفلق، كان مدرساً بحمص يعرف بابن الدهان، وله ترجمة في تاريخ دمشق، وقد ذكره العماد الكاتب في خريدته فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره، وسيأتي ذكره أيضا في هذا الكتاب في أخبار سنة سبعين وست وسبعين وثمان وسبعين إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة ، أعني سنة ثمان وخمسين وخمسمائة توفي عبد المؤمن ابن علي خليفة المهدي محمد بن تومرت ، صاحب المغرب، وولي بعده ابنه يوسف.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ففيها سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى مصر المرّة الأولى، وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النورية، عازما على ملك الديار المصرية، واستضافتها إلى المملكة النورية، وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب، وهو أكبر ابناء شاذي من بلد دوين ،وهي بلدة من آخر بلاد أذربيجان ممايلي الروم، وأصلهما من الأكراد الرّوادية، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد، وقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروزا الخادم وهو شحنة العراق، فرأى في نجم الدين عقلاً ورأيا وحسن سيرة فجعله دزداراً بتكريت ، وهي له فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين ، فلما انهزم أتابك زنكي الشهيد والد نور الدين بالعراق من قراجة الساقي وهو أتابك داود بن السلطان محمود، وذلك زمن المسترشد بالله سنة ست وعشرين وخمسمائة، وصل إلى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب، وأقام له السفن، فعبر دجلة وتبعه اصحابه، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم ،ثم إن أسد الدين قتل انسانا نصرانيا بتكريت لملاحاة جرت بينهما فأرسل مجاهد الدين اليه والى اخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت ، وقيل إن أيوب كان يحسن الرماية فرمى شخصا من مماليك بهروز بسهم فقتله، فخشي على نفسه، فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكي، وقيل لما قتل أسد الدين شيركوه النصراني وكان عزيزا عند بهروز هرب إلى الموصل، والتحق أيوب به وسنوضح هذه القضية إن شاء اللّه تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمان وستين.

ثم إن أيوب وشيركوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعا حسنا، وصارا من جملة جنده ، فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزداراً فيه، فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق نجم الدين ، فأرسل إلى سيف الدين غازي وقد قام بالملك بعد والده ينهي الحال إليه فلم يتفرغ لبعلبك، وضاق الأمر على

من بها، وخاف نجم الدين أن تؤخـذ عنوة ويناله أذى، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعا ذكره، فأجيـب إلى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه، وسلـم القلعة ووفى له بما حلف عليـه من الإقطاع والتقـدّم، وصار عنده من أكابر الأمراء، واتصل أخوه أسـد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتـل الشهيد، وكان يخدمـه في أيام والده ، فقربـه نور الديـن وأقطعه ورأى منه في حروبه ومشـاهده آثاراً يعجز عنها غيره ، لشجاعتـه وجرأته، فزاده إقطـاعاً،وقربـاً حتى صار له حمص والـرحبةوغيرهما، وجعلـه مقدّم عسكره، فلما تعلقت الهمة النـورية، بملك دمشق أمر أسد الـدين فراسل أخـاه نجم الـدين وهـو بها في ذلك،فطلـب منه المسـاعدة على فتحهـا، فأجاب إلى مـايراد منه، وطلب هو وأسـد الدين من نور الـدين كثيرا من الاقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبـذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفى لهما لما ملكها، وصارا عنده في أعلى المنـازل لاسيما نجم الدين فإن جميع الأمراء كـانوا لايقعدون عند نور الدين الا أن يأمـرهم أو أحدهم بذلـك إلا نجم الـدين، فـإنه كان إذا دخـل إليه قعـد من غير أن يـؤمر بذلك.

فلما كان سنـة تسع وخمسين عـزم نور الديـن على إرسال العسـاكر إلى مصر، ولم يـر لهذا الأمر الكبير أقـوم ولا أشجـع مـن أسد الـديـن، فسيره وكان سبب ذلك أن شاوربن مجير أبـا شجاع السعدي، وهو الملقب أمير الجيوش الذي يقول فيه عمارة من قصيدة:

ضجـر الحديـد من الحديـد وشـاور
في نصر آل محمـد لم يضجـر
حلـف الـزمـان ليـأتين بمثلـه
حنثـت يمينـك يـا زمـان فكفـر

وهو وزير الملقب بالعاضد لـدين اللّه آخر المستخلفين بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنـة ثمان وخمسين سادس ربيع الأول إلى نور الـدين،

مستنجدا بـه، على من أخذ منه منصبـه قهراً، وكانت عـادة المصريين أنه إذا غلب شخـص صاحب المنصب، وعجـز صاحب المنصب عـن دفعه وعرفـوا عجزه وقعوا للقـاهر منهم، ورتبوه ومكنـوه، فإن قوّتهم إنما كـانت تكون بعسكـر وزيرهم وهـو الملقب عندهـم بالسلطـان، وما كانـوا يرون المكاشفـة وأغراضهـم مستقيمـة، وقواعـدهم مستقرة مـن أوّل زمانهم على هذا المثـال، وكان شارو قـد غلب على الوزارة وانتـزعها من بنـي رزيك، وقتل العادل بن الصـالح بن رزيك الذي وزر بعد أبيـه، واسمه رزيك، ويلقب بالناصر أيضا، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم ابـن علي من الاسكنـدريـة واستخدمـه بحضرته وبين يـديـه في ديـوان الجيش على ما ذكره عمارة اليمني في كتـاب الوزراء المصرية، وقال: غرس منه للدولـة، بل للملة، شجرة مباركـة متزايدة النماء أصلها ثابـت وفرعها في السماء .

ثم خرج على شـاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضرغـام بن سوار، ويلقب بالمنصور، فجمع له جموعاكثيرة لم يكـن له بها قبل فغلبه وأخرجه، من القاهرة وقتـل ولده طيئا، واستولى على الوزارة، فرحـل شاور إلى الشام قاصداً خـدمة نور الديـن، مستصرخا به ومستنصرا، فأحسـن لقائه وأكرم مثواه، فطلـب منه إرسال العساكـر إلى مصر ليعود إليها، ويكون لـه فيها حصة ذكرهـا له، ويتصرف على أمره ونهيه، واختياره، ونور الـدين يقدّم في ذلك رجلاً ويـؤخر أخرى، تارة يحمله رعـاية قصد شاور وطلـب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنـج، وتارة يمنعه خطر الطريق، وكـون الفرنج فيه إلاّ أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مـع الخوف من الفرنج أيضا، ثم استخار اللـه تعالى وأمـر أسد الـدين بـالتجهز للمسير معـه قضاءاً لحق الوافـد المستصرخ، وحبسا للبلاد، وتطلعـا على أحوالها، وكان هـوى أسد الديـن في ذلك، وكـان عنده مـن الشجاعـة وقوّة النفـس مالا يبـالي معه بمخافة، فتجهز وسار مع شـاور في جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين. هكذا ذكر ابن الأثير والعماد الكاتب.

وقال القاضي ابن شداد: كان ذلك سنة ثمان وخمسين ، والقول في ذلك قولهما، فقد بينا أن قدوم شاور إلى الشام كان في سنة ثمان وخمسين ، وإرسال نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين، .

قالوا: وأمر نور الدين أسد الدين بإعادة شاور إلى منصبه، والانتقام ممن ناوعه في الوزارة ، وساروا جميعا، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الاسلام ممايلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين، ووصل أسد الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة وقتل وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً، وتمكن من منصبه، وكان عمارة قد مدح ضرغاما بقصيدة منها:

وأحق من وزر الخلافة من نشا
في حضرة الإكرام والإجلال
واختص بالخلفاء وانكشفت له
أسرارها بقرائن الأحوال
وتصرف الوزراء عن آرائه
كتصرف الأسماء بالافعال

قال عمارة: ولما جازوا برأسه على الخليج وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة قلت ارتجالا:

أرى حنك الوزارة صار سيفا
يجذ بحده صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى وإلا
بشير بالمنية والمصاب

ولعمارة اليمني من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزارتيه قوله:

فنصرت في الأولى بضرب زلزل ال
أقدام وهي شديدة الإقدام

ونصرت في الأخـــــرى بضرب صـــــادق
أضحـــى يطير بـــه غـــراب الهام

أدركـــت ثـــارا وارتجعـــت وزارة
نـــزعـــا بسيفـــك مـــن يـــدي ضرغـــام

وكان ضرغـام أوّلا من أصحـاب شاور واتبـاعه، وقـد أشار إلى ذلـك عمارة في قوله من قصيدة له:

كـــانـــت وزارتـــك القـــديمـــة مشرعـــا
صفـــواً ولكـــن كـــدّرت غـــدرانها

غصبـــت رجـــال تـــاجـــه وسريـــره
مـــن بعـــد مـــا سجـــدت لـــه تيجـــانها

وله من قصيدة أخرى في شاور:

وزيـــر تمنتـــه الـــوزارة أوّلا
وثـــانيـــة عفـــواً بغير طـــلاب

فخـــانتـــه في الأولى بطـــانـــة ودّه
ورب حبيـــب في قميـــص حبـــاب

وجـــاءتـــه تبغـــي الصلـــح ثـــاني مـــرة
فلـــم يـــرض إلاّ بعـــد ضرب رقـــاب

ولم يغلب وزير لهم وعاد غير شاور، وكـان مدّة أخـذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء، وهـي مدّة الحمل نص عمارة على ذلك، وقال قتـل ولده طـيءٌ يوم الجمعة الثـامن والعشريـن من رمضـان، وجاز رأسـه على رمـح تحت الطيقان والنسـاء يـولـولـن بالصراخ، وكـان فيهـن واحدة تحفظ قولي في الصالح:

أينســـى وفي العينين صـــورة وجهـــه الـــ
ـــكريم وعهـــد الانتقـــال قـــريـــب

فما زالت، تكرره حتى رأت رأس ضرغام

٧٨٦٣

قال: وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر.

قال: وقلت في ذلك:

ونزعت ملكك من رجال نازعوا
فيه وكنت به أحق وأقعدا
جذبوا رداءك غاصبين فلم تزل
حتى كسوت القوم أردية الردى
وبردت قلبك من حرارة حرقة
أمرت نسيم الليل أن لا يبردا
تاريخ هذا نلته في مثله
يوما بيوم عبرة لمن اهتدى
حملت به الأيام تسعة أشهر
حتى جعلن له جمادى مولدا

وله فيه أيضا:

للّه درك موتورا أقضّ به
دست وسرج وأجفان ومضطجع
ما غبت إلاّ يسيرا ثم لحت لنا
والثار مستدرك والملك مرتجع
قضية لم ينل منها ابن ذي يزن
إلاّ كما نلت والآثار تتبع

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور، وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضا، فأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام، فأنف أسد الدين من هذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل نوّابه فتسلموا مدينة بلبيس، وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم،ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر، وكان الفرنج قد

أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فهم خائفون، فلما أرسل شاور إليهم يستنجدهم، ويطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته والمبادرة إلى نصرته، وطمعوا في ملك ديار مصر، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، فتجهزوا وساروا، فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير، سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الأفرنج ليمتنعوا من المسير، فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشدّ من الخطر في مسيرهم، فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس، فاستعان بهم ملك الفرنج، فأعانوه وسار بعضهم معه وأقام بعض في البلاد يحفظها ، فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين، وقصد مدينة بلبيس وأقام بها هو وعسكره، وجعلها ظهراً يتحصن به، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر ، وقد امتنع أسد الدين بها وسوّرها من طين قصير جدّاً، وليس له خندق ولامعقل يحميها، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئا فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس، فحينئذ سقط في أيديهم وأرادوا العود إلى البلاد ليحفظوها ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يدركوها إلاّ وقد ملكها على ما سيأتي بيانه إن شاء اللّه تعالى، وراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام، ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل.

قال ابن الأثير: فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم وبيده لت من حديد يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون، قال: فأتاه فرنجي من

الفرنج الغربـاء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هـؤلاء المسلمون والفرنج قد أحـاطوا بك وبـأصحابك فـلا يبقى لـك معهم بقية، فقـال شيركوه: يـاليتهم فعلـوا حتى كنـت تـرى ما لم تـر مثلـه كنت واللّـه أضع فيهـم السيف فلا أقتـل حتى أقتل رجالا، وحينئـذ يقصدهم الملك العـادل نور الدين وقد ضعفـوا وفني أبطالهم، فيملك بلادهم ويفنـي من بقي منهم، ووالله لو أطاعنـي هؤلاء، يعني أصحابه لخرجت إليكـم أوّل يوم، لكنهم امتنعوا فصلـب الفرنجـي على وجهه وقـال: كنا نعجـب من فـرنج هـذه الديـار ومبالغتهـم في صفتك وخـوفهم منـك، والآن فقد عـذرناهـم، ثم رجع عنه، وسار شيركوه إلى الشام، وعاد سالما.

وقال العماد الكـاتب: وصل شـاور إلى نور الـدين ملتجئا فـألفاه على عدوّه معـديا مشكيا، وسير مـعـه أسد الديـن على قرار عينه، وأمـر بينه، وبغية يـدركها وخطة يملكها، ومحجـة واضحة في الملك يسلكهـا فمضى معه ونصره، وأصفى لـه مشرعه، واسترد له موضعه، وأظهـره بعلوه، وأظفره بعـدوّه، فلما باد خصمـه بـدا وصمه، وغـدر بعهـده، وأخلف في وعـده، وكان قـد راسل الفـرنج وهـاداهم في حـرب الاسلام، فـوصلوا فتحصـن شيركوه ومـن معه بمدينـة بلبيس، فحـاصره شاور بجنود مصر، والفـرنج، ثلاثة أشهر من مستهل رمضان إلى ذي الحجـة، فبذلوا له قطيعة فانصرف عنهم، وعاد إلى الشام، وفي قلبه مـن شرّ شاور الإحن، وكيف تمت بغدره تلك المحن.

قلت: وقـد أشار إلى ذلك عمارة في قولـه في مدح شاور وذكر الأفـرنج فقال:

وأنفـذت مـن مصر عـدوا بمثلـه
فللّـه مـن ظفـر فللـت ونـاب
صـدمـت جموع الكفـر والشـام صـدمـة
أقمـت بها للقـوم سـوق ضراب

قــــد جـــــردت أجنــــــاد مصر عــــزائما
مضــــــاربها في الصخــــــر غير نــــــوابي
تــــولــــوا عـــن الافــــرنـــج فـــادح ثقلهـــا
ودارت رحــــــاهـــــا منهـــــم بهضــــاب
أقــــامـــــت دروع الجنـــــد تسعين ليلـــــة
ثيـــابــــا لهم مــــابـــــدلـــت بثيـــاب
وهـــــم بين مطـــــروح هنـــــاك وطـــــارح
وبين مصيـــــب خصمــــــه ومصــــاب

وقال القاضي ابن شداد: سار أسد الدين إلى مصر واستصحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وجعله مقدّم عسكره، وصاحب رأيه، وكان لايفصل أمراً ولايقرّر حالا إلاّ بمشورته ورأيه، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة ، والفكرة الصحيحة، واقتران النصر بحركاته وسكناته، فساروا حتى وصلوا مصر، وشاور معهم، وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم، وخافه أهل مصر، ونصر شاورا على خصمه، وأعاده إلى منصبه ومرتبته، وقرر قواعده، وشاهد البلاد وعرف أحوالها، وعلى أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال، وكان ابتداء رحيله عنها، متوجهاً إلى الشام في السابع من ذي الحجة، فأقام بالشام مدبراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية، محدّثا بذلك نفسه، مقرراً لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين.

قلت: ولفعل شاور ما فعل مع أسد الدين وصفه الشعراء بالغدر، ووقعوا فيه قبل قتله وبعده على ما سنذكره، وبقي متخوفا من أسد الدين، فقال عرقلة الكلبي من جملة قصيدة له:
وهـــــل هـــمّ يـــــومــــاشيركـــوه بجلـــق
إلى الصيــــــد إلاّ ارتـــــاع في مصر شـــــاور
هـــــو الملــــك المنصـــــور والاســـد الـــذي
شـــــذا ذكـــــره في الشرق والغـــــرب ســـــائر

وفيها في ذي الحجة احترقت جيرون بعد رجوع أسد الدين إلى دمشق، فقال العرقلة يمدحه ويذكر ذلك:

جار صرف الردى على جيرون
وسقى أهلها كؤوس المنون

أصبحت جنة وامست جحيما
تتلظى بكل قلب حزين

كيف لا تذرف الدموع عليها
وهي في الشام نزهة للعيون

حبذا حصنها الحصين لقد كا
ن جمالا لكل حصن حصين

أي سيف سطا على دار سيف
وزبون أتى بحرب زبون

خلت نيرانها وكل ظلام
نار ليلى تلوح للمجنون

كم غني اليمين أمسى فقيرا
وفقير أمسى غني اليمين

كل حين لها حريق جديد
ليت شعري ماذا لها بعد حين

كل هذا البلاء عاقبة الفسـ
ـق وشرب الخمور والتلحين

ولقد ردّها بعزم وحزم
أسد الدين غاية المسكين

وحمى الجامع المقدس والمشـ
ـهد من جمرها بماء معين

ملك فعله بدجلة والبا
ب فعال الامام في صفين

- ٧٨٦٨ -

فصل
في فتح حارم

قال العماد الكاتب: وفي تلك السنة ، يعني تسع وخمسين ، اغتنم نور الدين خلوّ الشام من الفرنج ،وقصدهم واجتمعوا على حارم، فضرب معهم المصاف فرزقه اللّه تعالى الانتقام منهم، فأسرهم وقتلهم، ووقع في الاسار برنس أنطاكية وقومص طرابلس، وابن لجوسلين، ودوك الروم، وذلك في رمضان(٩٥).

وقال في الخريدة: كانت نوبة البقعية نوبة عظيمة على المسلمين، وأفلت نور الدين في أقل من عشرة من عسكره، ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم، وقتل في معركة واحدة منهم عشرين ألفا، وأسر من نجا، وأخذ القومص والابرنس والدوقس وجميع ملوكهم، وكان منحا عظيما وفتحا مبينا.

قال ابن الأثير: والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزما على ما سبق من غزوة ناحية حصن الأكراد، أقبل على الجدّ والاجتهاد والاستعداد للجهاد والأخذ بثأره وغزو العدوّ في عقر داره، وليرتق ذلك الفتق ويمحو سمة الوهن ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن، ونجم الدين ألبي بماردين، وغيرهم من أصحاب الأطراف، أما قطب الدين أتابك فإنه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدّمة عسكره زين الدين نائبه، وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك، وكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة ، فقال له أولئك: ما

عدا مما بدا فارقناك بالأمس على حال، ونرى الآن ضدّها ؟ فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، واخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعون عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويلعنوني ويدعون عليّ، فلا بدّ من إجابة دعوته، ثم تجهز أيضا، وسار إلى نور الدين بنفسه، وأما نجم الدين ألبي فإنه سير عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالساحل لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا ومقدّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين ، وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها والدوك، وهو رئيس الروم ومقدّمها ، وجمعوا معهم من الراجل ما لايقع عليه الإحصاء قد ملأوا الارض وحجبوا بقسطلهم السماء، فحرض نور الدين أصحابه، وفرّق نفائس الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح ، وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه، فساروا حتى نزلوا على عم، وهو في الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغم، ثم تيقنوا أنهم لاطاقة لهم بقتاله، ولاقدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير، وتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الفرنج بالحملة ، وكانت على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين، ، فبدّدوا نظامهم وزلزلوا أقدامهم وولوا الأدبار، وتبعهم الفرنج، وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه ومكر بالعدو مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجؤون.

إليه، ويعـود المنهزمون في اثـارهم، وتأخذهـم سيوف اللّه مـن بين أيديهم ومن خلفهـم، فكان الأمر على مـا دبروا، فـإن الفرنج لما تبعـوا المنهزمين، عطف زين الـدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفنـاهم قتلا وأسراً، وعادت خيـالتهم ولم يمعنوا في الطلب خـوفاً على راجلهم، مـن العطب، فصادفـوا راجلهم على الصعيـد معفرين وبـدمائهـم مضرجين، فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قـد ضلوا، وخضعت رقـابهم وذلوا، فلما رجعـوا عطف المنهـزمـون أعنتهم وعـادوا، فبقـي العـدوّ في الـوسط، وقـد أحـدق بهم المسلمون من كل جانـب ، فحينئذ حمي الوطيس، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس ، وقاتلوا الفـرنج قتال من يرجو باقدامـه النجاة، وحاربوا حرب مـن أيس مـن الحياة، وانقضـت العساكـر الإسلاميـة، عليهم انقضـاض الصقور على بغاث الطيور، فمـزقوهم بدداً وجعلوهم قدداً فـألقى الفرنج بأيـديهم إلى الاسار، وعجـزوا عن الهزيمـة والفرار، وأكثـر المسلمون فيهـم القتـل، وزادت عـدة القتلى على عشرة آلاف، وأمـا الاسرى فلـم يحصـوا كثرة، ويكفيك دليـلا على كثرتهم أن ملوكهم أسروا، وهـم الذيـن من قبل ذكروا.

وسار نور الـدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكهـا في الحادي والعشرين مـن شهر رمضـان، وأشار أصحـابه عليـه بالمسير إلى أنطـاكية، ليملكهـا لخلوهـا ممن يحميها ويـدفع عنها، فلـم يفعل ، وقال: أمـا المدينة فأمـرها سهل وأمـا القلعة التـي لها فهي منيعـة، لاتؤخـذ إلاّ بعد طـول حصار، وإذا ضيقنـا عليهـم أرسلوا إلى صـاحـب القسطنطينيـة وسلموهـا إليـه، ومجاورة بيمنـد أحب إليّ مـن مجاورة ملـك الـروم،وبث سرايـاه في تلـك الاعمال والولايـات فنهبوا وسبـوا ، وأوغلوا في البلاد حتـى بلغوا الـلاذقية والسويدا وغير ذلك ، وعادوا سالمين.

ثم إن نور الديـن أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جـزيل أخذه منه وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم.

- ٧٨٧١ -

وقال الحافظ أبو القاسم: كسر نور الدين الروم والأرمن والفرنج على حارم، وكان عدّتهم ثلاثين ألفا.

قال: ووقع بيمند في أسره في نوبة حارم، وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد.

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه اللّه لما التقى الجمعان أو قبيله إنفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل ، ومرّغ وجهه وتضرّع وقال: يارب هؤلاء عبيدك، وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك فانصر أولياءك على أعدائك، ايش فضول محمود في الوسط،يشير إلى أنك يارب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر، وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك، ولاتنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر، وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم اللّه به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه، كما سبق، وهذا من عجيب ما وقع واتفق.

فصل

في ذكر وزير الموصل جمال الدين الجواد الممدح ووفاته في هذه السنة رحمه الله

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنفاته، وأثنى عليه ثناء عظيما حسنا،فمما ذكرله في كتابه الموسوم بنصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الوزراء السلجوقية، أن قال: ذكر جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي، وهو صاحب الوزير شمس الملك بن نظام الملك، وكان أبوه أبو منصور فهادا في عهد السلطان ملكشاه بن الب أرسلان، وابنه الكامل أديب لبيب وزادت أيامه في السمو وأيامنه في النموّ، حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء وقد كان زوج بنتا له ببعض أولاد أخوال العزيز، يعني عم العماد الكاتب.

قال: فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد، وخرجه في الادب، ودرّجه في الرتب، فأوّل مارتبه في ديوان العرض السلطاني المحمودي، وغلب في تحليته ذكر الأبلج، فنعته الأتراك بالأبلج، واستقام في نجابته على المنهج، واتفق أنه لما تولى زنكي بن آق سنقر الشام تزوّج بامرأة الأمير كيدغدي وولدها خاص بك بن كيد غدي من أمراء الدولة وأبناء المملكة، وهو يسير معها فرتبه العزيز لخاصبك وزيرا، فسار في الصحبة وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة، شهي الحشاشة، بهي البشاشة، فتوفرت منى زنكي على منادمته، وقصر صباحه ومساءه على مساهمته، وعوّل عليه آخر عمره في إشراق ديوانه، وزاد المال وزان الحال، بتمكينه ومكانه، فلم يظهر لجمال الدين في زمان زنكي جود، ولاعرف له موجود، فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته، ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي استبقاء لجاهه، واستعلاء به

على أشباهه، فمكنه زنكي من أصحاب ديوانه، فمنهم من استضرّ باساءته ومنهم من انتفع بإحسانه، ولما قتل زنكي صار للدولة الاتابكية ملاذا، وللبيت الأقسنقري معاذا، واستوزره الأمير غازي بن زنكي، وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومظافرته، وجرى بين جمال الدين وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي، التعاقد على التعاضد، والتعاهد على التساعد، وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولى فعاش بنداه الجواد، وغشا إلى ناديه الوفود، وعادت به الموصل قبلة الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سعوده، وسارت في الآفاق صنائع جوده، وعمر الحرمين الشريفين، وشمل بالبر أهلهما، وجمع بالأمن شملهما، و أجرى بحر السماح، ونادى حي على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح، وأتوا إليه من كل فج عميق، وقصد من كل بلد سحيق، فقصده العظماء، ومدحه الشعراء، وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفي المعروف بحيص بيص، قال: وأنشدني لنفسه فيه قصيدة أوّلها:

يا للصوارم والرماح الذبل
نصراً ومن أنجدتما لم يخذل

لوشئتما ومشيئة بمشيئة
جاد الزمان وبالعلى لم يبخل

فأقني فخارك يا مجاشع واعلمي
أني لكم من همتي في جحفل

أنا فارس اليومين يوم مقالة
ووغى أصول بصارمي وبمقولي

ظلمت فضائلي المقاول مثل ما
ظلمت جمال الدين مأوى العيل

مدحوه كي يحووا مناقب نفسه
فطمت فسالت بالمدائح من عل

فأتيت ابذل ما استطعت ومن يرد
نقل الخضم إلى المزادة يخجل

شمس من الاحسان عم ضياؤها
بل آية جاءت بحجة مرسل
يعطي الجزيل لسائلي معروفه
ويجود بالنعمى إذا لم يسئل
وتزيده شوس الخطوب طلاقة
فيكون أبسم ما يرى في المعضل
ثقلت به الأعناق من منن الندى
فالهام مطرقة لذاك المثقل
فإذا تلاقى الناس كان حديثهم
عن كل جفن بالخجالة مسدل
أسراء معروف الوزير فكلهم
عاف تراه مطلقا كمكبل
من سمرقند إلى تهامة شاهد
فضل الجمال على الحيا المتهلل
السحب تمطر ما تظل وجوده
يسري ودار مقامه بالموصل
وتقرّ عين محمد بمحمد
محيي دريسي علمه والمنزل
معمار مرقده وحافظ دينه
ومعين أمته بجود مسبل
جعل المدينة مصر ربعا آهلا
نشوان يمرح بالنعيم المحصل
فكأنها بالخصب من قرباته
بلد على شط الفرات السلسل
فلو أنه في عصره نزلت له
في مدحه سور الكتاب المنزل
عبد أخ في ضيفه ووداده
لا يستحيل وسيد في المحفل

خـــــرّق نيـــــاط قميصـــــه ورداؤه
بعبـــاب زخـــار وهضبـــة يـــذبـــل

قـال العماد: وكنـت أنـا في ذلـك العهـد متفقهـا في بغـداد، واتفـق حضـوري بـالموصل، سنـة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فحضرت عنـد جمال الديـن بالجامع في جمعتين، وتكلمت عنـده مع الفقهاء في مسـألتين، ومما مدحته به قصيدة أوّلها:

أظنهـــم وقـــد عـــزمـــوا ارتحالا
ثنـــواعنـــا جمالا لا جمالا
سروا والصبـــح مبيـــض الحواشي
فلما حـــال عهـــد الـــوصـــل حـــالا
هـــم اعتـــادوا الملال فكيـــف ملـــوا
وصـــالهم ومـــا ملـــوا الملالا
أحـــادي عيسهـــم بـــاللّـــه رفقـــا
فـــإن السير أورثهـــا الكـــلالا
وعـــج نحـــو الأراك بها فـــإني
أراه لاجتماع الشمـــل فـــالا
سقـــى صـــوب الحيـــا تلعـــات نجـــد
وحيـــا بـــالحمـــى تلـــك التـــلالا
أخـــلائي وهـــل في النـــاس خـــل
بـــه أخلـــو مـــن الأحـــزان بـــالا
لئـــن لم أشـــف صـــدري مـــن حســـودي
ولم أذق العـــدى داء عضـــالا
فـــلا أدركـــت مـــن أدبي مـــرادا
ولا صـــادفـــت مـــن حسبـــي منـــالا
ولا وخـــدت إليكـــم بي جمال
ولا واليـــت مـــولانـــا الجمالا
هـــو المغنـــي إذا مـــا المرء أقـــوى
هـــو المنجـــي إذا مـــا الخطـــب هـــالا

وقائلة أفي الدنيا كريم
سواه فقلت: لا وأبي العلالا
أطلت على الورى كرماً وفخراً
كذلك من حوى هذين طالا
وخرت المجد عن كسب وارث
فيا صدر الورى خرت الكمالا
خصصت بكل منقبة وفضل
تعالى من حباك به تعالى

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه منهم العرقلة له قصيدة منها:
يهوى تجنيه والصدور كما
يهوى المعالي محمد بن علي
جمال دين الإله خير فتى
للرزق أقلامه وللأجل
معطي القرى والقرى لقاصده
من غير منّ والخيل والخول
مثل فتوح الفاروق نائله
شرقا وغربا في السهل والجبل
من قال لم يحوذا ويسكن ذا
أصبح مما يقول في خجل
محمد خاتم الكرام كما
سميه كان خاتم الرسل

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة:
كسى الحرمين لبسة عبد شمس
وهاشم غرّتي نسل الخليل
وللبلد الأمين أجدّ أمنا
تكنف مثله جدث الرسول

عشيتم يا ولاة الأمر عما
أتيح له من الأثر الجميل
وطار لها وأشفقتم فشدا الـ
ـسيدين على عرى المجد الأثيل
بيوت بالحجاز مقدّسات
رماها الدهر بالخطب الجليل
وكان إذا الهنّ فصاب صونا
لمن آوته من ولد البتول
مآثر باقيات يوم يجنى الـ
ـمقال ويجتنى طيب المقيل
وكم للموصل الحدباء مما
تنيل يداه من ريف ونيل
برود الصفح ملتهب الحواشي
مهيب البطش فراس الدخول

ولأبي المجد قسيم الحموي فيه من قصيدة:
أغر يبصر منه الناس في رجل
والليث في بشر والبدر في غصن
سما بهمته في المكرمات إلى
علياء يقصر عنها هامة الزمن
يلقاك واضح ليل الفكر راجح نيـ
ـل الكف طاهر ذيل السر والعلن
ماضي العزيمة ميمون النقيبة ريـ
ـبال الكتيبة عين القائل اللسن
إذا تكلم واستحليت غرته
في محفل رحت حالي العين والأذن
كأن في الدست منه حين تنظره
شمس النهار وصوب العارض الهتن

قال ابن الاثير: وفيها في شعبان من هذه السنة وهي سنة تسع

وخمسين وخمسمائة توفي الـوزير جمال الديـن محمد بن علي بـن أبي منصور الأصفهاني، كان قد خدم الشهيد فـولاه نصيبين، وظهرت كفايته فأضاف إليه الـرحبة، فأبـان عن كفايـة وعفة، وكـان من خواصـه، فجعله مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكيما لامزيد عليه حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضيـاء الدين بـن الكفرتوثـي يحكي عـن جمال الدين قـال: كان يدخل إلى أتـابك قبلي، ويخرج بعدي،ولم يزل كذلـك إلى أن قتل الشهيد، ثم وزر لولـدي الشهيد سيف الديـن، ثم قطب الديـن، وكان بينه وبين زين الـدين علي كـوجك عهـود ومواثيـق على المصافـاة والاتفاق، وكـان أصحاب زيـن الديـن يكرهونـه، ويقعون فيـه عند زين الـدين فنهـاهم، وكانت الموصل في أيـامه ملجأ لكل ملهوف، ومأمنـا لكل خائف، فسعى به الحساد إلى قطب الـدين حتى أوغروا صدره عليه، وقالوا لـه: إنه يأخذ أموالك فيتصدّق بها، فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين، فوضع عليـه زين الدين من غيره عن مصافاتـه ومواخاته، فقبض عليه قطب الدين وأصحابه كـانوا يخافون جمال الدين، فلما قبض تبسطوا في الأمر والنهـي، على خلاف غـرض زين الديـن، فبقي جمال الـدين في الحبـس نحواً مـن سنة، ثـم مرض ومضـى لسبيله عظيـم القدر والخطـر، كريم الـورد والصدر، عديم النظير في سعة نفـس، لم يرو في كتب الأوّلين أن أحدا مـن الوزراء اتسعـت نفسه، ومروءتـه لما اتسعت لـه نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوّة، كامل المروّة.

قال ابن الأثير : حكى لي جماعة عن الشيـخ أبي القاسم الصوفي، وهو رجل من الصالحين، كان يتولى خدمـة جمال الدين في محبسه، قال: لم يزل الجمال مشغـولا بأمـر آخرتـه مدّة حبسـه، وكان يقـول: كنت أخشـى أن أنقل مـن الدست إلى القبر، قال: فلما مـرض قال لي بعض الأيام: يـا أبا القـاسم إذا جـاء طـائر أبيض إلى الـدار فعـرفنـي، فقلت في نفسي: قـد اختلط الرجـل، فلما كان الغداة أكثر السؤال عن ذلـك الطائر وإذا طائر أبيض لم ير مثلـه قد سقط، فقلت لـه: قد جاء الطائر، فـاستبشر، ثم قال،

جاء الحق، وأقبل على الشهادة، وذكر اللّه تعالى، وتوفي فلما توفي طار ذلك الطائر، قال: فعلمت أنه رأى شيئا في معناه، ودفن في الموصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسم: إن بيني وبين أسد الدين شيركوه عهداً من مات منا قبل صاحبه حمله الحيّ إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فدفنه بها في التربة التي عملها، فإن أنا مت فامض إليه وذكره، فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في هذا المعنى، فأعطاه مالاً صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل، وقدوم مدينة تكون في الطريق، وينادون في البلاد بالصلاة على فلان، ففعلوا ذلك فكان يصلى عليه في كل مدينة خلق كثير، فلما كان في الحلة اجتمع الناس للصلاة عليه، فإذا شاب قد ارتفع إلى موضع عال ونادى بأعلى صوته:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما ... سرى بره فوق الركاب ونائله
يمرّ على الوادي فتثني رماله ... عليه وفي النادي فتبكي أرامله

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم ، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم،وحملوه إلى المدينةفصلوا عليه أيضا ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها، وبينه وبين قبر النبي صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ذ راعا.

قلت: كذا قال ابن الاثير، ولقد رأيت المكان، ولعله أراد الحائط الشرقي من مسجد النبي صلى اللّه عليه وسلم، لانفس القبر الشريف زاده اللّه شرفا وصلى على ساكنه.

ثم قال: كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلا للمال، رحيما بالناس ومتعطفا عليهم عادلاً فيهم، فمن أعماله

الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى، وغرم عليه أموالا عظيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة، وزخرف الكعبة بالذهب والنقرة، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة، ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر اللّه هدية جليلة حتى أذن فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى ابن هاشم خلعاً سنية وهدية كثيرة حتى مكنه منه، وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم، وعمل بعرفات مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نعمان في طريق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس ، فغرم على ذلك مالاً كثيراً، وكان يعطي أهل نعمان كل سنة مالا كثيرا ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحجاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة.

قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعا أنه بنى سورا على مدينة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضنك وضر معهم، رأيت بالمدينة إنسانا يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له، لأننا كنا في ضر وضيق ونكد عيش مع العرب، لايتركون لأحد منا ما يواريه ويشبع جوعته، فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا فكيف لاندعوله.

قال: وكان الخطيب في المدينة يقول في خطبته: اللهم صن حرم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن علي بن أبي منصور، قال: فلو لم يكن له إلاّ هذه المكرمة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها.

وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء

سـوى الإدرارات والتعهدات قـال: كـان له كـل يـوم مـائة دينار أميريـة يتصدّق بها على باب داره.

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم يـر الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلـة عنـد جزيـرة ابـن عمـر بـالحجـر المنحوت والحديـد والـرصـاص والكلس، إلاّ أنـه لم يفرغ لأنـه قبض قبل فـراغه، وبنـى أيضا جسرا على نهر الباريـا عند الجزيـرة أيضا، وبنـى الربـط بالموصـل وسنجار ونصيبين وغيرهـا، وقصـده النـاس مـن أقطار الأرض، ويكفيـه أن صـدر الـديـن الخجنـدي رئيس أصحـاب الشـافعي رضي اللّـه عنـه بـأصبهان ، وابـن الكافي قـاضي قضاة همذان قصداه، فـأخرج عليهما مـالاً جزيلا وكـذلك غيرهما مـن الصدور والعلماء ومشـايـخ الصـوفية ، وصـارت الموصـل في أيـامـه مقصـداً وملجـأ، وكـان أحـب الاشيـاء إليــه إخـراج المال مـن الصدقات، وكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدق.

حكـى لي والدي قـال: كنت يـوما عنـده وقد أحضر بين يـديه قنـدز ليعمل على وبـر ليلبسه بخمسة دنـانير، فقال: هـذا الثمن كثير اشتروا لي قندز بدينارين وتصدّقوا بثلاثة دنانير، قال: فراجعناه غير مرّة، فلم يفعل.

قـال: وحكـى لي من اثـق إليـه مـن العـدول بالموصـل: أن الأقـوات تعذرت في بعـض السنين بها، وغلت الأسعـار، وكان بـالموصل رجـل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملاء فـأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا وقال لـه: تخرج هذا على مستحقيه، وكلما فـرغ أرسل إلي لأنفـذ غيره، فلم يمض إلاّ أيـام يسيرة حتى فـرغ ذلك المال لكثـرة المحتاجين، فـأنفذ لـه شيئا آخـر ففني، ثم أرسـل يطلب ما يخرجه فقـال جمال الدين للـرسول: واللّـه ما عنـدي شيء ولكـن خذ هـذه المحـافير التـي في داري فبيعوهـا وتصدّقوا بثمنهـا إلى أن يأتيني شيء آخر فنرسله إلى الشيـخ عمر، فبيعت المحافير وتصدقـوا بثمنها، وعرّفوه ذلك فلـم يكن عنده ما يرسلـه فأعطاه

ثيابه التي كـان يلبسها مع العمامة التي كانـت على رأسه، وأرسل الجميع وقال للـرسول: قـل للشيخ لايمتنع مـن الطلب فهـذه أيام مـواساة، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدّق بثمنها.

قال: وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل قـال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق إلى مسجد الوزير وهـو بظاهر الموصل واقعـد هناك، فإذا أتاك شيء فـأحفظه إلى أن أحضر عندك ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالا من النصـافي والخام، وإذا قد جـاء نائب جمال الـدين مـع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمال فقال لي: تأخذ هـذه الأحمال وتسير إلى الرحبـة فتـوصل هـذه الـرزمـة وهذا الكتـاب إلى متوليهـا فلان، فإذا احضر لـك فلانا العـربي ، فتوصـل إليه هذه الـرزمة وهذا الكتـاب وهكذا إلى المدينـة على ساكنهـا أفضل الصـلاة والسلام، توصـل إلى وكيلي فلان هـذه الأحمال وهذه الكسـوات والمال الذي عليـه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم يأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة ويسير إليها فيتصدق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى.

قـال: فسرنا كـذلك إلى وادي القـرى فرأينـا به نحـو مائة جمل تحمـل الطعام إلى المدينة وقـد منعهم خوف الطريق، فلما رأونا سـاروا معنا إليها فوصلنـاها والحنطـة بها كل صاعين بـدينار مصري، والصـاع خمسة عشر رطلاً بـالبغدادي، فلما رأوا الطعـام والمال اشتروا كل سبعـة آصع بـدينار، فانقلبت المدينة بالدعاء له، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا.

قال: وحكى لي والدي قال: رأيت جمال الـدين وقد حضر عنده رجل فقيـه، قبل أن يصير وزيـراً فطلـب منـه شيئا وتـردّد إليـه عـدة أيام، ثـم انقطع فسأل عنه فقيل إنه سافر فشق ذلك عليه، ثم قال: هكذا ينصرف الأحرار عـن دور الكلاب ، وردّد ذلك غير مرة، ثـم سأل عنه.فقيـل إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين.

قال: ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت، وهي ظاهرة لاتحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها.

وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب الإعتبار فقال: اجتمعت بجمال الدين الموصلي سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأنا متوجه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة، وعشرة ومؤانسة فعرض عليّ الدخول إلى داره في الموصل فامتنعت ونزلت بخيمتي على الشط فكان مدّة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى، وأتابك قد ركب إلى الميدان وينفذ إليّ يقول: أركب فأنا واقف أنتظرك، فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث، فوجدت يوما منه خلوة من أصحابي فقلت له: في نفسي شيء يتردّد من حيث اجتمعنا اشتهي أن أقوله لك وما يتفق لي خلوة، وقد خلونا الساعة، قال: قل ، قلت :أقول ما قاله الشريف الرضي:

ما ناصحتك خفايا الودّ من أحد ... ما لم يصبك بمكروه من العذل

مودّتي لك تأبى أن تسامحني ... بأن أراك على شيء من الزلل (٩٦)

وقد بسطت يدك في إنفاق المال في الصدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولاتصبر نفوسهم عليه، ولو أن الانسان يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه، فأطرق ساعة، وقال: جزاك اللّه خيراً لكن الأمر قد عبر عما تخافه،ففارقته وسرت إلى الحجاز وعدت من مكة على طريق الشام، ونكب جمال الدين ومات في الحبس.

قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشاتاني في هذا الوزير الجواد لما نكب:

مـــا حـــط قـــدرك مـــن أوج العلى القـــدر
كـــلا ولا غيرت أفعـــالـــك الغير
أنـــت الـــذي عـــم أهـــل الأرض نـــائلـــه
ولم ينـــل شـــأوه في ســـؤدد بشر
ســـارت صفـــاتـــك في الآفـــاق واتضحـــت
وصـــدّق السمـــع عنهـــا مـــا رأى البصر
فـــاصبر لصرف زمـــان قـــد منيـــت بـــه
فـــآخـــر الصبر يـــا طـــود النهـــى الظفـــر
فما تـــرى أحـــدا في الخلـــق يسلـــم مـــن
صروف دهـــر لـــه في أهلـــه غير
سعـــوا بقصـــدك سرا واستتـــب لهم
ولـــو سعـــوا نحـــوه جهـــراً لما قـــدروا
لـــولا الأمـــاني التـــي تحيـــى النفـــوس بها
لمت مـــن لـــوعـــة في القلـــب تستعـــر

ومنها في ذكر الشيخ عمر الملاء:
وأصـــدق النـــاس في حفـــظ العهـــود إذا
ميـــزت بـــالفكـــر أحـــوال الـــورى عمـــر
الـــزاهـــد العـــابـــد البرّ التقـــي ومـــن
يـــزوره ويقـــوّي أزره الخضر

وقال العرقلة يرثي جمال الدين الوزير والصالح بن رزيك:
لا خير في الـــدنيـــا ولا أهلهـــا
بعـــد جمال الـــديـــن والصـــالـــح
بحـــران لـــولا دمـــع بـــاكيهما
مـــا كـــان مـــاء البحـــر بـــالمالـــح

قال ابنِ الأثير: قال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام الشهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها والمحاققة فيها ما

يـدل على تمكنه مـن الكفايـة ، فلما وصل الأمـر إلى الملك قطـب الديـن مودود بن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيـره حينئذ،وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين في الـدولة تمكنا عظيما ، وتقدم عنـد قطب الديـن جماعة من أصحابه فكان جمال الدين مـع تمكنه وعلوّ محله يهمل بعض الأمور ، قال: فقلـت له يـوما:أيـن تلك الكفـاية التـي كنا نـراها منـك في الأيام الشهيـدية، مـا أرى الآن منها شيئـا؟ فقـال لي: والآن ما عنـدي كفايـة؟ فقلـت: ما هـذا العمل مـن ذلك بشيء، فقـال: أنت صبـي غرّ ليسـت الكفـاية عبـارة عـن فعـل واحد في كـل زمـان، إنما الكفـاية أن يسلـك الانسان في كـل زمان ما يناسبـه ، ذلك الوقـت كان لنا صاحـب متمكن قـوي العـزم لايتجـاسر أحـد على الاعتراض عليــه، ولا يتلـوّن بـأقـوال أصحابـه، فحفظناه فكان مـا أفعله هو الكفـاية ، وأما الآن فلنـا سلطان غير متمكن ، وهو محكوم عليه، فهذا الذي أفعله هو الكفاية.

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

قال ابن الأثير : فيها فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم، وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجداً إلى بانياس، لعلمه بقلة من فيها من الحماة، المانعين عنها، ونازلها وضيق عليها وقاتلها، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لوكشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى، وجدّ في حصارها، وسمع الفرنج بذلك، فجمعوا فلم تتكامل عدّتهم حتى فتحه اللّه تعالى، على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدّة ورجالا عدّة، وعاد نور الدين إلى دمشق وفي يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر فسقط من يده في شعراء بانياس وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان، فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه، وقال: أظنه هناك ضاع، فعادوا إليه فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشاميين وأظنه، أحمد بن منير من جملة قصيدة يمدحه بها ويهنيه بهذه الغزاة وعود الفص الياقوت:

إن يمتر الشكاك فيك فإنك الـ
مهدي مطفي جمرة الدجال

فلعودة الجبل الذي أضللته
بالامس بين غياطل وجبال

مسترجعا لك بالسعادة آية
ردت مطال الفال غير مطال

لم يعطها إلا سليمان وقد
نلت الوفاء بموشك الاعجال

زجــــرجـــــرى لسريـــــر ملكــــك إنـــــه
كسريـــــره عــــن كـــل جــــدر عـــــال
فلـــو البحـــــار السبعــــة استهــــوينــــه
وأمــــــرتهنّ قـــــــذفنـــــــه في الحال

قلت: هذه الابيات لابن منير بلاشك، ولكن في غير هذه الغزاة، فإن ابن منير قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين، وفتح بانياس كما تراه في سنة ستين، وقد قرأت في ديوان ابن منير وقال: يمدحه ، يعني نور الدين ويهنيه بالعود من غزاة وضياع فص ياقوت جبل من يده، لاشتغاله بالصيد، شراه ألف ومائة دينار، وفي نسخة : ووجد أن خاتم ضاع منه في الصيد قيمته ألف ومائة دينار، وأنشده إياها بقلعة حمص فذكر القصيدة أوّلها :(يوماك يوم ندى ويوم نزال)

يقول فيها:

أخــــرســــت شقشقــة الضـــــلال وقـــدتـــه
قــــود الـــــذلـــــول أطـــــاع بعــــد صيـــــال
ورميــــــــــت دار المشركين بصيلــــــــــم
القحــــت فيهـــــا الحرب بعــــد حيـــــال
وسعــــــرت بين تـــــريبهـــــم وتـــــرابهم
ذعــــرا يشيـــــب نـــــواصي الاطفـــــال
فـــوق الخطيــــم وقـــد خطمـــت زعيمهـــم
ضربـــــا ســــــوابقـــــه بغير تـــــوالي
ضربـــــا مـــــلأت فـــرنجـــة مــــن جــــرّه
رهبـــاً بـــه سيـــف الصقـــالـــب صـــالي
وبفـــج حـــــارم أحـــرمـــت لقـــــراعهـــم
هيــــم أحلـــــن النـــــوم غير حـــــلال
عجمــــوا على جسر الحديــــد حـــديـــدهـــا
نبعـــــا يعـــــاذمـــــه أديـــــر دصـــــال

زلـــزلـــت أرضهـــم بـــوقـــع صـــواعـــق
أعطيننـــا أمنـــا مـــن الـــزلـــزال
في مـــأزق شمـــرت ذيلـــك تحتـــه
والنصر فـــوقـــك مسبـــل الاذيـــال
في دولـــة غـــراء محمـــوديـــة
سحبـــت رداء الحمـــد غير مـــذال
تنسي الفتـــوح وتجتنـــي
زهـــر المقـــال ببـــاهـــر الأفعـــال
لبســـت بنـــور الـــديـــن نـــور حـــدائق
ثمـــراتهن غـــرائب الافضـــال
ملـــك تحجـــب في السريـــر بـــزأرة
زرّت حـــواشيهـــا على ريبـــال
تنجـــاب عـــن ذي لبـــدتين شـــذاتـــه
في بـــردتي بـــدل مـــن الأبـــدال
رفـــع الـــرواق بـــروق أنطـــاكيـــة
فـــرمـــى الخليـــج بمـــرهـــق البلبـــال
بـــدر لأربـــع عشرة أقتبـــس السنـــا
مـــن خمس عشرة ســـورة الأنفـــال
فـــوز المآل أخـــاضـــه مـــاء الطلى
وســـواه يقعـــده احتيـــاز المال
متقســـم بين القسيمين العلى
عـــن عـــمّ عـــم أو مخايـــل خـــال
لازلـــت تطلـــع مـــن ثنـــايـــا جحفـــل
يقفـــو لـــواءك كـــاللـــوى المنهـــال
لـــك أن تطـــل على الكـــواكـــب راقيـــا
ولحاســـديـــك بكـــا على الأطـــلال

ومما يناسب هذه السعادة في وجدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتم عظيم

القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع فألح عليه فيه فحنق الرشيد ومرّ على جسر بغداد فرماه في دجلة ، فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى إلى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه، ثم أمر الغطاسين أن يلتمسوه ففعلوا فاستخرجوا الخاتم الأوّل، فعدّ ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير: ولما فتح نور الدين حصن بانياس كان ولد معين الدين أنر الذي سلم بانياس إلى الأفرنج قائما على رأسه فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان، فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برّد جلدة والدك من جهنم، وقد تقدم أنه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها.

وفيها توفي وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، من بني ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن الحصن، وكان عالما دينا مدبراً، حنبلي المذهب وزر للمقتفي ثم للمستنجد بعده ، وله عدّة مصنفات منها الافصاح في شرح الأحاديث الصحاح، وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة، ثم توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث عشر جمادى الأوّل سنة ستين وخمسمائة، ورؤيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء، ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دجيل تعرف بالدور، وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق، وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره، ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: واجتهد أن تستر العصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في الاسلام، وأولى الأمور ستر العيوب.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ففيها توفي فتح الدين بن أسـد شيركوه، أخو ناصر الدين وقبره بالمقبرة النجمية إلى جانب قبر ابن عمه شاهنشاه بن أيوب في قبة فيها أربع قبور هما الأوسطان منها، وفي هـذين الأخوين نـاصر الدين وفتح الـدين يقول العرقلة حسان:

للّـــــه شبـــــلا أســـــد خـــــادر
مـــــا فيهما جبـــــن ولا شـــــح
مـــــا أقبـــــلا إلاّ وقـــــال الـــــورى
قـــــد جـــــاء نصر اللّـــــه والفتـــــح

وفيها سار نور الدين أيضا إلى حصـن المنيطرة، وهو للفرنج، ولم يحشد له ولاجمع عسـاكره إنما سار إليـه على غرة مـن الفرنج، وعلـم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهز الفـرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها، وجدّ في قتـالها وأخذهـا عنوة وقهـرا، وقتـل من بها وسبـى، وغنم غنيمـة كثيرة لأمن مـن به فـأخذتهم خيـل الله (بغتـة وهم لايشعـرون[٩٧])، ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لـدفعه إلاّ وقد ملكه، ولو علموا أنـه جرد جريدة لأسرعوا ، وإنما ظنـوا أن نورالديـن في جمع كثير، فلما ملكه تفرّقـوا وايسوا منه، وهذا قول ابن الأثير.

وذكـر القـاضي ابـن شداد أن ذلـك كـان في سنـة اثنتين وستين ، كما سيأتي والله أعلم.

وفيها توفي الجليس بن الحباب بمصر

قال العماد في الخريـدة: القاضي الجليـس أبو المعـالي عبد العـزيز بـن

الحسين بن الحباب الأغلبى السعدي التميمي، جليس صاحب مصر، وفضله مشهور، وشعره مأثور، وكان أوحد عصره في مصره نظما ونثرا وترسلا وشعرا، ومات بها في سنة إحدى وستين وقد أناف على السبعين، وأنشدني له الأمير نجم الدين بن مصال من قصيدة يقول فيها:

ومن عجب أن السيوف لديهم
تحيض دماء والسيوف ذكور
واعجب من ذا أنها في أكفهم
تأجج ناراً والاكف بحور

قال: وأنشدني له الشريف ادريس الادريسي قصيدة سيرها إلى الصالح رزيك قبل وزارته يحرضه على إدراك ثأر الظافر، وكان عباس وزيرهم قتله وقتل أخوته يوسف وجبريل يقول فيها:

أصادفهم قولا وغيبا ومشهدا
نحوهم على عمد بفعل أعادي
فأين بنو رزيك عنها ونصرهم
وما لهم من منعة وذياد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم
ومصرعهم لم تكتحل برقاد
فمزق جموع المارقين فانها
بقايا زروع أذنت بحصاد

وله فيه من أخرى في هذه الحادثة:

ولما ترامى البربري بجهله
إلى فتكة ما رامها قط رائم
ركبت إليه متن عزمتك التي
بأمثالها تلقى الخطوب العظائم
أعدت إليهم ملكهم بعد ما لوى
به غاصب حق الامامة ظالم

وأنفذ إليه في المعنى يقول:

أعـــدت إلى جســـم الـــوزارة روحهـــا
وما كـــان يـــرجى بعثهـــا ونشـــورهـــا

أقـــامـــت زمـــانـــا عنـــد غيرك طـــامثـــا
فهـــذا الأوان قـــرؤهـــا وطهـــورهـــا

مـــن العـــدل أن يحظـــى بها مستحقهـــا
ويخلعهـــا مـــردودة مستعيرهـــا

إذا ملـــك الحسنـــاء مـــن ليـــس كفـــؤهـــا
أشـــار عليـــه بـــالطـــلاق مشيرهـــا

وله يشكو طبيبا:

وأصـــل بليتـــي مـــن قـــد غـــزاني
مـــن السقـــم الملـــح بعسكـــريـــن

طبيـــب طبـــه كغـــراب بين
يفـــرق بين عـــافيتـــي وبينـــي

أتـــى الحمـــى وقـــد شـــاخـــت وبـــاخـــت
فـــردّ لها الشبـــاب بنسختين

ودبـــرهـــا بتـــدبير لطيـــف
حكـــاه عـــن سنـــان أو حنين

وكـــانـــت تـــوبـــة في كـــل يـــوم
فصيرهـــا بحـــذق نـــوبتين (٩٨)

قلت: الأبيات الرائية تمثل بها الجليس وهي لصردر قرأتها في ديوانه، وهي من قصيدة يمدح بها وزير الخليفة ببغداد فخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جهير ويهنيه بعوده إلى الوزارة وأوّل القصيدة:

لجاجـــة قلـــب مـــا يفيـــق غـــرورهـــا
وحـــاجـــة نفـــس ليـــس يقضـــى يسيرهـــا

وهي طويلة يقول في غزلها:

وقفنا صفوفا في الديار كأنها
صحائف ملقاة ونحن سطورها
يقول خليلي والظباء سوانح
أهذي التي تهوى فقلت نظيرها
وقد قلتها لي ليس في الأرض جنة
أما هذه فوق الركائب حورها
أراك الحمى قل لي بأي وسيلة
وصلت إلى أن صادفتك ثغورها
ومالي بها علم فهل أنت عالم
أأفواهها أولى بها أم نحورها
على رسلكم في الهجر إنا عصابة
إذا ظفرت في الحب عف ضميرها

ويقول في مديحها:

فقل لليالي كيف شئت تقلبي
ففي يد عبل الساعدين أمورها
أماني في نفس الوزارة بلغت
به كنهها حتى استحقت نذورها
لوت وجهها عن كل طالب متعة
إلى خاطب حل عليه سفورها
إذا مثل الأقوام دون عرينه
تساوى به ذو طيشها ووقورها
تكاد لما قد ألبست من سكينة
ترف على تلك الرؤوس طيورها

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر، وقد كان بعد رجوعه من مصر لايزال يحدّث نفسه بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها يتحدث به مع كل من يثق إليه، وكان مما يهيجه على العود زيادة حقده على شاور وما عمل معه، فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفي ذلك يقول العرقلة :

أقول والأتراك قد أزمعت | مصر إلى حرب الأعاريب
رب كما ملكتها يوسف الـ | ـصدّيق من أولاد يعقوب
ملكها في عصرنا يوسف الـ | ـصادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العدى | حقا وضرّاب العراقيب

ثم أن أسد الدين جدّ في السير على البر، وترك بلاد الافرنج عن يمينه، فوصل إلى الديار المصرية، وقصد أطفيح، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرف في البلاد الغربية، وأقام بها أربعا وخمسين يوما، وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصعب والذلول، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجدّ والتشمير، وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النوري على الاسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد، فبلغوا مكانا يعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية والفرنج من ورائهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، وكان قد أرسل إليهم

جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعـددهم وجدهم في طلبه، فعزم على قتالهم وبقـائهم، وأن تحكم السيوف بينـه وبينهم، إلاّ أنه خـاف من أصحـابـه أن تضعف نفـوسهـم في الثبـات في هذا المقـام الخطير الـذي عطبهـم فيه أقـرب من السـلامة لقلـة عـددهم وبعـدهم عـن بلادهـم، فاستشارهم فكلهم أشار عليـه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالـوا له:إن نحن إنهزمنا وهـو الذي لاشك فيه فـإلى أين نلتجي وبمن نحتمـي، وكل من في هـذه الديار من جنـدي وعامي وفـلاح عدو لنا ويودون لو شربـوا دماءنا، وحق لعسكر عدّتهم ألـف فارس قد بعدوا عن ديارهـم، وقل ناصرهم أن يـرتاع من لقاء عشرات ألـوف، مع أن كل البلاد عدو لهم، فلما قـالوا ذلك قام إنسـان من المماليك النوريـة يقال له شرف الديـن بزغـش، وكان مـن الشجاعـة بالمكـان المشهور، وقـال: من يخاف القتـل والجراح والأسر فلا يخدم الملـوك، بـل يكـون فلاحـا أو مـع النساء في بيتـه، والله لئـن عدتـم إلى الملك العـادل من غير غلبـة وبلاء تعذرون فيه ليأخـذن إقطاعاتكم، وليعودن عليكم بجميـع ما أخذتموه إلى يومنـا هذا ويقول لكـم: أتأخذون أمـوال المسلمين وتفرّون عن عـدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيهـا الكفار، قال أسد الدين: هذا رأيـي وبه أعمـل ووافقهما صلاح الديـن يوسف بـن أيوب، ثـم كثر الموافقون لهم على القتـال فاجتمعـت الكلمة على اللقـاء، فأقـام بمكانـه حتـى أدركه المصريـون والفرنـج وهـو على تعبية، وقـد جعل الأثقـال في القلـب يتكثـر بها، ولأنه لم يمكنـه أن يتركهـا بمكـان آخر فينهبهـا أهـل البلاد، ثم إنه جعل صلاح الديـن ابن أخيه في القلب وقال له ولمن َمعه: إن الفرنـج والمصريين يظنون أننـي في القلب فهـم يجعلون جمرتهم بـإزائه وحملتهـم عليـه، فـإذا حملـوا عليكـم فلا تصـدقـوهـم القتـال ولاتهلكـوا نفـوسكم وانـدفعوا بين أيـديهم،فإذا عـادوا عنكم فـارجعوا في أعقـابهم، واختـار مـن شجعـان أصحـابـه جمعـا يثـق إليهـم ويعـرف صبرهـم وشجاعتهـم، ووقف بهم في الميمنـة ، فلما تقابـل الطائفتـان فعل الفـرنج

ماذكره أسد الدبن، وحملوا على القلب ظنا منهم أنه فيه فقاتلهم من به قتالا يسيرا ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم، فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزموهم، ووضع السيف فيهم ، فأثخن وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج من أثرالمنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاً ليس بها منهم ديار، فانهزموا أيضا، وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل، ثم سار أسد الدين إلى ثغر الاسكندرية وجبى ما في طريقها من القرايا والسواد من الأموال، ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها من غير قتال سلمها إليه أهلها، فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصعيد وتملكه وجبى أمواله وأقام به حتى صام رمضان، وأما المصريون والفرنج، فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قتل منهم واستكثروا وحشدوا وساروا إلى الاسكندرية وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتدّ الحصار، وقل الطعام بالبلد فصبر أهلها على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسول المصريين والفرنج يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك وشرط أن الفرنج لايقيمون بمصر ولايتسلمون منها قرية واحدة، وأن الاسكندرية تعاد إلى المصريين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة وتسلم المصريون الاسكندرية في النصف من شوال، وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، ويكون أبوابها بيد فرسانهم، ليمتنع الملك العادل من إنفاذ عسكر إليهم ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار، وهذا كله يجري بين الفرنج وبين شاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس إليه من الأمر شيء، ولايعلم بشيء من ذلك، قد

حكم عليه شاور وحجبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة، ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف، ينهي محبته وولاءه ويسأله أن يأمر باصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته، ويجمع كلمة الاسلام، وبذل مالاً يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلاً فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى في أخبار سنة أربع وستين.

قال القاضي أبو المحاسن: ذكر عود أسد الدين إلى مصر في المرة الثانية وهي المعروفة بوقعة البابين.لم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك وداخله الخوف على البلاد من الأتراك، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد، وأنه لابد له من قصدها، فكاتب الفرنج وقرّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكينا كليا ويعينونه على استئصال أعدائه، بحيث يستقر قدمه فيها، وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين فاشتدّ خوفهما على مصر، أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها، فتجهز أسد الدين، وأنفذ نور الدين معه العسكر، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالسير معه على كراهة منه لذلك،وذلك في أثناء ربيع الأول وكان وصولهم البلاد المصرية مقاربا لوصول الفرنج إليها، واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم، وجرى بينهم حروب كثيرة، ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين، وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين قدّس الله روحه جرد العساكر إلى بلاد الأفرنج، وأخذ المنيطرة، وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم، وعادوا وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد، وعاينوه من الأهوال، وما عاد حتى صالح الفرنج

على أن ينصرفوا كلهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السنة، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها، فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل، والقضاء يجره إلى شيء قد قدّر لغيره وهو لايشعر بذلك.

قال: وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير أسد الدين في رجب، وخرّب قلعة أكاف بالبرية، وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين وزين الدين بحماة للغزاة ، وساروا إلى بلاد الفرنج ، فخربوا هونين في شوال منها، وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين إلى مصر، وفيه مات قرا أرسلان بديار بكر.

فصل

وفي شعبان من هذه السنة قدم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني مصنف كتابي الفتح والبرق فأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشهرزوري بالمدرسة النورية الشافعية، عند حمام القصير بباب الفرج المنسوبة الى العماد وإنما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه اللّه ولاه إياها في رجب سنة سبع وستين ، بعد الشيخ الفقيه ابن عبد، وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، ابني شاذي من تكريت بسبب أن عمه العزيز أحمد بن حامد اعتقله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بقلعة تكريت ، ونجم الدين أيوب آنذاك واليها، فانتسجت المودّة بينهم من هناك، فلما سمع نجم الدين بوصوله بكر إلى منزله لتبجيله، وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر فمدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أوّلها

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب
ولا الفراق إلى عيشي بمنسوب

ما اخترت بعدك لكن الزمان أتى
كرهاً بها ليس يا محبوب محبوبي
أرجو إيابي إليكم ظافراً عجلا
فقد ظفرت بنجم الدين أيوب
موفق الرأي ماضي العزم مرتفع
على الأعاجم مجداً والأعاريب
أحبك اللّه إذ لازمت نجدته
على جبين بتاج الملك معصوب
أخوك وابنك صدقاً منهما اعتصما
باللّه والنصر وعد غير مكذوب
هما همامان في يومي وغى وقرى
تعوّدا ضرب هام أو عراقيب
غدا يشبان في الكفار نار وغى
بلفحها يصبح الشبان كالشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غدا
تحظى النفوس بتأنيس وتطييب
ويستقرّ بمصر يوسف وبه
تقرّ بعد التنائي عين يعقوب
ويلتقي يوسف فيها بأخوته
واللّه يجمعهم من غير تثريب

وكان أنشده هذه القصيدة في آخر شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وتم ملكهم مصر بعد سنتين.

قال: فنظمت ما في الغيب تقديره.

قال: وكان أسد الدين قد جمع وسار إلى مصر في الرمل في النصف من ربيع الأوّل ووصل في سادس ربيع الآخر إلى أطفيح ، وعبر منها إلى الجانب الغربي، وأناخ بالجيزة محاذاة مصر فأقام عليها نيفاً وخمسين يوما

واستعان شاور بالفرنج ، ورتبوا لهم سوقا بالقاهرة، وعبروا بهم من البلاد الشرقية إلى الغرب، وعلم أسد الدين فسار أمامهم فالتقوا بموضع يعرف بالبابين فكسرهم أسد الدين وأصحابه وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين ألوفا، وحصل منهم في الاسار سبعون فارسا من بارونيتهم، فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الاسكندرية ، فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها، ثم قال أسد الدين: أنا لايمكنني أن أحصر نفسي فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصعيد، فاستولى عليها وجبى خراجها، وأقام صلاح الدين بالاسكندرية، فسار إليه شاور والفرنج فحاصروه أربعة أشهر، وصدق أهل الاسكندرية القتال مع صلاح الدين، وقوي أسد الدين بقوص ، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص، فسمع الفرنج أنه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار، وكان شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين بالذهب، فلما راسلوه في المهادنة أجاب، وطلب منهم عوض ما غرمه ، فبذلوا له خمسين ألف دينار ، فخرجوا من الاسكندرية في النصف من شوال، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وعادوا إلى الخدمة النورية، فاجتمع العماد بأسد الدين وأنشده هذه القصيدة:

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر
ونلت ما عجزت عن نيله القدر

من يهتدي للذي أنت اهتديت له
ومن له مثل ما أثرته أثر

أسرت أم بسراك الأرض قد طويت
فأنت اسكندر في السير أم خضر

أوردت خيل بأقصى النيل صادرة
من الفرات تقاضى وردها الصدر

تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها
إلاّ حديثك ما بين الورى سمر

فأنت من زانت الأيام سيرته
وزاد فوق الذي جاءت به السير

لـــو في زمـــان رســـول اللّـــه كنـــت أتـــت
في هــــــذه السيرة المحمــــــــودة الســـــــور

أصبحـــت بـــالعـــدل والاقـــدام منفـــردا
فقـــــل لنـــــا أعليّ أنـــــت أم عمـــــر

اسكنـــــدر ذكـــــروا أخبـــــار حكمتـــــه
ونحـــن فيـــك رأينـــا كـــل مـــا ذكـــروا

ورستـــم خبرونـــا عـــن شجـــاعتـــه
وصـــار فيـــك عيـــانـــا ذلـــك الخبر

أفخـــر فـــإن ملـــوك الأرض أذهلهـــم
مـــا قـــد فعلـــت فكـــل فيـــك مفتكـــر

سهـــرت إذ رقـــدوا بـــل هجـــت إذ سكنـــوا
وصلـــت إذ جبنـــوا بـــل طلـــت إذ قصروا

يستعظمـــون الـــذي ادركتـــه عجبـــاً
وذاك في جنـــب مـــا نـــرجـــوه محتقـــر

قضـــى القضـــاء بما نـــرجـــوه عـــن كثـــب
حتما ووافقـــك التـــوفيـــق والقـــدر

شكـــت خيـــولـــك إدمـــان السرى وشكـــت
مـــن فلهـــا البيـــض بـــل مـــن حطمهـــا السمـــر

يسرت فتـــح بـــلاد كـــان أيسرهـــا
لغير رأيـــك قفـــلا فتحـــه عسر

قـــرنـــت بـــالحزم منـــك العـــزم فـــاتسقـــت
مـــآرب لـــك عنهـــا أسفـــر السفـــر

ومـــن يكـــون بنـــور الـــديـــن مهتـــديـــا
في أمـــره كيـــف لا يقـــوى لـــه المرر

يـــرى بـــرأيـــك مـــا في الملـــك يبرمـــه
فـــأنـــت منـــه بحيـــث السمـــع والبصر

لقـــد بغـــت فئـــة الأفـــرنـــج فـــانتصفـــت
منهـــا بـــاقـــدامـــك الهنـــديـــة البتر

غــرســت في أرض مصر مــن جســومهــم
أشجــار خـــط لها مـــن هـــامهـــم ثمــر
وســـال بحـــر نجيــع في مقـــام وغـــى
بـــه الحديـــد غمام والـــدم المطـــر
انهرت منهــم دمــاء بــالصعيــد جــرى
منهــــا إلى النيـــــل في واديهم نهر
رأوا إليـــك عبـــور النيـــل إذ عـــدمــوا
نصرا فما عبروا حتـــــى قـــــد اعتبروا
تحت الصــــوارم هــــام المشركين كما
تحت الصــوالــج يــومــا خفــت الاكــر
أفنـت سيـوفـك مـن لاقـت فـإن تـركـت
قـــومــا فهـــم نفـــر مـــن قبلهـــا نفــروا
لم ينـــج إلا الـــذي عـــافتـــه مـــن خبــث
وحـــش الفـــلا وهـــو للمحـــذور منتظـــر
والســاكنــون القصــور القــاهــريــة قــد
نـــادى القصــــور عليهــــم أنهم قهـــروا
وشـــاور شـــاوروه في مكـــايـــدهـــم
فكـــاده الكيــــد لما خـــانـــه الحذر
كـــانــوا مـــن الــرعــب مــوتــى في جلــودهــم
وحين أمنتهــــم مــــن خـــوفهــــم نشروا
وإن مـــن شيركـــــوه الشرك منخـــزل
والكفــــر منخــــذل والـــديـــن منتصر
عـــوّل على فئـــة عنـــد اللقـــاء وفـــت
وعـــدّ عـــن تـــركمان قبلـــه غـــدروا
وكيـــف يخذل جيـــش أنـــت مـــالكـــه
والقـــائدان لـــه التـــأييـــد والظفـــر
أجــاب فيــك إلـــه الخلـــق دعـــوة مـــن
يطيــب بـــالليــل مـــن أنفــاســه السحــر

-٧٩٠٣-

قال العماد: واتصلت بيني وبين صلاح الدين يوسف ابن أخيه مودّة، تمت لي بها على الزمان عدّة، ولم يزل يستهديني نظمي ونثري، ويشعرني أنه يميل إلى شعري ، فأوّل ما خدمته به هذه الكلمة:

كيف قلته بمقلته فتور
وأراها بلا فتور تجور

ومنها:

مستجيز جوري وإني منه
بابن أيوب يوسف مستجير

فضله في يد الزمان سوار
مثلها رأيه على الملك سور

كرم سابغ وجود عميم
وندى سائغ وفضل غزير

أنت من لم يزل يحنّ إليه
وهو في المهد سرجه والسرير

من دم الغادرين غادرت بالأمـ
ـس صعيد الصعيد وهو غدير

ولكل مما تطاولت فيهم
أمل قاصر وعمر قصير

لاذ بالنيل شاور مثل فرعو
ن فذل اللاجي وعز العبور

شارك المشركين نعياً وقدماً
شاركتها قريظة والنضير

والذي يدعي الامامة بالقا
هرة ارتاع أنه مقهور

وغدا الملك خائفاً من سطاكم
ذا ارتعاد كأنه مقرور

وبنو الهنفري هانوا ففروا
ومن الاسد كل كلب فرور

إنما كـــان للكـــلاب عـــواء
حيـث مـا كـان لـلأسـود زئير
وفليـب عنـد الفـرار سليـب
فهـو بـالـرعـب مطلـق مـأسـور
لم يبقـوا سـوى الأصـاغـر للسبـ
ـي فـودوا لـو أن الكبير صغير
وحميـت الاسكنـدريـة عنهـم
ورحـى حـربهم عليهـم تـدور
حـاصروهـا ومـا الـذي بـان مـن ذبـ
ـك عنهـا وحفظهـا محصـور
كحصـار الأحـزاب طيبـة قـدمـا
ونبـي الهدى بها منصـور
فـاشكـر اللّـه حيـث أولاك نصراً
فهـو نعـم المولى ونعـم النصير
ولكـم أرجـف الأعـادي فقلنـا
مـا الماتـذكـرونـه تـأثير
ورقبنـا كـالعيـد عـودك فـاليـو
م بـه لـلانـام عيـد كبير
عـادمـن مصر يـوسـف وإلى يعـ
ـقوب بـالتهنيـات جـاء البشير
فـلأيـوب مـن إيـاب صـلاح الـ
ـدين يـوم بـه تـوفى النـذور
ولكـم عـودة إلى مصر بـالنصـ
ـر على ذكـرهـا تمر العصـور
فـاستردّوا حـق الإمـامـة ممـن
خـان فيهـا فـإنـه مستعير
وافترعهـا بكـرا لها بمـدى الـدهـ
ـر رواح في مـدحكـم وبكـور

أنا سيرت طالع العزم مني
وإلى قصدك انتهى التسيير
وأرى خاطري لمدحك إلف
إنما يألف الخطير الخطير

وهي والتي قبلها طويلتان جداً، فانتظمت معرفة العماد بصلاح الدين، وكان له مساعدا عند نور الدين، وقرأت في ديوان العرقلة، وقال يمدح أسد الدين شيركوه، وقد أخذ الشقيف، ورحل طالبا حصناً يقال له العراق:

رحلت من الشقيف إلى العراق
بعزم كالمهندة الرقاق
ونكست الأعادي منه قهراً
ومجدك في ذرى الجوزا باقي
بجاشك لا بجيشك نلت هذا
وبالتوفيق لا بالإتفاق
فداؤك من مضى بالحصن قبلي
إلى دار الخلود من الرفاق
وما نخشى على الإسلام بؤسا
إذا هلك الجميع وأنت باقي
أشاوركم فشاور كل خب
وتنفق عند مثلك بالنفاق
أتصبر إن أتتك بحار خيل
وقد ما ما صبرت على السواقي
متى رفعت لك السودان رأسا
وقد خلاهم مثل الزقاق
وعيشك ماله من مصر بد
ومن عندي ثلاثاً بالطلاق
هو الأسد الذي مازال حتى
بنا مجداً على السبع الطباق

فصل

قال ابن الإثير : وفي هذه السنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلب أن يعبر الفرات إليه بعساكره ، فتجهز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة فاجتمعوا بنور الدين على حمص، فدخل بالعساكر الإسلامية بلاد الفرنج، واجتاز على حصن الأكراد فأغاروا ونهبوا وأسروا، وقصدوا عرقة ونزلوا عليها وحصروها وحصروا جبلة وأخربوها، وتوجهت عساكر المسلمين يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد، وفتح العريمة وصافيتا، وعاد إلى حمص فصام بها شهر رمضان، ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هونين، وهي للفرنج أيضاً من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها فقصدها نورالدين فوصلها من الغد، وخرب سورها جميعة وأراد الدخول إلى بيروت فتجدد في العسكر خلل أوجب التفرق، فعاد وسار قطب الدين إلى الموصل وأقطعه مدينة الرقة فأخذها في طريقه.

قال: وفي هذه السنة عصى الأمير غازي بن حسان المنبجي صاحب منبج على نور الدين، وهو كان أقطعه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حصره بها وأخذها منه وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عاقلا خيراً حسن السيرة، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة إثنتين وسبعين كما سيأتي.

وفيها توفي القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير، صاحب كتاب الجنان.

قال العماد في الخريدة: كان ذا علم غزير وفضل كثير، قتله شاور صبراً في سنة إثنتين وستين، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه في قصده، وأخوه المهذب أبو علي الحسن بن علي بن الزبير أشعر منه، وتوفي

قبله بسنة، لم يكن في زمانه أشعر منه، وله شعر كثير منه قصيدة غراء في مدح الصالح بن رزيك، وذكر فيها نور الدين أولها:

أعلمت حين تجاور الحيان
أن القلوب مواقد النيران

يا كاسر الأصنام قم فانهض بنا
حتى تصير مكسر الصلبان

فالشام ملكك قد ورثت بلاده
عن قومك الماضين من غسان

وإذا شككت بأنها أوطانهم
قدما فسل عن حارث الجولان

أورمت أن تتلو محاسن ذكرهم
فاسند روايتها إلى حسان

مازلزلت أرض العدى بل ذاك ما
بقلوب أهليها من الخفقان

وأقول إن حصونهم سجدت لما
أوتيت من ملك ومن سلطان

ولقد بعثت إلى الفرنج كتائبا
كالأسد حين تصول في خفان

لبسوا الدروع ولم يخل من قبلهم
أن البحار تحلّ في غدران

عجلت في تل العجول قراهم
وهم لك الضيفان بالذيفان

وثللت في يوم العريش عروشهم
بشبا ضراب صادق وطعان

ألجأتهم للبحر لما أن جرى
منه ومن دمهم معا بحران

ولقد أتى الاسطول حين غزا بها
لم يأت في حين من الاحيان

وأعدّت رسل ابن القسيم إليه في
شعبان كي يتلاءم الشعبان

والفال يشهد في اسمه أن سوف يغـ
ـدو الشام وهو عليكما قسمان

وأراك من بعد الشهيد أباً له
وجعلته من أقرب الاخوان

وهو الذي مازال يفعل في العدى
ما لم يكن ليعدّ في الامكان

قتل البرنس ومن عساه أعانه
لما عسا في البغي والعدوان

وأرى البرية حين عاد برأسه
مرّ الجنى يبدو على المرّان

وتعجبوا من زرقة في طرفه
وكأن فوق الرمح نصلا ثاني

عجبا لجود يديه إذ يبني العلا
والسيل يهدم ثابت الأركان

قلدت أعناق البرية كلها
مننا تحمل ثقلها الثقلان

حتى تساوى الناس فيك وأصبح الـ
ـقاصي بمنزلة القريب الداني

وفي هذه السنة ذكر القاضي كمال الدين بن الشهرزوري للسلطان نور الدين رحمه الله حال العماد الكاتب، وعرّفه به وعرض عليه قصيدة له في مدحه مطلعها:

ومنها :

لو حفظت يوم النوى عهودها
ما مطلت بوصلكم وعودها

وإنما يحمد عيش بلدة
مالكها بعدله محمودها

مـــــؤيـــــد أمـــــوره بعـــــزمـــــة
مـــن السمـــوات العلى تـــأييـــدهـــا
آثـــــــــاره حميـــــــــــدة وإنما
للمـــــرء مـــن آثـــاره حميـــدهـــا
ان الـــــوری بحبـــــه وبغضـــــه
يعـــرف مـــن شقيهـــا سعيـــدهـــا
قـــد جـــاءكـــم نـــور مـــن الله فمـــن
بـــه اهتـــدى فـــإنـــه رشيـــدهـــا
جـــلا ظـــلام الظلـــم نـــور الـــدين عـــن
أرض الشـــام فلـــه تحميـــدهـــا
إن الـــرعـــايـــامنـــه في رعـــايـــة
ونعمـــة مستـــوجـــب مـــزيـــدهـــا
لنـــومهـــا يسهـــر بـــل لأمنهـــا
يخاف بـــل لخصبهـــا بجـــودهـــا
بـــالـــديـــن والملـــك لـــه قيـــامـــه
والملـــوك عنها قعـــودهـــا
ودأبـــه ثلـــم ثغـــور الكفـــر لا
لثـــم ثغـــور نـــافـــع بـــرودهـــا
قـــد أسبـــغ الله لنـــا بعـــدلـــه
ظـــلام أمـــن وارف مـــديـــدهـــا
غـــدا ملـــوك الـــروم في أولتـــه
وهـــم على رغمهـــم عبيـــدهـــا
لما أبـــت هـــامـــاتهم سجـــودهـــا
لله أضحـــى للظبـــى سجـــودهـــا
إن فـــارقـــت سيـــوفـــه غمـــودهـــا
فـــإنّ هـــامـــاتهم غمـــودهـــا
كـــم مغلقـــات مـــن حصـــون عـــزمـــه
مفتـــاحهـــا وسيفـــه أقليـــدهـــا

قـــد ودّت الفـــرنـــج لـــو فـــرّت نجـــت
منـــك ولكـــن روعهـــا مبيـــدهـــا
قهـــرتها حتـــى لـــودّ حيهـــا
مـــن ذلـــة لـــو أنـــه فقيـــدهـــا
أمـــاتها رعبـــك في حصـــونها
كـــأنها حصـــونها لحودهـــا
وإن مصر الـــملك تعنـــو بعـــد ما
لسيفـــك الصعـــب عنـــا صعيـــدهـــا
والملـــة الغـــراء خـــال بـــالها
عـــال سنـــاهـــا بـــك حـــال جيـــدهـــا
مفترّة ثغـــورهـــا ممنـــوعـــة
ثغـــورهـــا محفـــوظـــة حـــدودهـــا
وإن بغـــى جـــالـــوتها ضـــلالـــة
فـــأنـــت في إهـــلاكـــه داودهـــا
يـــا بـــن قسيـــم الـــدولـــة الملـــك الـــذي
خـــرّت لـــه مـــن الملـــوك صيـــدهـــا
دع العـــدى بغيظهـــا فـــإنها
يـــذيـــب أكبـــاد العـــدى حقـــودهـــا
يـــا دولـــة نـــوريـــة أمـــن الـــورى
وخصبهـــا وجـــودهـــا وجـــودهـــا
مـــا مثـــل الـــدنيـــا لمن يجمعهـــا
بـــالحرص إلاّ قـــزة ودودهـــا
أيـــن الـــذي يـــرفضهـــا عـــن قـــدرة
فـــلا يشـــوب زهـــده زهيـــدهـــا
فـــابـــق لنـــا يـــا ملكـــا بقـــاؤه
في كـــل عـــام للـــرعـــايـــا عيـــدهـــا
في نعمـــة جـــديـــدة سعـــودهـــا
ودولـــة سعيـــدة جـــدودهـــا

وهي طـويلة، فرتبـه نورالديـن في ديوانـه منشئا لاستقبال سنـة ثلاث وستين.

قال: ووجدت على الأيام منه الإعزاز والتمكين .

قلت: وذلك بعد أن استعفى أبو البشر شـاكر بن عبد الله من الخدمة في كتابـة الانشا وقعـد في بيته، كـذا ذكر العماد في الخريـدة، وقال : تـولى ديوان الانشـا بالشام سنين كثيرة وله مقـاصد حسنة في الكتب وهـو جيد السيرة جميل السريرة (٩٩) .

وفيها توفي الحافظ أبو سعد عبـد الكريم محمد السمعاني المروزي رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فذكر العماد أن نور الدين رحل إلى حمص، ثم مضى إلى حماه ثم شتى بقلعة حلب ومعه الأسد والصلاح، ونزل العماد بمدرسة ابن العجمي وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد عثر فرسه في الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى:

لا تنكرن لسابح عثرت به
قدم وقد حمل الخضمّ الزاخرا

ألقى على السلطان طرفك طرفه
فهوى هنالك للسلام مبادرا

سبق الرياح بجريه وكففته
عنها فليس على خلافك قادرا

ضعفت قواه إذ تذكر انه
في السرج منك يقل ليثا خادرا

ومتى تطيق الريح طودا شامخا
أو يستطيع البرق جونا ماطرا

فاعذر سقوط البرق عند مسيره
فالبرق يسقط حين يخطف سائرا

وأقل جوادك عثرة ندرت له
إن الجواد لمن يقيل العاثرا

وتوق من عين الحسود وشرّها
لا كان ناظرها يسوء ناظرا

وأسلم لنور الدين سلطان الورى
في الحادثات معاضدا ومؤازرا

فإذا صلاح الدين دام لأهله
لم يحذروا للدهر صرفا ضائرا

وجرت بين العماد وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون مكاتبات، كتب إليه العماد:

أيا شرف الدين إن الشتا
بكافاته كف آفاقه
وكفك من كرم كافها
قد كفلت لي بكافاته
وإنك من عرفه شكرنا
غدا عاجزا عن مكافاته

قال: فكتب إلي شرف الدين في جوابها
إذا ما الشتاء وأمطاره
عن الخير حابسة رادعه
فكافاته ألست أعطيتها
وحوشيت من كافه الرابعة
وكف المهابة والاحتشا
م لكفي عن بره مانعة
وهمة كل كريم النجا
ر بميسور أحبابه قانعة
ونفسي في بسط عذري إليـ
ـه جعلت الفداء له طامعه
وشوقي إلى قربه زائد
ومعذرتي إن جفا واسعه

قال: فكتبت إليه في جوابها:
أيا من له همة في العلى
لذروتها أبدا فارعه
ومن كفه ديمة ما تزا
ل بالعرف هامية هامعه
وللفضل في سوق أفضاله
بضائع نافقة نافعة
وهل كابن عصرون في عصرنا
إمام أدلته قاطعة

فخير فـــــــــــــــــوائده جمة
وبحـــــر مـــــــوارده واسعــــــة
أيــــا شرف الـــــديــــن شرفتنــــي
بـــــاهــــــداء زائعــــــة رائعــــــة
أطعــــت أوامــــرك الســــاميــــا
ت ومـــا بـــرحــت همتــي طـــائعــة
أرى كــــل جـــارحـــة لي تــــــــ
ـــــــــوّد لـــو أنها أذن ســـامعــــه
وأمـــا الشتـــاء وكــــافــــاتــــه
وكفــــك عــــن كــــافــــه الــــرابعــــة
فنفسي منــــزعـــــة بــــالعفــــا
ف عنهــــا وفي غيرهــــا طــــامعــــه
ومــــاذا تطيــــق إذا لم تكــــن
بميســــور سيــــدنــــا قــــانعــــه

وهي أكثر من هذا

قال: وكان ابن حسان صاحب منبج قد ساءت أفعاله، فبعث إليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه، ثم توجه نور الدين إليها لتهذيب أحوالها ومدحه العماد بقصيدة منها يقول:

بشرى الممالــك فتــح قلعــة منبــج
فليهـــن هـــذا النصر كـــل متـــوج
أعطيــت هـــذا الفتــح مفتــاحــابــه
في الملـــك يفتــح كــل بــاب مــرتـــج
وافى يبشر بـــــالفتـــــوح وراءه
فـــانهض إليهــا بـــالجيـــوش وعـــرج
أبشر فبيـــت القـــدس يتلـــو منبجـــا
ولمنبج كسواه كـــالانمـــوذج

مــا أعجــزتــك الشهــب في أبــراجهــا
طلبـــا فكيـــف خـــوارج في أبـــرج
ولَقَـــدْ مـــن يعصيـك أحقــر أن يــرى
أثـــر العبـــوس بـــوجهـــك المتبلـــج
لكـــن تهذب مـــن عصـــاك سيـاســة
في ضمنهـــا تقـــويـــم كـــل معـــوج
فـــانهد إلى البيـــت المقـــدّس غـــازيـــا
وعلى طـــرابلـــس ونـــابلـــس عـــج
قـــد سرت في الإســـلام أحســـن سيرة
مـــأثـــورة وسلكـــت أوضـــح منهـــج
وجميـــع مـــا استقـــريـــت مـــن سنـــن الهدى
جـــدّدت منـــه كـــل رســـم مبهـــج

قال العماد: وسار نور الدين من منبج إلى قلعة نجم وعبر الفرات إلى الرها، وكان بها ينال صاحب منبج، وهو سديد الرأي رشيد المنهج فنقله إليها مقطعا وواليا، وأقام نور الدين بقلعة الرها مدّة فمدحه العماد بقصيدة وتحجب له صلاح الدين في عرضها وهي:

أدركـــت مـــن أمـــر الـــزمـــان المشتهـــى
وبلغـــت مـــن نيـــل الأمـــاني المنتهـــى
وبقيـــت في كنـــف الســـلامـــة آمنـــا
متكـــرمـــا بـــالطبـــع لا متكـــرهـــا
لا زلـــت نـــور الـــديـــن في فلـــك الهدى
ذا غـــرّة للعـــالمين بها البهـــا
يـــا محيـــي العـــدل الـــذي في ظلـــه
مـــن عـــدلـــه رعـــت الأســـود مـــع المهـــا
محمـــود المحمـــود مـــن أيـــامـــه
لبهـــائهـــا ضحـــك الـــزمـــان وقهقهـــا
مـــولى الـــورى مـــولى النـــدى معلي الهدى
مـــردي العـــدى مســـدي الجدى معطـــي المهـــا

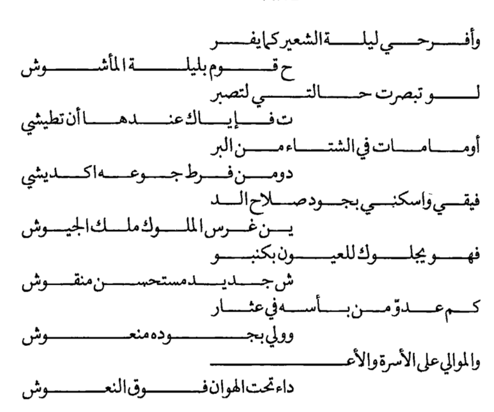
آراؤه بصـــــــوابها مقـــــــرونـــــــة
وبمقتضـــاهـــا دائر فلـــك النهـــا
متلبـــس بحصــــافـــه وحصـــانـــه
متقــدّس عـــن شـــوب مكـــر أو دهـــا
يـــا مـــن أطـــاع الله في خلـــواتـــه
متـــأوبـــا مـــن خـــوفـــه متـــأوهـــا
أبـــدا تقـــدّم في المعـــاش لـــوجهـــه
عمـــلا يبيـــض في المعـــاد الأوجهـــا
كـــل الأمـــور وهـــا وأمـــرك مبرم
مستحكـــم لا نقـــض فيـــه ولا وهـــا
مـــاصين عنـــك الصين لـــو حـــاولتهـــا
والمشرقـــان فكيـــف منبـــج والـــرهـــا
مـــا للملـــوك لـــدى ظهـــورك رونـــق
وإذا بـــدت شمـــس الضحى خفـــي السهـــا
إن الملـــوك لهوا وإنـــك مـــن غـــدا
وبها لـــه والملـــك منـــه مـــالها
شرهـــت نفـــوسهـــم إلى دنيـــاهـــم
وأبـــى لنفســـك زهـــدهـــا أن تشرهـــا
مـــا نمـــت عـــن خير ولم يـــك نـــائها
مـــن لا يـــزال على الجميـــل منبهـــا
أخملـــت ذكـــر الجاهلين ولم تـــزل
ملكـــا يـــذكـــر العـــالمين منـــوّهـــا
ورأيـــت إرعـــاء الـــرعـــايـــا واجبـــا
تغنـــــي فقيرا أو تجير مـــــدلها
لـــرضـــاهـــم متحفظـــا ولحالهم
متفقـــدا ولـــدينهـــم متفقهـــا
وبما بـــه أمـــر الالـــه أمـــرتهم
مـــن طـــاعـــة ونهيتهـــم عما نهى

عـــن رحمة لصغيرهـــم لم تشتغـــل
عـن رأفـة لكبيرهـم لـن تشـدهـا
بـاليـأس عنـدك أمـل لم يمتحـن
بـالـردّ دونـك سـائل لـن يجبهـا
أتعبـت نفسـك كـي تنـال رفـاهـة
مـن ليـس يتعـب لا يعيـش مـرفهـا
فقـت الملـوك سماحـة وحماسـة
حتـى عـدمنـافيهـم لـك مشبهـا
ولـك الفخـار على الجميـع فـدونهم
أصبحـت عـن كـل العيـوب منـزهـا
وأراك تحلـم حين تصبـح سـاخطـا
ويكـاد غيرك سـاخطـا أن يسفهـا

قلت : رحـم الله العماد فقد نظم أوصـاف نور الـدين الجليلة بـأحسن لفظ وأرقـه، وهذا البيـت الأخير مؤكد لما نقلنـاه في أول الكتاب مـن قول الحافظ أبي القـاسم رحمه الله في وصـف نور الـدين رحمه الله أنـه لم يسمع منه كلمه فحـش في رضاه ولافي ضجره، وقل مـن الملوك من له حـظ من هذه الأوصاف الفاضلة، والنعوت الكاملة.

قـال العماد: ثم عـاد نور الـديـن إلى حلب في شهـر رجب، وضربـت خيمتـه في رأس الميدان الأخضر، قـال: وكان مـولعا بضرب الكـرة، وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع في الليلة المسفـره، ويركب صلاح الدين مبكـراً كل بكـره، وهو عـارف بآدابها في الخدمـة وشروطها المعتبره، قـال: وأقطعه في تلك السنـة ضيعتين، إحداهما من ضياع حلـب، والأخرى من ضياع كفر طاب، قال : وكتب إليه في طلب كنبوش:

أصبحـت بغلتـي تشكـي مـن العـر
ى واسراجهـا بـلاكنبـوش
قلـت كفـي فخير يـوميـك عنـدي
أن تفـوزي بـالتبـن أو بـالحشيـش


وأفـــرحـــي ليلــــة الشعير كما يفـــر
ح قـــوم بليلــــة المأشـــــوش
لـــو تبصرت حـــالتـــي لتصبر
ت فـــإيـــاك عنـــدهـــا أن تطيشي
أومـــامـــات في الشتـــاء مـــن البر
دومـــن فـــرط جـــوعـــه اكـــديشي
فيقـــي واسكنـــي بجـــود صـــلاح الـــد
يـــن غـــرس الملـــوك ملـــك الجيـــوش
فهـــو يجلـــوك للعيـــون بكنبـــو
ش جـــديـــد مستحســـن منقـــوش
كـــم عـــدوّ مـــن بـــأســـه في عثـــار
وولي بجـــوده منعـــوش
والموالي على الأسرة والأعـــ
داء تحت الهوان فـــوق النعـــوش

قال: وأقطع أسد الدين حمص وأعمالها، فسار إليها فسد ثغورها، وضبط أمورها ، وحمى جمهورها، وكان نور الدين قد جدد سورها، وحصن دورها وبلي الفرنج منه بالمغاور ، والمراوغ ذي البأس الدامغ، وسأله نور الدين في السلو عن حب مصر وقال: قد تعبت مرتين واجتهدت، ولم يحصل لك ما طلبت، وقد أذعنوا بالطاعه وشفعوا السؤال بالشفاعة وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعة (١٠) قلت وأنشد العماد أسد الدين في رجب من هذه السنة:

دمـــت في الملـــك آمـــراً ذا نفـــاذ
أســـد الـــديـــن شيركـــوه بـــن شـــاذي
يـــا كـــريـــم عـــن كـــل شر بطيـــا
وإلى الخير دائم الأغـــــذاذ
ومـــلاذ الإســـلام أنـــت فـــلازلـــت
لأهـــل الإســـلام خير مـــلاذ

في نفوس الكفار رعبك قد حل ... بصدع الأكباد والأفلاذ

لم تدع بالظبى رؤوساً وأصنا ... ماً من المشركين غير جذاذ

أنت من نازل الدعيين في مصـ ... ـر لنصر الإمام في بغداذ

وبلاد الإسلام أنقذتها أنـ ... ـت من الشرك أيما انقاذ

فصل
في وفاة زين الدين

قال ابن الأثير وغيره: في سنة ثلاث وستين سار زين الدين علي بن بكتكين نائب أتابك قطب الدين عن الموصل إلى إربل وسلم جميع ما كان ببلاده من البلاد والقلاع إلى قطب الدين ما عدا إربل، فإنها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله تعالى، فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية جميعها، وكان نائبه بتكريت الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلمها فقال : إن المولى أتابك لايقيم بتكريت ولا بدّ له من نائب فيها، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد، وأما شهرزور فكان بها الأمير بوزان فقال مثله أيضا، فأقرت بيده، فكان في طاعة قطب الدين، وسبب فراق زين الدين أنه أصابه عمى وصمم وأقام بإربل إلى أن توفي بها في ذي الحجة من هذه السنة، وكان قد استولى عليه الهرم، وضعفت قوته، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة، جواداً محافظاً على حسن العهد، وأداء الأمانة قليل الغدر بل عديمه وكان إذا وعد بشيء لابدّ له من أن يفعله وإن كان فعله خطيراً ، وكان حاله من أعجب الأحوال بينها يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة

الدهاء، بلغني أنه أتـاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنـه نفق له فأمر له بفـرس فأخـذ ذلك الذنـب أيضاً غيره من الأجنـاد فأحضره وذكـر أنه نفق لـه دابةفأمـر له بفرس، وتـداول ذلك الـذنب إثنا عشر رجـلا كلهم يأخذ فـرساً، فلما أحضره آخرهم قال لهم: أما تستحيـون مني كما أستحي أنا منكم، قد أحضر هـذا عندي إثنا عشر رجلاً وأنا أتغافـل لئلا يخجل أحدكـم أتظنون أننـي لاأعرفـه، بلى والله وإنما أردت أن يصلكم عطـائي بغير من ولا تكدير فلم تتركوني.

ليـــس الغبـــي بسيـــد في قـــومـــه
لكـــن سيـــد قـــومـــه المتغـــابي

قـال: وكان يعطـي كثيراً ويخلع عظيماً، وكـان لـه البلاد الكثيرة، فلـم يخلف شيئاً بـل أنفده جميعه في العطايا والإنعام على النـاس، وكان يلبس الغليظ، ويشـدّ على وسطه كل ما يحتـاج إليه من سكين ودرفش ومطـرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلـك، وكان أشجع الناس ميمـون النقيبة لم تهزم لـه راية، وكـان يقوم المقـام الخطير فيسلـم منه بحسـن نيته، وكـان تركيـا أسمر اللـون خفيف العـارضين قصيراً جداً، وبنـى مدارس وربطـاً بالموصـل وغيرها، وبلغني أنه مـدحه الحيص بيص فلما أراد الإنشـاد قال له : أنـا لاأدري ماتقول لكـن أعلم أنك تريـد شيئاً، فأمـر له بخمسمائة دينار وأعطـاه فرسـاً وخلعاً وثيـاباً يكـون مجموع ذلـك ألف دينـار، قال: ومكـارمه كثيرة، ولما تـوفى بإربـل كان الحاكـم بها خـادمه مجاهـد الديـن قايماز وهو المتولي لأمـورها، وولي بعد زين الدين ولده مظفـر الدين كو كبري مدّة، ثـم فارقهـا بخلف كـــان بينه وبين مجاهـد الديـن قايماز، وجرت أمور يطـول ذكرها، ولما فارق زيـن الدين الموصل استنـاب أتابك قطب الدين بقلعـة الموصل بعده مملوكه فخر الديـن عبد المسيح، فسلك غير طريـق زين الدين، فكـرهه الناس وذمـوه، فلم تطل أيامـه وسيجيء ذكر عزله في أخبار سنة ست وستين إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ففـي أوّلها ملك نـور الديـن رحمه الله تعـالى قلعة جعبر، وأخـذها مـن صاحبها شهاب الدين مالك بـن علي بن مالك العقيلي من آل عقيل من بني المسيب وكـانت بيده ويد آبـائه من قبله من أيـام السلطان ملكشاه، وقد تقدّم ذكـر ذلك، وهي من أمنع الحصون وأحسنهـا مطلة على الفرات لايطمع فيهـا بحصار، وقـد أعجز جماعـة من الملـوك أخذهـا منه، وقتـل عليها عماد الدين زنكي والد نور الديـن، ثم اتفق أن خرج صاحبها منها يـوما يتصيـد، فصـاده بنو كـلاب فأخـذوه أسيراً وأوثقـوه وحملوه إلى نـور الديـن فتقربـوا به إليه وذلـك في رجب مـن سنة ثـلاث وستين، فحبسه بحلـب وأحسن إليـه ورغبـه في الاقطاع والمال ليسلـم إليـه القلعة، فلـم يفعل فعـدل به نور الـدين إلى الشـدّة والعنف وتهدّده فلم يفعـل أيضاً، فسير إليهـا عسكـراً مقـدمـه الأمير فخـر الـديـن مسعـود بـن أبي علي الزعفـراني فحصرها مـدّة، فلم يظفر منهـا بشيء، فأمـدّهم بعسكـر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الـدين أبا بكر المعـروف بابن الدايـة، وهو أكبر أمراء نور الديـن ورضيعه ووالي معاقله، فأقام عليهـا وطاف حواليها فلم ير له في فتحها مجالاً، ورأى أخذهـا بالحصر متعذراً محالاً، فسلك مع صاحبهـا طريق اللين وأشار عليـه بأخذ العـوض من نور الديـن ولم يزل يتوسـط معه حتـى أذعن على أن يعطـى سروج وأعمالها والملاحة التـي في عمل حلـب والباب وبـزاعة، وعشرين ألـف دينار معجلـة، فأخـذ جميع ماشرط مكرها في صورة مختار.

قال ابن الأثير: وهذا إقطاع عظيم جـدّاً ، لكنه لاحظ فيه، وتسلم مجد الـديـن قلعة جعبر، وصعـد إليهـا منتصـف المحـرم، ووصل كتـابـه إلى نورالديـن بحلب، فسار إليها وصعـد القلعة في العشرين من المحـرم، ثم سلمها نـور الدين إلى مجد الديـن بن الداية، فـولاها أخاه شمس الـدين

علي، وكان هذا آخر أمر بني مالك، ولكل أمر آخر ولكل ولاية نهاية يؤتى الله الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء (١٠١)

قال ابن الأثير، بلغني أنه قيل لشهاب الدين أيها أحب إليك وأحسن مقاماً أسروج والشام أم القلعة؟قال: هذا أكثر مالاً، والعز بالقلعة فارقناه.

قال العماد: وأنشدت نور الدين بقلعة جعبر قصيدة أولها:

أسلم لبكر الفتوح مفترعا
ودم لملك البلاد منتزعا

فإن أولى الورى بها ملك
غدا بعبء الخطوب مضطلعا

إن ضاق أمر فغير همته
لكشف ضيق الأمور لن يسعا

يا محيي العدل بعد ميتته
ورافع الحق بعد ما اتضعا

ونور دين الهدى الذي قمع الـ
شرك وعفى الضلال والبدعا

أنت سليمان في العفاف وفي الـ
ـملك وتحكي بزهدك اليسعا

حزت النقا والحياء والكرم المحـ
ـض وحسن اليقين والورعا

أسقطت أقساطاً وجدت من المكـ
ـس بعدل والقاسط إرتدعا

ولم تدع في ابتغاء مصلحة الد
ين لنا باقياً ولن تدعا

وكل ما في الملوك مفترق
من المعالي لملك اجتمعا

همتك الربط والمدارس تبنيـ
ـها ثواباً وتهدم البيعا

مـــــازلـــــت ذا فطنـــــة مـــؤيـــــدة
على غيـــــــوب الأسرار مطلعــــــــا
بــــأســـك البيـــض والطلى اصطحبــت
بعـــد لـــك الــــذئب والطـــلا رتعـــا
كـــم صـــائدلم يقـــع لــــه قنــص
في شرك وهــــو فيــــه قــــد وقعـــا
ومــــالـــــك حين رمـــــت قلعتــــه
غـــدا مطيعــــا لــــلأمـــر متبعـــا
عنــــا خشـــوعــــا الــــرب مملكــــة
لغير رب السماء مــــــا خشعــــــا
كـــان مقيما منهـــا على الفلـــك الـــــ
أعلى شهـــابـــا بنـــوره سطعـــا
لكنما الشهـــــــب مـــــا تنير إذا
لاح عمـــود الصبـــاح فـــانصـــدعـــا
يـــدفعهـــا طـــائعـــا إليـــك وكـــم
عنهـــا إبــــاء بجهـــــده دفعـــا
هـــي التـــي في علــــوهـــا زحـــل
كـــر على وردهـــا ومـــاكـــرعـــا
وهـــي التـــي قـــاربــت عطـــارد في الـــــ
ـــــأفق فـــلاحـــا والفـــرقـــديـــن معـــا
كـــان منهـــا السهـــا إذا استرق السمـــــ
ــــع أتـــاهـــا في خفيـــة ودعـــا
هضبـــة عـــز لـــولاك مـــا ارتقيـــت
وطـــود ملـــك لـــولاك مـــا فـــرعـــا
مـــــا قبلـــــت في ارتقــــاء ذروتها
مـــن ملـــك لا رقـــى ولا جـــذعـــا
عـــزت على المالـــك الشهيـــد واعـــــــ
ـــــطتك قيـــاداً مـــا زال ممتنعـــا

لـــلأب لـــو حـــل خطبهـــا الغـــدا
محرمـــا لابنـــه ومـــا شرعـــا

لازلـــت محمـــود في أمـــورك محمـــو
دا بثـــوب الاقبـــال مـــدرعـــا

وفي سابع عشر صفر من هذه السنة توفي بهاء الدين عمر أخو مجد الدين بن الداية، وفيه وفي أخويه يقول العماد الكاتب من قصيدة:

أنتـــم لمحمـــود كـــآل محمـــد
متصـــادقـــي الأفعـــال والأسماء

يتلـــو أبـــا بكـــر على حسنـــاتـــه
عمـــر الممـــدح في سنـــا وسنـــاء

ويليـــه عثمان المرجـــى للعـــلا
وعلي المأمـــــول في الـــــلأواء

وتقيـــل الحســـن المجـــد مجدهـــم
فهـــم ذوو الإحســـان والنعماء

فـرعـت لمجـد الـديـن أخـوتـه الـذرى
دون الـــورى في المجـــد والعليـــاء

مـــن ســـابـــق كـــرمـــا وشمـــس سيـــاده
شرفـــا وبـــدر دجنـــة وبهاء

سرج الهدى سحـب الندى شهـب النهـى
أســـد الحروب ضراغـــم الهيجـــاء

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين علي، وبدر الدين حسن، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين هو الأكبر، فهم خمسة رحمهم الله تعالى.

فصل

وفي هذه السنة فتحت الديار المصرية سار إليهـا أسد الدين مرة ثالثة، فهزم العـدو، وقتل شـاوراً وولي الوزارة مكـانه، ثـم مات فـوليها صـلاح الدين، وسبـب ذلك أن الفرنج كانـوا في النوبتين الأوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شيركوه قـد خبروا الديار المصرية واطلعوا على عوراتها، فطمعـوا فيها، ونقضوا مـا كان استقـر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد، فجمعوا وحشـدوا وقالوا: ما بمصر من يصدنا، وإذا أردناهـا فمن يردنا، ثـم قالوا: نـور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفراتية، وعسكر الشام متفرق كل منهم في بلده حافظاً لما في يده، ونحن ننهـض إلى مصر ولا نطيل بها الحصر، فـإنه ليـس لها معقل، ولا لأهلهـا منـا مـوئل، وإلى أن تجتمع عسـاكـر الشـام نكون قـد حصلنـا على المرام وقوينـا بتملك الـديار المصريـة على سائر بـلاد الإسلام، فتـوجهوا إليهـا سائريـن ونحوهـا ثائرين، وأظهـروا أنهم على قصد حمص وشـايعهم على قصد مصر جماعة من أهلهـا كابن الخياط وابن قرجلـة وغيرهما من أعداء شـاور، وكـان الفرنـج قـد جعلـوا لهم شحنـة بمصر والقاهـرة، واسكنـوا فرسـانهم أبواب البلـدين والمفـاتيح معهـم على ما سبـق ذكره، وتحكمـوا تحكماً كبيراً، فطمعـوا في البلاد وأرسلـوا إلى ملكهم مـرى، ولم يكن ملـك الفرنج مذخرجوا إلى الشام مثله شجـاعة و مكراً ودهاء يستدعونه لتملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانع عنهـا، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبهم إلى المسير، واجتمع فرسـان الفرنج وذوو الرأي والتقدّم وأشـاروا عليه بالمسير إليهـا،والإستيلاء عليهـا، فقـال لهم : الرأي عنـدي أن لانقصـدها فـإنها طعمـة لنا، وأمـوالها تسـاق إلينا نتقـوى بها على نـور الـدين، وإن نحـن قصدنـاها لتملكهـا فإن صـاحبها وعسـاكره وعـامة أهـل بلاده وفـلاحيه لايسلمونها إلينـا ويقاتلوننـا دونها، ويحملهم الخوف منـا على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثـل أسد الدين فهو هلاك الفرنج

وإجلاؤهم من أرض الشام، فلم يصغوا إلى قوله وقالوا: إن مصر لامانع لها ولا حافظ وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها، وكانوا قد عرفوا البلاد، وانكشف لهم أمرها فأجابهم إلى ذلك على كره شديد، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام، وخاصة مدينة حمص، وتوجهوا من عسقلان في النصف من المحرم، ووصلوا أول يوم من صفر إلى بلبيس ونازلوها وحصروها فملكوها قهراً ونهبوها ، وسبوا أهلها، وأقاموا بها خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد، وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه، ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس ملكوا مصر والقاهرة سرعة، ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضي الله أمراً كان مفعولا، وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفاً عليها من الفرنج . فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر ، ثم ضاق الحصار وخيف البوار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية فشرع في تمحل الحيل وأرسل إلى ملك الأفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة وأن هواه معه، وتخوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لايوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين، فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض، ويؤخر البعض، واستقرت القاعدة على ذلك، ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم، وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين، وقالوا نأخذ المال نقوى به ونكثر من الرجال ثم نعود إلى البلاد بقوة لانبالي معها بنور الدين ولاغيره (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) [١٠٢] فعجل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً، وكان خليفة مصر العاضد

عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر، ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال، عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث البلاد من مصر، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده في عسكر، واقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين، هذا قول ابن الأثير.

وقال العماد: عجل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعاً وإرغاما له واطماعاً، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخا مستنفراً، وبمانا الإسلام من الكفر مخبراً، ويقول إن لم تبادر ذهبت البلاد، وسير الكتب مسودة بمدادها كاسية لباس حدادها، وفي طيها ذوائب مجزوزة، وعصائب محزوزة، أظن أنها شعور أهل القصر، للإشعار بها عراهم من بلية الحصر، وأرسلها تباعاً، وأردف بها نجابين سراعاً، وأقام منتظراً، ودام متحيراً، وعامل الفرنج بالمطال ينقدهم في كل حين مالاً، ويطلب منهم إمهالًا ، ومازال يعطيهم ويستميلهم، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله.

فصل
فيما فعله نور الدين

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولا من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين ليستدعيه من حمص، وهي اقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في هذا الأمر، فبقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار لأنه كان قد

طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكفر، فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره، وأمره بالتجهز إلى مصر، والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، فكان في مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء والمماليك منهم: مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش ، وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وغيرهم، ورحلوا على قصد مصر مستنزلين من الله تعالى النصر، وذلك منتصف ربيع الأول، وخيم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء، وأقام ينتظر ورود المبشرات، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان يعني صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : (وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم)(١٠٣)

وقال ابن الأثير : أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه.

حكي لي عنه أنه قال: لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستحضرين أحضرني وأعلمني الحال، وقال تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه تأمره بالحضور وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير، قال: ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادما في هذا المعنى، فقال له نور الدين: تجهز للمسير. فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولايبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره. قال: فالتفت إليّ عمي أسد الدين، وقال : تجهز يا يوسف. قال : فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق مالا أنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين لابد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا استقيله، ثم انقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ، ولم يبق غير المسير فقال لي نور الدين: لابدّ من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه المضايقة، وقلة الدواب، وما احتاج إليه فأعطاني ما تجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت، وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه.

قلت: وحرضة أيضاً حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة مدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلاً
إذا ما يوسف بالمال جادا
فتى للدين لم يبرح صلاحاً
وللأعداء لم يبرح فسادا

لئـــن أعطـــاه نـــور الـــديـــن حصنـــا
فـــــإن الله يعطيـــــه البـــــلادا

إلى كـــم ذا التـــواني في دمشـــق
وقـــد جـــاء تكـــم مصر تهادى

عـــروس بعلهـــا أســـد هـــزبـــر
يصيـــد المعتـــديـــن ولـــن يصـــادا

ألا يـــا معشر الأجنـــاد سيروا
وراء لـــوائه تلقـــوا رشـــادا

فما كـــل أمـــرىء صلى مـــع النـــا
س مـــأمـــومـــا كمـــن صلى فـــرادا

فلما سار صلاح الـدين إلى مصر، عبر العرقلةعلى داره فوجـدها مغلقة فقال:

عبرت على دار الصـــلاح وقـــد خلـــت
مـــن القمـــر الـــوضـــاح والمنهـــل العـــذب

فـــوالله لـــولا سرعـــة مثـــل عـــزمـــه
لغـــرقهـــا طـــرفي وأحـــرقهـــا قلبـــي

ودار صلاح الـدين هـي التي وقفها ربـاطاً للصوفيـة بحارة قطـامش، جوارقيسـارية القصـاع، وإليها يجري الماء مـن حمام نور الـدين رحمه الله، فقضـى الله مـا قضـى مـن رحيـل الفرنـج، وتملـك صـلاح الـديـن على ماسيـأتي، وللأمير الفاضل أسـامة بن منقـذ في صلاح الدين مـن قصيدة أوّلها:

(سلم على مصر لاربع بذي سلم)

يقول فيها:

النـــاصر الملـــك الموفي بـــذمتـــه
ومـــن نـــدى كفـــه يغنـــي عـــن الـــديـــم

ومـــن إذا جـــرد البيـض الصـــوارم في الــــــ
ــــــهيجاء أغمـدهـــا في البيـض والقمـــم
ومـــن حـــوى الملكمـــن بعـد الطـــاعـــة في أنـــ
ـتـــزاعـــه بشبـــا الهنـــديـــة الخذم
ورد طـــاغيـــة الأفـرنـــج يحســـب مـــا
رجـــاه مـــن ملـــك مصر كـــان في الحلـــم
ولى وراحتـــه صفـــر وقـــد ملئـــت
بعـــد الطماعـــة مـــن يـــأس ومـــن نـــدم
يصعـــدون على مـــا فـــاتهم نفســـا
لـــو لا فـــح البحـر أضحـى الموج كـالحمـــم
وفي الســـلامـــة لـــو لا جهلهـــم ظفـــر
لمن أراد نـــزال الأســـد في الأجـــم
وهـــم أســـود الشـــرى لكـــن أذلهم
ملـــك لـــديـــه الأسـود الغلـــب كـالغنـم

وله من قصيدة أخرى:
أقمـــت عمـــود الـــديـــن حين أمـــالـــه
لطـاغـي الفـرنـج الغتـم طـاغـي بنـي سعـد
وجـاهـــدت حـــزب الكفـــر حتـــى رددتهم
خـــزايـــا عليهـــم خيبـــة الـــذل والـــردّ
أفـــدت بما قـــدمـــت ملكـــا مخلـــدا
وذكـــرا مـــدى الأيـــام يقـــرن بـالحمـــد
وذكـــرك في الآفـــاق يسري كـــأنـــه الـــــ
ــــــصباح لـــه نشر الألـــوّة والنـــد

ولأبى الحسن بن الذروي فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مرّي:
ولكـــم أشمـــت الـــروم أشـــأم بـــارق
أضحـــت ميـــاه نفـــوسهـــا مـــن قطـــره
وافـــاك بحـــر دروعهـــا عـــن مـــدّه
ومضـــى وقـــد حكمـــت ظبـــاك بجـــزره

ولقيت مـرّيـا وطعـم حيـاتـه
حلـو فبـدّلـه القتـال بمـرّه
فـاعقـد إليـه الـرأي في عـذب القنـا
واحلـل بها عجـلا معـاقـد كـره
واطـرده مـن وكـر الشـآم فـإنـه
قـد طـار منـك بخـافـق مـن ذعـره

فصل
في القبض على شاور وقتله

وصل أسد الديـن القاهرة سابع ربيع الآخر، واجتمع بـالعاضد خليفة مصر فخلع عليه وأكـرمه، وأجريت عليه وعلى عسـاكره الجرايات الكثيرة والاقامـات الوافـرة، ولم يمكن شاور المنـع من ذلـك لأنه رأى العسـاكر كثيرة بظاهـر البلد، ورأى هوى العاضـد معهم من داخله، فلـم يتجاسر على إظهار ما في نفسـه، فكتمه وهو يماطل أسـد الدين في تقريـر ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفـراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كـل يوم إلى أسد الديـن، ويسير معه ويعده ويمنيه (ومـا يعدهم الشيطان إلاغروراً)[١٠٤] ثم إنـه عزم على أن يعمـل دعوة لأسـد الديـن ومن معه من الأمـراء ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامـل، وقال له : والله لئن عزمت على هـذا الأمر لأعرّفن أسد الدين، فقـال له أبوه: والله لئن لم أفعـل هذا لنقتلـنّ جميعـاً، فقال : صـدقت ولئـن نقتـل ونحن مسلمـون والبلاد بيـد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكهـا الفرنج، فليـس بينك وبين عود الفرنـج إلاّ أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئـذ لو مشى العاضـد إلى نور الديـن لم يرسل فارسـاً واحداً، ويملكون البـلاد فترك ما كان عـزم عليه، فلما رأى العسكـر النوري المطل مـن شاور اتفـق صلاح الدين يـوسف وعز الديـن جرديك وغيرهما على قتل شـاور، وأعلموا أسد

الديـن بذلـك فنهاهم فقـالوا: إنا ليـس لنا في البـلاد شيء مهما هذا على حاله، فأنكـر ذلك، واتفق أن أسد الدين سـار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعـي رضي الله عنه، وقصـد شاور عسكـره على عادتـه للإجتماع بـه، فلقيه صلاح الدين وعز الديـن جرديك ومعهما جمع من العسكر فخدموه وأعلمـوه أن أسد الـدين في الـزيـارة، فقال: نمضي إليـه فسار وهما معـه قليـلاً، ثم سـاوروه وألقوه عـن فرسـه، فهرب أصحـابه، وأخـذ أسيراً، ولم يمكنهم قتلـه بغير أذن أسد الـدين فسجنوه في خيمـة وتوكلـوا بحفظه ، فعلـم أسـد الـديـن الحال، فعاد مسرعـاً ولم يمكنـه إلاّ إتمام مـا عملـوه، وأرسل العاضد لـدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسـد الدين يطلب منه رأس شـاور، ويحثه على قتلـه، وتابـع الرسـل بذلـك، فقتل شـاور في يومـه، وهو سـابع عشر ربيع الآخـر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخـل أسد الدين القاهـرة فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خـافه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمـركم بنهب دار شـاور، فقصدها النـاس ينهبونها، فتفرّقوا عنه ، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابـن شدّاد : أقـام أسد الديـن بها يتردّد إليه شـاور في الأحيان، وكان وعدهـم بمال في مقابلة ماخسروه مـن النفقة، فلم يوصل إليهم شيئاً وعلقـت مخاليب الأسـد في البلاد، وعلـم أن الفرنـج متى وجـدوا فرصـة أخذوا البـلاد، وأن تردّدهـم إليها في كل وقـت لايفيد، وأن شـاوراً يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى، وملاكها قـد كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لاسبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقـاء شاور، فأجمعوا أمرهم على قبضـه إذا خـرج إليهم، وكـانـوا هـم يتردّدون إلى خدمتـه دون أسـد الدين، وهو يخرج في الأحيـان إلى أسد الدين يجتمع به، وكـان يركب على قاعدة وزارتهم بـالطبل والبوق والعلم، فلم يتجـاسر على قبضه منهم إلاّ السلطـان نفسه، يعنـى صلاح الـدين، وذلـك أنه لما سـار إليهم، تلقـاه راكبـاً، وسـار إلى جـانبـه وأخذ بتـلابيبـه وأمـر العسكـر أن أخـذوا على أصحابه، ففرّوا ونهبهم العسكر، وقبـض شاور وأنزل إلى خيمة مفردة، وفي

الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لابد من رأسه جريا على عادتهم في وزارتهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبته وأنفذوا رأسه إليهم.

قال العماد: ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الإيوان، وخلع عليه، ولقى الإحسان، وتردّد شاور إلى أسد الدين وتودّد، وتجدّد بينهما من الوداد ماتأكد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والأطعمة الواسعة والحلاوات والميرة، فقال صلاح الدين:هذا أمر يطول ، ومسألة فرضها يعول، ومعنا هذا العسكر الثقيل وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل، ولا أمر لنا مع استيلاء شاور، لاسيما إذا راوغ وغادر، فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى إلى شاور يشير عليه بالاحتراس، وقال له: أخشى عليك من عندي من الناس، فلم يكترث بمقاله، وركب على سبيل انبساطه واسترساله، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النوريه، وهو راكب على عادته في هيئته الوزيرية، فبغته وشحته وقبضه وأثبته، ووكل به في خيمة ضربها له ، وحاول إمهاله فجاء من القصر من يطلب رأسه ويعجل من العمر يأسه، وجاء الرسول بعد الرسول وأبوا أ ن يرجعوا إلا بنجح السول، فحم حمامه، وحمل إلى القصر هامه.

قلت: وبلغني أن الذي حز رقبة شاور هو عز الدين جرديك، وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجنبه وأراد إفراده عن العسكر، فالتمس منه المسابقة بفرسيهما، فأجابه ووافقهما في ذلك جرديك، وكان ذلك عن أمر قد تقرّر فحرّكوا خيلهم، فلما بعدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجرديك على شاور داخل الخيمة، وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عرقلة:

لقد فاز بالملك العقيم خليفة
له شيركوه العاضدي وزير

كان ابن شاذي والصلاح وسيفه
علي لديه شبر وشبير
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه
وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال قائل
على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره
ولا زال فيها منكر ونكير

وقال أيضاً:
إن أمير المؤمنين الذي
مصر حماه وعليّ أبوه
نص على شاور فرعونها
ونص موساها على شيركوه

وقد وصف الفقيه الشاعر أبو حمزة عمارة اليمني في كتاب الوزراء المصرية الذي صنفه حال شاور في وزارته الأولى، ثم قال: وزارة شاور الثانية:فيها تكشفت صفحاته، وأحرقت لفحاته، وأغرقت نفحاته، وغضه الدهر وعضه وأوجعه الثكل وأمضه، وبان غمره وثماده وجمره ورماده، ولم يجف من الانكاء لبده، ولا صفا من الاقذاء ورده، وما هو إلا أن تسلمها بالراحة، وسلمت له الهموم عوضاً عن الراحة، وفي أوّل ليلة دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالباً بلبيس، فأقام بها، ثم عاد إلى القاهرة ، فكسر الناس يوم التاج، وأسر أخوه صبح ، وأصيب على باب القنطرة بحجر كاد يموت منه، وتعقب ذلك بنقل القتال على القاهرة حتى دخلت من الثغرة، ثم تبع هذا مجيء الفرنج وعمل البرج وحصار بلبيس، ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخياط طالباً للوزارة، ثم تلا ذلك نفاق لواته ومن ضامها من قيس، وخروج أخيه نجم وابنه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم، ثم خروج ابنه الكامل في بقية العسكر، وفي

أثناء هذه المدّة قبضه على الأثير ابن جلب راغب وقتله ، وأسر معالي بن فريج ثم قتله، واتصل إليه الخبر من قدوم أسد الدين إلى أطفيح بأم النوائب الكبر، ووافق مجيء الغزّ قدوم الفرنج ناصرين للدولة، وتوجهوا من مصر في البرّ الشرقي تابعين للغز، ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال ما تنقطع دونه الآمال وخيموا على ساحل المقسم، وأظهروا رجوعهم إلى الشام ، فتجهز الكامل للمسير صحبة الأفرنج.

حدّثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني قال: أنا أذكر وقد خلونا في خيمة، وليس معنا أحد إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج، وعزم نجم على التغرب إلى سليم وما وراء ها ، وقال شاور: لكن لاأبرح أقاتل بمن صفا معي حتى أموت، فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الداعي ابن عبد القوي وصنيعة الملك جوهر وعز، وقد التزموا المال، وتفرّع على هذا الأصل مقام الغزّ بالجيزة ونوبة البابين، وحصار الاسكندرية، وانصراف الغز راجعين والفرنج بعدهم، فما هو إلاّ أن توهم شاور أن الدهر قد نام وغفا، وصفح عن عادته معه وعفا، وإذا الأيام لاتخطب إلاّ زواله وفوته ، ولا تريد إلاّ إنتقاله وموته، فكان من قدوم الفرنج إلى بلبيس ، وقتل من فيها، وأسرهم بأسرهم ما أوجب حريق مصر، ومكاتبة الأجل نور الدين ابن القسيم، وإنجاده كلمة الإسلام بأسد الدين، ومن معه من المسلمين، الذين قلت فيهم ، وقد ربط الافرنج بالطريق عليهم:

أخذتم على الافرنج كل ثنية
وقلتم لأيدي الخيل مرّي على مرّي

لئن نصبوا في البرّ جسراً فإنكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر

قلت: وهذان البيتان من قصيدة ستأتي، ومرّي هو اسم ملك الأفرنج.

قال عمارة: فقضى قدوم الغز برحيل الفرنج عن الديار المصرية، ولم يلبث شاور أن مات قتيلا بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له، قال: ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته تسعة أشهر مدّة حمل الجنين، ولا أتلف أموالهم مثل شاور، وشاور هو الذي أطمع الغزّ والأفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها، ولما عاد من حصار الاسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار.

وقال الحافظ أبو القاسم: لما خيف من شر شاور ومكره، لما عرف من غدره وختره، واتضح الأمر في ذلك واستبان، تمارض الأسد ليقتنص الثعلبان، فجاءه قاصداً لعيادته جاريا في خدمته على عادته، فوثب جرديك وبزغش موليا نور الدين فقتلا شاوراً، وأراحا العباد والبلاد من شرّه وما شاورا، وكان ذلك برأي صلاح الدين فإنه أوّل من تولى القبض عليه، ومدّيده الكريمة بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين، وملك وخلع عليه الخلع وحنك، واستولى أصحابه على البلاد، وجرت أموره على السداد، وظهر منه جميل السيرة، وظهرت كلمة السنة.

- ٧٩٣٨ -

فصل
في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر، أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر، وترتب وزيراً ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها، وهي التي كان بها شاور فمن قبله من الوزراء، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقرّ في الأمر، ولم يبق له فيه منازع ولا مناو، وولى الأعمال من يثق إليه، واستبدّ بالولاية فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للأمور مقرّر لها وزمام الأمر والنهي مفوّض إليه لمكان كفايته ودرايته، وحسن تأتيه وسياسته.

قال العماد: وكتب لأسد الدين منشور من القصر بسيط الشرح طويل الطي والنشر، كتب العاضد في طرّته بخطه ، ولاشك أنه باملاء كتابه: هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوّة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوّة، واتخذه للفوز سبيلا:(و لا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) (١٠٥).

نسخة المنشور

من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد

الأجـل الملك المنصـور، سلطـان الجيـوش، ولي الأئمة، مجير الأمـة، أسـد الدين، كـافل قضاة المسلمين ، وهادي دعـاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العـاضد، عضـد الله بـه الديـن، وأمتـع بطول بقـائه أمير المؤمنين، وأدام قدرتـه وأعلى كلمته، سلام عليـك، فإنـه يحمد إليك الله الـذي لا إله إلاّ هو ، ويسأله أن يصلى على محمد خـاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما .

ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتمـل على كلام طويل، وحشو غير قليل على عادة الكتاب المتـأخرين، الذيـن تراهـم بالألفـاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبريـن، والبلاغـة عكس ذلـك قال النبـي صلى الله عليه وسلـم «بعثت بجوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً».

ولما استقل أسد الذين بالوزارة، طلـب من القصر كاتب إنشاء فأرسل إليه بـالقاضي الفـاضل عبـد الرحيم ابـن البيساني، وكـان أبوه مـن أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخـرج الفاضل إلى الديار المصرية فولي كـاتباً بالاسكنـدرية على باب السـدرة، ثم إنه اتصـل بالكامـل بن شاور فـاستكتبه، وزاحـم به كتاب القصر فثقـل عليهم أمـره، فلما طلب أسد الـدين كاتباً أرسـل إليه، وظنّ رؤسـاء ديوان المكاتبات أن هـذا أمر لايتم، وأن أسد الـدين سيقتل كما قتل من كـان قبله، فأرسلوا بـالفاضل إليه، وقالوا: لعلـه يقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا ، فكـان من أمره ما كـان واستمرّ في الـدولـة ولم يزدد في كـل يـوم الا تقدّمـا بصـدقه ودينـه، وحسن رأيه رحمه الله .

وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لأسد الدين أوّلها.

بـالجد أدركــت مــا ادركــت لا اللعــب
كــم راحــة جنيــت مــن دوحــة التعــب

يـا شيركـوه بـن شـاذي الملـك دعـوة مـن
نــادى فعــرّف خير ابــن بخير أب
جـرى الملــوك ومـا حـازوا بـركضهـم
مـن المدى في العلى مـا حـزت بـالخبـب
تمل مــن ملــك مصر رتبــة قصرت
عنهـا الملـوك فطـالـت سـائر الـرتـب
فتحــت مصر وأرجـــو أن تصير بها
ميسرا فتــح بيـت القـدس عـن كثـب
قـد أمكنـت أسـد الـديـن الفـريسـة مـن
فتــح البـلاد فبـادر نحـوهــا وثــب
أنــت الــذي هـو فــرد مـن بسـالتـه
والـديـن مـن عـزمـه في جحفـل لجب
في حلـق ذي الشرك من عـدوى سطاك شجـا
والقلـب في شجــن والنفـس في شجــب
زارت بنـي الأصفـر البيـض التـي لقيـت
حمر المنـايـا بها مـرفـوعـة الحجـب
وإنها نقــد مــن خلفهــا أســد
أرى سـلامتهــا مـن أعجـب العجـب
لقــد رفعنــا إلى الـرحمن أيــدينـا
في شكـرنـا مـابـه الاسـلام منـك حبـي
شكــا إليــك ينـو الاســلام يتمهــم
فقمـت فيهــم مقـام الـوالـد الحدب
في كــل دار مــن الأفـرنــج نــادبــة
بما دهــاهــم فقـد بـاتـوا على نـدب
مــن شر شــاور انقــذت العبـاد فكـم
وكــم قضيــت لحزب الله مــن أرب
هــو الـذي أطمـع الأفـرنـج في بلـد الــ
ــإسلام حتـى سعـوا للقصـد والطلـب

وإن ذلـــك عنـــد الله محتســـب
في الحشر مـن أفضـل الطـاعـات والقـرب
أذلـــه الملـــك المنصـــور منتصرا
لمادعــا الشرك هـــذا قـــد تعـــزز بي
ومـــا غضبـــت لـــديـــن الله منتميـــا
إلا لنيـــل رضـــى الـــرحمن بـــالغضـــب
وأنـــت مـــن وقعـــت في الكفـــر هيبتـــه
وفي ذويـــه وقـــوع النـــار في الحطـــب
وحين سرت إلى الكفـــار فـــانهزمـــوا
نصرت نصر رســـول الله بـــالـــرعـــب
يـــامحيـــي الأمـــة الهادي بـــدعـــوتـــه
للـــرشـــد كـــل غـــوي منهـــم وغبـــي
لماسعيـــت لـــوجـــه الله مـــرتقبـــا
ثـــوابـــه نلـــت عفـــواً كـــل مـــرتقـــب
أعـــدّت نقمـــة مصر نعمـــة فغـــدت
تقـــول كـــم نكـــت لله في النكـــب
أركبـــت رأس سنـــان رأس ظـــالمهـــا
عـــدلا وكنـــت لـــوزر غير مـــرتكـــب
ردّ الخلافـــة عبـــاسيـــة ودع الـــــ
ــــدعي فيهـــا يصـــادف شر منقلـــب
لاتقطعـــن ذنـــب الأفعـــى وتـــرسلهـــا
فـــالحزم عنـــدي قطـــع الـــرأس كـــالـــذنـــب

وقال العماد في الخريدة: أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه وقد أعفى الملك العادل نور الدين قدّس الله روحه أهل دمشق من المطالبة بالخشب، فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر، فكتب إليه يهنيه

لماسمحـــت لأهـــل الشـــام بـــالخشـــب
عـــوضـــت مصر بمافيهـــا مـــن النشـــب

وإن بذلت لفتح القدس محتسبا

للأجر جوزيت أجراً غير محتسب

والأجر في ذلك عند الله مرتقب

فيما يثيب عليه خير مرتقب

والذكر بالخير بين الناس تكسبه

خير من الفضة البيضاء والذهب

ولست تعذر في ترك الجهاد وقد

أصبحت تملك من مصر إلى حلب

وصاحب الموصل الفيحاء ممتثلا

لما تريد فبادر فجأة النوب

فأحزم الناس من قوى عزيمته

حتى ينال بها العالي من الرتب

فالجدّ والجدّ مقرونان في قرن

والحزم في العزم والإدراك بالطلب

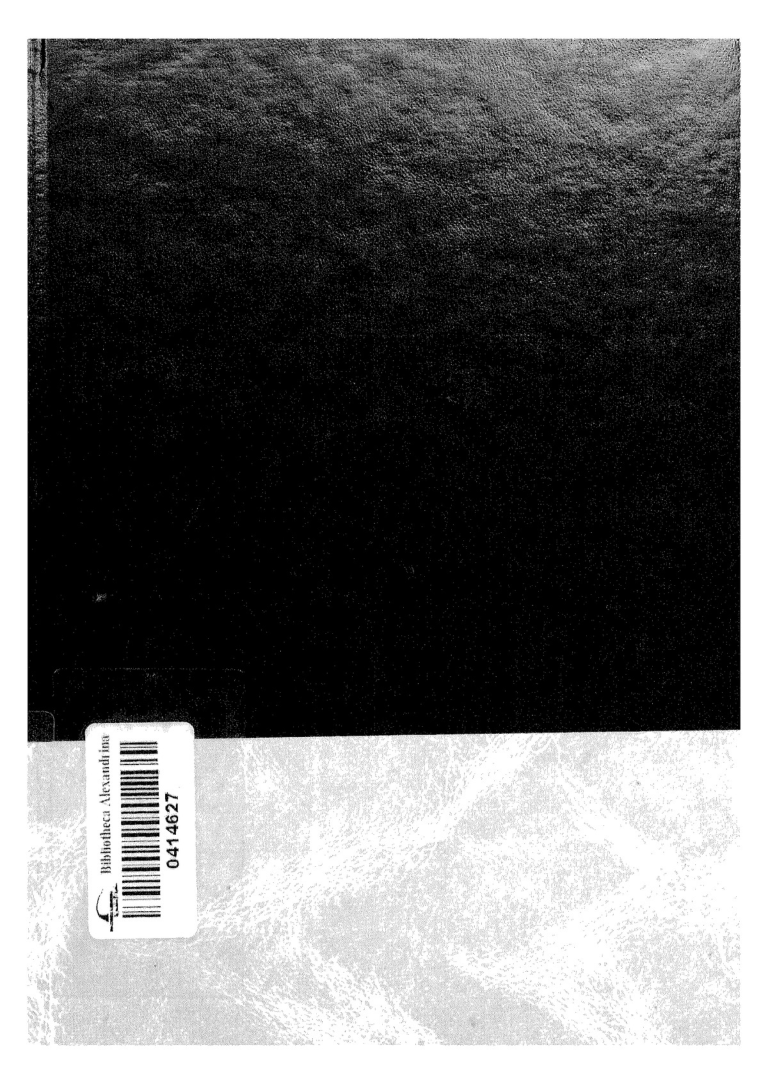
فطهر المسجد الأقصى وحوزته

من النجاسات والأشراك والصلب

عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا

وفي القيامة تلقى خير منقلب(١٠٦)

المحتوى


Bibliotheca Alexandrina
0414627